بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده و نستعينه و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، و من سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن سيدنا و مولانا و حبيبَنا و قرة أعيننا مُحَمَّدا عبده و رسوله ، صلى الله عليه و على آله الطيبين الطاهرين ، و على من اقتفى أثرهم و استن بسنتهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا كتاب فيما ورد من القرآن أو صح عن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أو عن أفاضل صحابته أو أئمة أهل بيته من نصوص السيرة و أجزاءها المتناثرة هنا و هناك ، جمعتها و أَلَّفْتُ بين أجزاءها في الواقعة التي وردت فيها ، على حسب ما جاءت فيه من أحداث ، و صُغْتُها بأسلوبٍ سهل ، و رتبتها بما يتناسب مع صحيح المنقول في فقرات أو جمل ، مشيرا عند كل نهاية فقرة أو جملة إلى أصلها من الآيات أو الأحاديث الصحيحة ، و إذا لم أشر في آخر الجملة أو الفقرة إلى مصدرها ، فمصدرها يندرج في مصدر الجملة أو الفقرة التالية ، و إذا كان الحديث حسنا بمجموع طرقه و شواهده ، ذكرت جميع مصادرِ طرقه و شواهده ، و ربما ذكرت لفظ الحديث بمعناه السهل من أجل التيسير ، أو رَبْطِ الحديثين الواردين في قصة واحدة ببعضهما ، مما تقتضيه الضرورة ، و كل حَدَثٍ لم يصح تاريخه بالسند الصحيح ، أعرضت عن ذكر سنة وقوعه ، بخلاف الأحداث التي وردت تواريخها بالسند الصحيح ، أو اتفق أهل السير على تاريخها ، و نقلت كلام كل قائل ممن صح قوله كما هو بين قوسين أو بمعناه بين عارضتين .

بسم الله الرحمن الرحيم

البشارات

سَبَقَتْ وِلَادَةَ النبي صلى الله عليه و آله و سلم بشاراتٌ كثيرة عن الأنبياء قبله ، فكان أهلُ الكتاب ينتظرون خروجه في القرن الذي ولد فيه ، و في المكان الذي بعث منه أو هاجر إليه ، بعد أن عم ظلام الجهل بالله البشرية ، و خَبَت أنوار النبوة في العالم ، فكان الكثير من الصادقين قبل البعثة ، ينتظرون بعثة آخر الأنبياء ، الذي يخَلِّصُ الله به الأرض من الضلال و الانحراف ، و كان من بين هؤلاء الصادقين : رجل نشأ في جزيرة العرب ، اسمه : زيد بن عمرو بنِ نُفَيْل ، حيث خرج إلى الشام ، يسأل عن الدين الصحيح ؛ لِيَتَّبِعَه ، فلقي عالما من علماء اليهود ، فسأله عن دينهم ، و قال له : (إني لَعَلِّي أن أَدِين دينكم ، فأخبرني) . فقال له : (لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك مِنْ غضب الله) . فقال زيد : (ما أَفِرُّ إلا من غضب الله ، و لا أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، و أَنَّى أستطيعه ، فهل تدلني على غيره) ؟ فقال له : (ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا) . فقال زيد : (و ما الحنيف) ؟ فقال : (دين إبراهيم ، لم يكن يهوديا ، و لا نصرانيا ، و لا يعبد إلا الله) . فخرج زيد فلقي عالما من النصارى ، فذكر له مثل ما ذكره لسابقه ، فقال له : (لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله) . فقال : (ما أَفِر إلا من لعنة الله ، و لا أحمل من لعنة الله ، و لا من غضبه شيئا أبدا ، و أَنَّى أستطيع ، فهل تَدُلَّنِي على غيره) . فقال : (ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا) . فقال : (و ما الحنيف) ؟ فقال : (دين إبراهيم ، لم يكن يهوديا و لا نصرانيا ، و لا يعبد إلا الله) . حتى أتى راهبا في صومعة ، فوقف عليه ، فذكر له اغترابه عن قومه ، و كراهته عبادة الأوثان و اليهودية و النصرانية ، فقال له الراهب : (أراك تريد دين إبراهيم يا أخا أهل مكة ، إنك لتطلب دينا ما يؤخذ اليوم به ، و هو دين أبيك إبراهيم ، كان حنيفا ، لم يكن

يهوديا و لا نصرانيا ، كان يصلي و يسجد إلى هذا البيت الذي ببلادك ، فالحقْ بلدك ، فإن نبيا يُبْعَثُ مِن قومك في بلدك ، يأتي بدين إبراهيم بالحنيفية ، و هو أكرم الخلق على الله ، قد خرج نجمه ، فارجع فاقصده ، و اتبعه و آمن به) . فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع يديه فقال : (اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم) . فلما رجع إلى مكة كان يقول : (يا معشر قريش ، و الذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري) . ثم يقول : (اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ، و لكني لا أعلمه) . و كان يصلي إلى الكعبة ، و يقول : (إلهي إلهُ إبراهيم ، و ديني دينُ إبراهيم) . و كان زيد يحيي الْمَوْؤُدة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : (لا تقتلها ادفعها إلي أَكْفِكَ مُؤْنَتها) . فإذا ترعرعت قال له : (إن شئت فخذها الآن ، و إن شئت فدعها) .

لقد كان زيد نموذجا من نماذج العقول المستبصرة التي اهتدت إلى الحق بفطرتها ، غير أنها لم تكن مؤيَّدة بالوحي الذي من شأنه أن يُفَجّرَ الطاقات الإنسانية المبدَّدَة هنا و هناك ، إلا أن فطرته السليمة ، و عقله المستنير ، أنقذاه من عذاب الله تعالى ، حيث قال فيه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (هو أمة وحده يوم القيامة) .

و كان من بين هؤلاء الصادقين ، الذين كانوا ينتظرون خروج نبي آخر الزمان في جزيرة العرب ، رجل يسمى ابن الهَيِّبان ، و هو أحد عُبَّاد أهل الكتاب ، الذين كانوا يسكنون بالشام ، حيث إنه ترك أرضه و وطنه ، و هاجر إلى المدينة ، ينتظر النبي الْمُخَلِّص الذي بشر به الأنبياء في كتبهم ، فلم يكن في المدينة أحد أحسن عبادة منه ، و كان أهل المدينة إذا قَحَطَ عنهم المطر قالوا له : (اخرج يا ابن الهَيِّبان ، فاستسق لنا) . فيقول : (لا و الله ، حتى تُقَدِّموا بين يَدَيْ مخرجكم صدقة) . فيقولون له : (كم) ؟ فيقول : (صاعا من تمر ، أو مُدَّين من شعير) . فكانوا يخرجونها ، ثم يخرج بهم إلى ظاهر حَرَّتهم ، فيستسقي اللهَ لهم ، فما يَبْرَحُ مَجْلِسَهُ ، حتى يمر السحاب و يُسْقَون ، قد فعل ذلك غير مرة و لا مرتين و لا ثلاثٍ ، فلما

حضرته الوفاة عندهم و عَرَف أنه ميت ، قال : (يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر و الخمير ، إلى أرض البؤس و الجوع) ؟ فقالوا له : (إنك أعلم) . فقال : (فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانُه ، و هذه البلدة مُهَاجَرُه ، فكنت أرجو أن يُبْعَثَ فأتبعه ، و قد أظلكم زمانه ، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود) .

و كان أهل الكتاب القاطنون بجزيرة العرب ينتظرون بِعْثة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في المدينة ، و كانت لا تزال بين أهل الشرك و بينهم شرور ، فإذا نال منهم أهل الشرك بعض ما يكرهون ، قالوا لهم : (إنه قد تقارب زمان نبي يُبْعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد و إرم) .

و ذكر يهودي قبل البعثة في بني عبد الأشهل ، القيامة و البَعْثَ و الحساب و الميزان و الجنة و النار ، لجماعة من المشركين فقالوا له : (ويحك يا فلان ، أَوَتَرى هذا كائنا ، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة و نار ، يُجْزَون فيها بأعمالهم) ؟ فقال لهم : (نعم ، و الذي يُحْلف به ، و لَوَدَّ أحدكم أن له بحظه من تلك النار أعظمَ تَنُّور في الدار ، يُحْمُونه ثم يُدخلونه إياه فَيُطَيِّنُونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غدا) . فقالوا له : (ويحك يا فلان ! فما آية ذلك) ؟ فقال : (نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، و أشار بيده إلى مكة و اليمن) . فقالوا : (و متى تراه) ؟ فنظر إلى غلام من أحدثهم سنا ، فقال : (إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه) . و هذا الغلام هو الصحابي سَلَمَة بنُ سَلَامَة ، الذي قص هذه الحادثة بعد إسلامه . [1]

[1] [الأعراف: 157][الصف: 6][الفتح : 29][2 : 33 سفر التثنية][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 66/3 ـ 40/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1782/4][دلائل النبوة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 110/1 ـ 81/2][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 211/1 ـ 212 ـ 213 ـ 214 ـ 225] [سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 1/] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 476/38 ـ 477 ـ 410/39][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 590/5] [الطبقات الكبرى / دار صادر / ط 1 / 1968 م ـ 101/1 ـ 162][أمالي المحاملي رواية ابن يحيى البيع / المكتبة الإسلامية / دار ابن القيم / عمان / الأردن / الدمام / ط 1 / 1412 هـ ـ ص 66][معرفة الصحابة لأبي نعيم / دار الوطن للنشر / ط 1 / 1419 هـ ـ 1133/3][الآحاد والمثاني / دار الراية / ط 1 / 1411 هـ ـ 199/1]

الولادة

و هكذا لما بلغت البشرية خير قرونها ، لبعثة نبي آخر الزمان ، ولد النبي مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف صلى الله عليه و آله و سلم عام الفيل ، في يوم الاثنين ، الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، الموافق للخامسِ من شهر ماي ، سنة 570 م .

و لما ولدته أمه آمنةُ بنتُ وهب ، رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْهُ نُورًا أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ ، في إشارة من الله إلى أن دينه سيصل به إلى أقاصي الأرض .

و كان أبوه قد توفي و أمه حُبْلَى به .

و لما ولد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، إذا يهودي بِيَثْرِبَ يصرخ ذات غداة : (يا معشر يهود) . فاجتمعوا إليه ، فقالوا : (ويلك ما لَك) ؟ قال : (طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة) . و هو كوكب أحمر ، كان أهل الكتاب يعتقدون أنه لا يطلع إلا بخروج نبي و ظهوره ، فقالوا : (لم يبق أحد إلا أحمد) .

إلا أن الأمر الذي كان يجهله اليهود آنذاك ، هو أنه لم يكن يهوديا و لا نصرانيا ، بل كان من خير بطون ذرية إسماعيل عليه السلام ، كما قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إن الله خلق الخلق ، فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل ، فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا ، فجعلني في خيرهم بيتا ، و خيرهم نسبا ،، إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل ، و اصطفى قريشا من كنانة ، و اصطفى من قريش بني هاشم ، و اصطفاني من بني هاشم ،، خرجت من نِكَاح ، و لم أخرج من سِفَاح ، مِنْ لَدُن آدم ، إلى أن ولدني أبي و أمي) .[2]

[2] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1782/4][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 110/1][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 543/5][المعجم الأوسط / دار الحرمين ـ 80/5][دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / دار النفائس / بيروت / ط 2 / 1406 هـ ـ ص 79]

أسماؤه

و سُمِيَ مُحَمَّدا ، و له أسماء أخر سماه بها ربُّه سبحانه و تعالى ، و هي : أَحْمَدُ و المصطفى وَ المَاحِي وَ الحَاشِرُ و القَاسِمُ و الأَوَّلُ وَ الآخِرُ أو الْمُقَفِّي أو العَاقِبُ . [3]

مرضعاته

و في صغره أرضعته ثُوَيْبَة ، مولاة عمه عبد العزى ، و حليمة السَّعْدِيَّة في بني سعد بن بكر . [4]

شق صدره في الصغر

و لما كان صغيرا أتاه ملكان ، عليهما ثياب بِيض ، معهما طَسٌّ من ذهب مملوء ثلجا ، فأضجعاه ، و شقا بطنه ، ثم استخرجا قلبه فشقاه ، فأخرجا منه علقة سوداء ، فألقياها ، و قال أحدهما و هو جبريل عليه السلام : (هذا حظ الشيطان منك) . ثم غسلا قلبه و بطنه بذلك الثلج ، حتى إذا أنقَيَاه ، وضعا السكينة في قلبه ، ثم خاطاه ، و ردَّاه كما كان ، و بقي أثر ذلك المخيط في صدره إلى كبره ، ثم قال أحدهما لصاحبه : (زِنْهُ بعشرة من أمته) . فوزنه بعشرة ، فوزنهم ، ثم قال : (زنه بمائة من أمته) . فوزنه بمائة فوزنهم ، ثم قال : (زنه بألف من أمته) . فوزنه بألف فوزنهم ، و رجح بهم ، فقال : (دعه عنك ، فلو وَزَنْته بأمته لوَزِنَهم) . [5]

[3] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 84/4 ـ 185][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1683/3 ـ 1828/4][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 422/14][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 410/39]

[4] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 9/7][المطالب العالية محققا / دار العاصمة / دار الغيث / السعودية / ط 1 / 1419 هـ ـ 1420 هـ ـ 177/17]

[5] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 147/1][سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 51][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 146/1][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 195/29][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 436/9][المصابيح في السيرة / مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية / عمان / ط 2/ 1423 هـ ـ ص : 106]

وفاة أمه و رعاية جده ثم عمه له

و في السادسة من عمره ، تُوُفِّيَتْ أُمُّه آمنة ، فعاش يتيم الأبوين ، و بعد وفاة أمه ، رباه جده عبد المطلب ، بُرْهَةً مِنْ صِغَرِهِ ، و كان يحبه كثيرا ، و لا سيما بعد أن سقاهم الله به مَرَّةً ، إثر جفاف و قحط شديد أصابهم .

و كان يَرْعَى الغنم آنذاك ، مقابلَ قراريطَ ذهبية لأهل مكة .

ثم كان بعد وفاة جده ، في رعاية عمه أبي طالب ، الذي كان يصطحبه معه في أسفاره التجارية ، و في سَفَرٍ من الأسفار التجارية التي أخذه فيها معه عمه أبو طالب إلى الشام . و بينما كانا في مدينة بُصْرى ، في أشياخ من قريش ، إذا براهب اسمه بَحِيرى يتخللهم ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال : (هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين) . فقال له أشياخ من قريش : (ما علمك) ؟ فقال : (إنكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبق شجر و لا حجر إلا خر ساجدا ، و لا يسجدان إلا لنبي ، و إني أعرفه بخاتم النبوة ، أسفلَ من غضروف كتفه ، مثل التفاحة) . ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في رِعْيَةِ الإبل ، قال : (أرسلوا إليه) . فأقبل و عليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم ، وجدهم قد سبقوه إلى فَيْءِ الشجرة ، فلما جلس ، مال فَيْءُ الشجرة عليه ، فقال : (انظروا إلى فيء الشجرة ، مال عليه) . و بينما كان الراهب قائما عليهم ، يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، حتى لا يعرفوه بالصفة ، فيقتلوه ، إذا بسبعة قد أقبلوا من الروم ، فاستقبلهم ، فقال : (ما جاء بكم) ؟ فقالوا : (جاءنا أن هذا النبيَّ خارج في هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بُعث إليه بأناس ، و إنا إذ أُخبِرْنا خبرَه ، بُعِثْنا إلى طريقك هذا) . فقال : (هل خلْفَكُم أحد هو خير منكم) ؟ فقالوا : (إنما أُخْبِرنا خبرَه بطريقك هذا) . فقال : (أفرأيتم أمرا أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس ردَّه) ؟ فقالوا : (لا)

. فقال لهم : (فارجعوا) . ثم التفت إلى القافلة ، فقال : (أَنْشُدُكُم بالله ، أيُّكم وليُّه) ؟ فقال أبو طالب : (أنا) . فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب . [6]

مهنته في شبابه

و هكذا بعد أن مارس النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ التجارة مع عمه لمدة من الزمن ، واصل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هذه المهنة الأخيرة بعد وفاة عمه ، و كان معروفا فيها بين الناس بأمانته و وفاءه الذي كان مَضْرَبَ الأمثال . [7]

العصمة

و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ معصوما قبل البعثة بفطرته السليمة ، يستقبح عبادة الأوثان و الأصنام ، و يوحد الله جل جلالُه ، و يجانب المنكرات . فمن ذلك أنه كان صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يطوف بالبيت ، و لا يتمسح بصنم مصنوع من نحاس ، يدعى نائلة ، كما كان المشركون يتمسحون به إذا ما طافوا بالبيت . و كان صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ينهى غلامه زيد بن حارثة عن ذلك . و كان يقول صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء ، إلا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله تعالى فيهما) . حيث إنه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قال ليلة لبعض فتيان مكة ، و هما في رعاية غنم أهلهما : (أَتُبْصِرُ لي غنمي ، حتى أدخل مكة ، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان) . فقال له صاحبه : (بلى) . فدخل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى إذا جاء أول دار من دور مكة ، سمع عَزْفا بالغرابيل و المزامير ، فقال : (ما هذا) ؟ فقيل : (تزوج

---

[6] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 88/3][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 168/1][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 54/3][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 659/2][معجم ابن الأعرابي / دار ابن الجوزي / ط 1 / 1418 هـ ـ 752/2][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 590/5][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 97/8][كمال الدين وتمام النعمة / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة / 1405 هـ ـ 207/1][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 327/7]

[7] [سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 206/7]

فلان فلانة) . قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فجلست أنظر ، و ضرب الله تعالى على أُذُنَيَّ ، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس) . فلما رجع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى صاحبه ، قال له صاحبه : (ما فعلتَ) ؟ فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما فعلت شيئاً) . ثم قال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليلة أخرى : (أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة) . فلما دخل مكة ، سمع مثل الذي سمع في المرة الأولى ، فلما جلس ينظر ، ضرب الله على أذُنيه ، فنام ، فما أيقظه إلا مس الشمس ، فرجع إلى صاحبه ، فقال له صاحبه : (ما فعلت) ؟ فقال : (لا شيء) . قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فوالله ما هممت و لا عدت بعدها لشيء من ذلك ، حتى أكرمني الله عز و جل بنبوته) . [8]

رجاحة العقل

و كان صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في شبابه ، يشارك قومه فيما ينوبهم من قضايا تتعلق بشؤون بلدهم ، بعد أن عرفوه بالأمانةِ و الصدقِ و رَجَاحةِ العقل ، فقد شهِدَ وَ هو شاب حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مع عُمُومَتِه ، و هو عبارة عن معاهدة ، تعاقدت فيها قريش على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها ، أو مِن غيرهم ، ممن دخلها من سائر الناس ، إلا قاموا معه ، و كانوا على من ظلمه ، حتى يردوا عليه مظلمته . فكان صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يقول فيه بعد بِعْثَتِه : (مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ ، وَ أَنِّي أَنْكُثُهُ) . و كان يقول : (أيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة) .

كما شهد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إعادة بناء الكعبة ، حينما كان له من العمر خمس و ثلاثون سنةً ، فقد كانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرَّضْمِ ، و هي الحجارة الموضوعة فوق بعضها ، ليس فيها مَدَرٌ ، و هو الطين اللَّزِج الذي يجعل

[8] [مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي / مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية / ط 1 / 1421 هـ ـ ص 456][البحر الزخار / مؤسسة الرسالة / بيروت / دار الكتاب الإسلامي / القاهرة / ط 1 / 1975 مـ ـ 206/1][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 262/24][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 325/7][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 656/1][سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 79][المعجم الصغير / الروض الداني / المكتب الإسلامي / دار عمار / ط 1 / 1405 هـ ـ 138/2] [دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 33/2 ـ 34]

بين اللَّبِنَتَيْنِ ؛ لتلتصق ببعضها ، و كانت الكعبة قَدْرَ ما يقتحمها العَنَاق ، و هي الأُنْثَى من أولاد المعز ، و كانت غيرَ مَسْقُوفة ، و إنما توضع ثيابها عليها ، ثم تُ ُسْدل سدلا عليها ، و كان الركن الأسود موضوعا على سورها باديا ، و كانت ذاتَ ركنين ، كهيئة الْحَلْقة ، مربعةً من جانب و مدورةً من جانب ، فأقبلت سفينة من أرض الروم ، حتى إذا كانوا قريبا من جدة انكسرت السفينة ، فسمعت بها قريش ، فركبوا إليها ، ليأخذوا خشبها ، فوجدوا روميا عندها فأخذوا الخشب ، أعطاهم إياها ، و كانت السفينة تريد الحبشة ، و كان الرومي الذي في السفينة نجارا ، فقدموا بالخشب ، و قدموا بالرومي ، فقالت قريش : (نبني بهذا الخشب بيت ربنا) . فلما أن أرادوا هدمه ، إذا هم بحية ضخمة على سور البيت ، سوداء الظهر ، بيضاء البطن ، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه أو يأخذ من حجارته ، سعت إليه فاتحة فاها ، فاجتمعت قريش عند الحرم ، فعجوا إلى الله و قالوا : (ربنا لم تُرَعْ ، أردنا تشريف بيتك و ترتيبَه ، فإن كنت ترضى بذلك ، و إلا فما بدا لك فافعل) . فسمعوا خُوَارا في السماء ، فإذا هم بطائر أعظم من النسر ، أسود الظهر ، و أبيض البطن و الرجلين ، فغرز مخالبه في قفا الحية ، ثم انطلق بها يجرها ، و ذنَبُها أعظم من كذا و كذا ساقط ، حتى انطلق بها نحو أجياد ، فهدمتها قريش ، و جعلوا يبنونها بحجارة الوادي ، تحملها قريش على رقابها ، فرفعوها في السماء عشرين ذراعا ، و بينما كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يحمل حجارة من أجياد و عليه نَمِرَة ، و هي هنا رداء يُلْبَسُ من فوق ، إذ ضاقت عليه النمرة ، و عليه إزار ، فقال له العباس عمه : (يا ابن أخي ، لو حللت إزارك ، فجعلته على منكبيك دون الحجارة) . فَحَلَّه ، فبدت عورته من صغر النَّمِرَة ، فنودي : (يا مُحَمَّد ، خَمِّرْ عورتك) . فسقط على وجهه مغشيا عليه ، فألقى عمه حجره ، و جاءه يسعى ، فإذا هو ينظر إلى السماء ، فقال له : (يا ابن أخي ما شأنك) ؟ فقام و أخذ إزاره فقال : (نهيت أن أمشي عريانا) . فَلَم يُرَ عُريانا بعد ذلك ، و هكذا استمرت قريش في بناء الكعبة ، حتى إذا بلغوا موضع الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن يضع الحجر ، فقال بطن من

قريش : (نحن نضعه) . و قال آخرون : (نحن نضعه) . حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف ، ثم قالوا : (اجعلوا بينكم حَكَمًا ،، أولَ رجل يطلُع من الفج) . فطلع النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فقالوا : (أتاكم الأمين) . فوضعه النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في ثوب ، ثم دعا بطونهم ، فأخذوا بنواحيه معه ، فوضعه هو صلى الله عليه و آله و سلم ، فحال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دون مقتلة كادت أن تعصف بهم ، ليزداد النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بذلك رفعة و مكانة بين قومه ، و كان بين إعادة بناء الكعبة و بين نزول الوحي خمس سنين .[9]

زواجه

و تزوج النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خديجة بنت خويلد قبل البعثة ، بعد أن تعلق قلبها بأخلاقه و صفاته التي قل لها نظير في بني جنسه ، فكانت بعد زواجها به المثال الأسمى للزوجةِ الصالحة .[10]

مقدمات البعثة

و كان النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبل البعثة يشاهد بين الفينة و الأخرى ، أمورا من خوارق العادات ، كتسليم الحجر عليه ، و رؤية الأنوار ، و سماع الأصوات الملكوتية ، و الرؤى الصادقة ؛ حتى يهيئه الله بذلك لنزول الوحي عليه ، و حُبِّبَتْ إليه الخلوة ، فكان يخلوا بنفسه في غار حِرَاء ، كما حُبِّبَ إليه الزهد في الدنيا ، و التجردُ لله تعالى عن كل ما سواه .[11]

---

[9] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1961/4][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 11/6][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 193/3 ـ 235/22 ـ 262/24][مصنف عبد الرزاق الصنعاني / المكتب الإسلامي / ط 2 / 1403 هـ ـ 101/5][التمهيد / وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب / 1387 هـ ـ 36/10][الأحاديث المختارة / دار خضر / ط 3 / 1420 هـ ـ 229/8][أخبار مكة للأزرقي / دار الأندلس / بيروت ـ 157/1][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 33/2 ـ 55][دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / دار النفائس / بيروت / ط 2 / 1406 هـ ـ ص 189][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 628/1]

[10] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 47/5 ـ 356/41]

[11] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 7/1][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1782/4][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 44/5][الأحاديث المختارة / دار خضر / ط 3 / 1420 هـ ـ 392/8]

نزول الوحي سنة 609 م

و ما إن بلغ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أربعين سنة هجرية ، حتى جاءه الوحي ، و هو في غار حراء يوم الاثنين ، الرابع و العشرين من رمضان ، الموافق لسنة 609 م . [12]

و جاءه جبريلُ و هو في غار حراء ، فقال له : (اقرأ) . فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما أنا بقارىء) . فأخذه فضمه ثم أرسله ، فقال له : (اقرأ) . فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما أنا بقارىء) . فأخذه فضمه ثم أرسله ، فقال له : (اقرأ) . فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما أنا بقارىء) . فأخذه فضمه ثم أرسله ، فقال له : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الاكْرَمُ} . ثم انصرف عنه ، و كأنما كتب في قلبه كتابا ، و رجع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يرجف فؤاده ، خائفا على نفسه من أن يكون أصابه شيء ، و دخل على خديجة فقال لها : (دثروني ،، دثروني) ، فكانت زوجته خديجة تُهَدِّئ من رَوْعِه ، و تخفف عنه ما كان به ، و تقول له : (و الله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتَصِل الرَّحِمَ ، و تَحْمِل الكَلَّ ، و تَكْسِبُ الْمَعدوم ، و تَقْري الضيف ، و تُعين على نوائب الحق) .

و لما كان ابنُ عم خديجة ورقةُ بن نوفل ممن تنصر و قرأ التوراة و الإنجيل ، و سمعها من أهل الكتاب ، قصَّت عليه السيدة خديجة ما أخبرها به النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقال لها : (لقد جاءه جبريل الذي كان يأتي موسى ، و إنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت) .

و لما التقى ورقةُ بن نوفل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، أمره بالثبات و الصبر على ما ينتظره من أعباء الدعوة إلى الله ، و قال له : (ليتني أكون حيا إذ

[12] [البقرة : 185][القدر : 3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 45/5][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 29/9][المعجم الأوسط / دار الحرمين / تحقيق طارق بن عوض الله و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ـ 111/4]

يخرجك قومك) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أَوَ مُخْرِجِيَّ هم) ؟ فقال : (نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، و إن يدركني يومك ، أنصرك نصرا مؤزرا) . و انصرف عنه النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و قد زاده قولُ ورقة قوة و ثباتًا ، و خفف عنه بعض ما كان فيه من الهم .

ثم انقطع الوحي عن النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أياما منذ تلك الحادثة ، حتى إذا كان النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في يوم من الأيام يمشي ، إذا به يسمع صوتًا من السماء ، فيرفع بصره قِبلَ السماء ، فإذا هو جبريل قاعد على كرسي ، فيجثو النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ منه فَرَقًا ، حتى صار إلى الأرض ، فجاء السيدة خديجة فقال لها : (زملوني ،، زملوني) . فزملته ، فأنزل الله عَزَّ وَ جَلَّ : {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَ لَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} .

ثم تتابع الوحي على النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و لم ينقطع منذ ذلك الحين .[13]

السابقون الأولون في الإسلام

و كان أولُ من أسلم مع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خديجةَ و عليا عليهما سلام الله ، و كانا أول من صلى مع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، ثم تتابع إسلامُ الصحابةِ الأولين من بعدهما : أبي بكر ، و بلال بن رباح ، و سعدِ بن أبي وقاص ، و عمار بن ياسر ، و أمِّه سميةَ ، و أبيه ياسر ، و صُهَيبٍ ، و الْمِقْداد ، و خَبَّاب بن الأرَتِّ رضي الله عنهم .[14]

[13] [المدثر : 1 - 7][العلق : 1 - 3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 7/1 ـ 162/6][صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 12/2]

[14] [فضائل الصحابة للإمام أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1403 هـ ـ 682/2][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 121/3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 5/5 ـ 22][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 83/16][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 105/1][معجم الصحابة لأبي القاسم البغوي / مكتبة دار البيان / ط 1/ 1421 هـ ـ 265/1][حلية الأولياء / دار السعادة / 1394 هـ ـ 144/1][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 368/43 ـ 371][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 303/24][الاستيعاب في معرفة الأصحاب / دار الجيل / ط 1 / 1412 هـ ـ 1589/4][الإصابة في تمييز الصحابة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1415 هـ ـ 500/6]

السِّرِّيَّة

و مكث رسول الله صلى الله عليه و آله بمكة بعد ما جاءه الوحي عن الله تعالى ، ثلاث سنين ، يدعو إلى الله سرا ، مختفيا خائفا من أن يظهر دعوته .[15]

إعلان الدعوة

و أعلن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الدعوة إلى الله لعشيرته الأقربين خاصةً ، بعد أن أنزل الله عليه قوله : {وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقْرَبِينَ} . حيث جمع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بني عبد المطلب ، فصنع لهم مُدًّا من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، و بقي الطعام كما هو ، كأنه لم يُمَسّ ، ثم دعا بِغَمْرٍ ، فشربوا حتى رَوَوْا ، و بقي الشراب كأنه لم يمس ، ثم قال لهم صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا بني عبد المطلب ، إني بعثت إليكم بخاصة ، و إلى الناس بعامة ، و قد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم ، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي و صاحبي و وارثي و وزيري) ؟ فسكتوا ، و لم يقم منهم إليه أحد ، فقام إليه علي ، و كان أصغر القوم سِنًّا ، فقال له صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اجلس) . ثم أعاد عليهم ذلك مرة أخرى ، فلم يقم إليه فيها أحد منهم ، إلا عليا ، فقال له : (اجلس) . ثم أعاد عليهم ذلك مرة أخرى ، فلم يقم إليه فيها أحد منهم ، إلا عليا ، فضرب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بيده على يده ، و قال له : (أنت أخي و صاحبي و وريثي و وزيري) .

ثم إن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أعلن دعوته لجميع الناس ، بعد أن أنزل الله عليه قوله تعالى : {فَاصْدَعْ بِمَا تُومَرُ} . فصعد النبي صلى الله عليه و آله و سلم على الصفا ، و أخذ ينادي بقوله : (يا صباحاه ، يا صباحاه) . فاجتمعت إليه

[15] [تاريخ خليفة بن خياط / دار القلم / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1397 هـ ـ [ص 53][كمال الدين وتمام النعمة / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة / 1405 هـ ـ 1/369 ـ 370]

قريش فقالوا له : (ما لك) ؟ فقال : (أرأيتَكُم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغِيرَ عليكم ، أكنتم مُصَدِّقِيَّ) ؟ فقالوا له : (نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا) . فقال لهم : (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) . فقال له عمه أبو لهب : (تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا) ؟ فأنزل الله : {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)} . فكان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ منذ ذلك الحين يدعو قومه إلى توحيد الله ، و يجاهدهم بالقرآن العظيم كما أمره الله بذلك في قوله : {وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} . [16]

دعوة القبائل

و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يختار المناسبات و المواسم و الأماكن التي كانت القبائل تجتمع فيها ، فيدعوهم إلى الإسلام ، و يعرض عليهم دعوته و نصرته و حماية دعوته ، فمن المناسبات : مَوْسِمُ الحج ، و من الأماكن : ذو الْمَجَاز و عُكَاظُ و مَجَنَّةُ و غيرُها ، و كان أكابر مجرمي قريش لا يكادون يفارقونه فيها ، كأبي جهل عمرو بن هشام الذي كان يَحْثِي عليه التراب و يقول : (يا أيها الناس ، لا يَغُرَّنَّكُم هذا عن دينكم ، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم ، و تتركوا اللات و العُزَّى) . و كان عمه أبو لهب يمشي خلفه في تلك المواسم ، و يرميه بالحجارة ، و ربما أدمى عُرْقُوبَيْه و كَعْبَيه ، يتهمه في جميعها بالانحراف و الضلال ، و يحذر الناس من اتِّبَاعِه و ترك دين الآباء ، حتى إن الرجل لَيَرْحَل مِنْ مِصْرَ أو مِنَ اليمن إلى ذي رَحِمِه ، فيأتيه قومه فيقولون له : (احذر غلام قريش لا يفتنك) . [17]

---

[16] [الفرقان : 52][الشعراء : 214][الحجر : 94][المسد: 1 - 5][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 6/4 ـ 111/6]][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 141/14][خصائص علي / مكتبة المعلا / ط 1 / 1406 هـ ـ ص83 ـ 84][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 47/42 ـ 48 ـ 49 ـ 50][شرح معاني الآثار / عالم الكتب / ط 1 / 1414 هـ ـ 386/4][الكشف والبيان / دار إحياء التراث العربي / ط 1 / 1422 هـ ـ 182/7][مسند إسحاق بن راهويه / مكتبة الإيمان / ط 1 / 1412 هـ ـ 251/2][فضائل الصحابة للإمام أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1403 هـ ـ 650/2 ـ 329/4][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 192/1][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 179/5 ـ 180 ـ 181]

[17] [المعجم الأوسط / دار الحرمين ـ 294/6][دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / دار النفائس / بيروت / ط 2 / 1406 هـ ـ ص 282][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 517/14 ـ 474/15][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 407/25 ـ 148/27]

التحدي

و بعد أن أعلن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دعوته ، و أظهر حجته ، اعترف فصحاءُ العرب و شعراؤُهم برفعة بلاغة القرآن و لغته الفصيحة ، و أنه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليس بكاهن و لا ساحر ، و لا مجنون و لا شاعر ، و قد شهد له بذلك فصحاء العرب ، من ذلك : الوليد بن الْمُغِيرَة و عُتْبَةُ بن رَبِيعَة ، فأما الوليد بن المغيرة ، فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقرأ عليه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : (يا عم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا) . فقال : (لِمَ) ؟ قال : (ليعطوكه ، فإنك أتيت مُحَمَّدا ؛ لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَه) . فقال : (قد علمت قريش أني من أكثرها مالا) . فقال أبو جهل : (فقل فيه قولا يَبْلُغُ قومَك أنك منكر له ، أو أنك كاره له) . قال : (و ماذا أقول ، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، و لا أعلم بِرَجَزٍ و لا بقصيدة مني ،، و لا بأشعار الجن ، و الله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، و و الله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، و إن عليه لَطَلَاوة ، و إنه لَمُثْمِرٌ أعلاه ، مُغْدِقٌ أسفلُه ، و إنه ليعلو و ما يُعلى ، و إنه لَيَحْطِمُ ما تحته) . فقال أبو جهل : (لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه) . فقال الوليد : (فدعني حتى أفكر) . فلما فكر قال : (هذا سحر يؤثر ، يأثُرُه من غيره) . فنزل قوله تعالى : {ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَ بَنِينَ شُهُودًا (13) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنَ ازِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُوثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} . [18]

[18] [المدثر : 18 - 26][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 550/2]

لقد كان التقليد تارة ، و اتباع الهوى أخرى ، يعمي قريشا عن الاستجابة للبراهين الساطعة ، فقد لقي النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذات مرة أبا جهل مع المغيرة بن شعبة في بعض أَزِقَّةِ مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأبي جهل : (يا أبا الحكم ، هلم إلى الله عز و جل و إلى رسوله ،، أدعوك إلى الله) . فقال أبو جهل : (يا مُحَمَّد ، هل أنت مُنْتَهٍ عن سَبِّ آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ، فنحن نشهد أن قد بلغت ، فو الله لو أني أعلم أن ما تقول حقا ما اتبعتك) . فانصرف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و أقبل أبو جهل على المغيرة فقال : (فو الله إني لأعلم أن ما يقول حق ، و لكنَّ بني قصي قالوا : (فينا الْحِجَابَة) . فقلنا : (نعم) . فقالوا : (فينا النَّدْوة) . فقلنا : (نعم) . ثم قالوا : (فينا اللِّواء) . فقلنا : (نعم) . قالوا : (فينا السِّقَاية) . فقلنا : (نعم) . ثم أطعموا و أطعمنا ، حتى إذا تحاكَّتِ الركب ، قالوا : (منا نبي) .

و لما أصروا على العناد و الاستكبار و بَطَرِ الحق ، لجأوا إلى الإعجاز ، فتَحَدَّوْهُ أن يأتيهم بمعجزة ، و طلبوا منه أن يَشُقَّ لهم القمرَ جزأين ، فدعا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ربه ، حتى إذا أراهم الله تعالى انشقاق القمر ، قالوا : (سحرنا ابنُ أبي كَبْشَة ، انظروا السُّفَّارَ ، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، و إن كانوا لم يروا ما رأيتم فهو سِحْرٌ سحركم به) . فلما سئل السفار القادمون من كل وجه ، قالوا : (رأينا) . فازدادوا عتوا و استكبارا ، و قالوا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم : (ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، و أن يُنَحِّيَ الجبال عنا فَنَزْدَرِعَ ، فإن فعلت ذلك ، آمنا بك ، و اتبعناك ، و عرفنا أن ما قلت كما قلت) . فقال : (و تفعلون) ؟ قالوا : (نعم) . فدعا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ربه مرة أخرى ، فأتاه جبريل ، فقال : (إن ربك عز و جل يقرأ عليك السلام ، و يقول : (إن شئت ، آتيناهم ما سألوا ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابا ، لا أعذبه أحدا من العالمين ، و أُهْلِكوا كما أَهْلَكْتُ من قبلهم ، و إن شئت ، فتحت لهم باب التوبة و الرحمة) ؟ فقال : (بل باب التوبة و الرحمة) . فأنزل الله عز و جل هذه الآية : {وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ

نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الاوَّلُونَ وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} . و أنزل الله قوله : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ} . كأن الله تعالى يخبرهم ، بأن أعظم المعجزات ، هو أن تدرك قيمة الموجودات ، فإذا أدركت قيمة الموجودات ، وجدت أعظم المعجزات في الموجودات ، و عندها سوف تستغني بالأشياء الموجودة عن عن الأشياء المفقودة .[19]

الإِغْرَاء

و حينما عجزت قريش عن مواجهة الحجة بالحجة ، و البيان بالبيان ، و المعجزة بالمعجزة ، و البرهان بالبرهان ، لجأت إلى أسلوب الإغراء ، فأرسلت إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَة أحد سادات قريش فقال له : (يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، و إن كنت تريد به شرفًا ، سوَّدْنَاك علينا حتى لا نَقْطَعَ أمرًا دونك ، و إن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا ،،، و إن كان بك الباءةُ ، فاختر أيَّ نساء قريش شئتَ فَلَنُزَوِجَنَّكَ عَشْراً ،،) . فكان مما كان يقوله لهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أترون هذه الشمس ،، ما أنا بأقدرَ على أن أَدَعَ لكم ذلك ، على أن تَسْتَشْعِلُوا لي منها شُعْلَةً) .[20]

لجوء قريش إلى العنف

و لما فَشِل المشركون في صد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن دعوته ، لجأوا إلى التهديد و التخويف ، ثم إلى العنف و التعذيب و استعمال القوة .

---

[19] [آل عمران : 190][الإسراء : 90 ـ 91 ـ 92 ـ 93 ـ 59][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 206/4][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 2159/4][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 118/20][شرح مشكل الآثار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1415 هـ ـ 177/2 ـ 181][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 7/3 ـ 109/22][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 397/5][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 207/2 ـ 266 ـ 267]

[20] [مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 176/12][المعجم الصغير / الروض الداني / المكتب الإسلامي / دار عمار / ط 1 / 1405 هـ ـ 44/2]

فعلى الرغم من حماية أبي طالب لابن أخيه من القتل ، إلا أنه كان يتعرض بين الحين و الآخر إلى العنف الجسدي و اللفظي من سفهاء قريش ، كعمه أبي لهب عبدِ العُزَّى بنِ عبد المطلب ، و أبي جهل عمرو بن هشام ، و عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ ، و عتبةَ بن ربيعةَ ، و شيبةَ بن ربيعةَ ، و الوليدِ بن عتبةَ ، و أُمَيَّةَ بنِ خلف ، و عُمَارَةَ بنِ الوليد .

فقد قام النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذات مرة يصلي عند الكعبة ، و جَمْعُ قريش في مجالسهم ، و قد نُحِرَت جَزُور بالأمس ، إذ قال قائل منهم : (ألا تنظرون إلى هذا المرائي ؟ أيكم يقوم إلى جَزُور آل فلان ، فَيَعْمِدُ إلى فَرْثِها و دمها و سَلاها ، فيجيء به ، ثم يمهله ، حتى إذا سجد ، وضعه بين كتفيه) . فانبعث أشقاهم عُقْبَة بن أبي مُعَيط ، فجاء به ، فنظر حتى إذا سجد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، وضعه على ظهره بين كتفيه ، فثبت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا ، و لم يرفع رأسه ، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك ، فانطلق منطلق إلى فاطمة ، و هي جويرية ، فأقبلت تسعى ، و ثبت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا ، حتى ألقته عنه .

و كان الله تعالى يعصمه بين الوقت و الآخر من أذاهم ، فكان حِينًا يحجبه عن أنظارهم ، كما وقع له مع امرأة أبي لهب أم جَمِيل بنت حرب ، و كان حينا آخر يعصمه عنهم بالزبَانية ملائكةِ العذاب ، فكانت تحول بينه و بينهم ، كما وقع لأبي جهل عمرو بن هشام حينما أراد أن يطأ رأسه بقدمه و هو يصلي ، فما فَجِئَهُم منه إلا و هو يَنْكُصُ على عقبيه ، و يتقي بيديه ، فقيل له : (ما لك) ؟ فقال : (إن بيني و بينه لخندقا من نار ، و هَوْلًا و أجنحة) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عُضْوًا عضُوًا) . [21]

[21] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 1 /110 ـ 104/4 ـ 10/5 ـ 174/6][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1418/3 ـ 2154/4][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 393/2 ـ 530 ـ 573 ـ 70/3][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 68/1 ـ 456/6][دلائل النبوة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 196/2][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 148/27 ـ 342/31][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 314/8]

و كان الله تعالى تارة يؤيد نبيه بروح منه ، و تارة يسليه ببعض الخوارق التي تثبت فواده ، فقد جاءه جبريل ذات يوم ، و هو جالس حزين قد خُضِّبَ بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة فقال : (مالك) ؟ فقال : (فَعَل بي هؤلاء و فَعَلُوا) . فقال : (أتحب أن أريك آية) ؟ قال : (نعم ، أرني) . فنظر إلى شجرة من وراء الوادي ، فقال : (ادع تلك الشجرة) . فدعاها ، فجاءت تمشي ، حتى قامت بين يديه ، ثم قال له : (قل لها فلترجع) . فقال لها ، فرجعت حتى عادت إلى مكانها ، فقال رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (حسبي) . [22]

و لم يكن صحابة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أحسنَ حالا منه في التعذيب و الأذى ، غير أن بعضهم كان أخف عذابا من بعض في ذلك ، على حسب الحسب و النسب في قريش .

فكان أشدُّهم عذابا المستضعفين الفقراءَ ذوي الألقابِ المغمورة ، و الأنساب غير المشهورة ، و لا سيما العبيد منهم كبلال و خبَّاب بن الأرَتِّ ، حيث ألبسهم المشركون أدراع الحديد ، و صهروهم في الشمس ، و كانوا يجيعونهم و يُعَطِّشونهم ، حتى ما يقدر أحدهم أن يستوي جالسا ، من شدة الضر الذي نزل به ، و ما منهم أحد إلا و قد واتاهم على ما أرادوا ، إلا أمَّ عمارٍ سُمَيَّةَ بنت خياط ، أولَ شهيدة في الإسلام ، و بلال بن رباح ، و خبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ ، فقد هانت عليهم أنفسهم في الله ، و هانوا على قومهم ، فأما سمية فقد طعنها أبو جهل فقتلها ، و أما خَبَّابٌ ، فكانوا يُضْجعونه على الرَّضْف ، و هي الحجارة الحامية ، فما يبردها إلا وَدَكُ ظهره ، و أما بلال ، فأعطوه الوِلْدان ، و أخذوا يطوفون به شِعَاب مكة ، و هو يقول : (أحد ، أحد) ، حتى إذا انتهى الولدان من جره ، دفنوه في الحجارة .

و لما بلغ عمرَ بنَ الخطاب إسلامُ أختِه فاطمةَ و زوجِها سعيد بن عمرو بن نفيل ، ربطهما ؛ يرجو بذلك ارتدادهما عن الإسلام ، غير أنه لم يفلح في ذلك ، فكان يمارس عليهما ألوان التضييق و الأذى ؛ عساهما يرجعان عن دينهما .

[22] [سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ - 157/5]

و كان الصحابة يَشْكُونَ إلى النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ما يلقونه من أذى قريش بين الوقت و الآخر ، فكان صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يأمرهم بالصبر و الثبات ، و يذكرهم بصبر من كان قبلهم ، و يبشرهم بالنصر و التمكين ، فقد جاءه خَبَّاب بن الْأَرَتّ يوما ، و هو متوسد بُرْدَةً في ظل الكعبة ، فقال له : (يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا) ؟ فقعد و هو مُحْمَرٌّ وجهه ، فقال : (لقد كان الرجل فيمن قبلكم ، يُحْفَرُ له في الأرض ، فيُجْعَلُ فيها ، فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيشق نصفين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، و يمشط بأمشاط الحديد ، ما دون عظامه من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، و الله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه ، و لكنكم تستعجلون) .

و جاءه عبد الرحمن بن عوف مَرَّةً في جماعة من المسلمين المستضعفين ، فقالوا : (يا رسول الله ، إنا كنا في عِزٍّ و نحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة) . فقال لهم صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا) . [23]

و كانت الدعوة بعد العنف و التعذيب ، تتم في غاية السرية ، و كان اجتماع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالصحابة يتم في الخفاء . [24]

الهجرة إلى الحبشة

و لما اشتد البلاء بالمسلمين ، و أوذوا و فتنوا ، و ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ ، أشار النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على المضطهدين بالهجرة إلى الحبشة ، حيث يستطيعون ممارسة عباداتهم بكل حرية ، و قال لهم صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ

[23] [المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 320/3 ـ 65/4][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 363/8][حلية الأولياء / دار الكتاب العربي / ط 4 / 1405 هـ ـ 38/1 ـ 140 ـ 144][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 60/3 ـ 201/4 ـ 45/5 ـ 47 ـ 20/9][المعجم الأوسط / دار الحرمين ـ 141/2][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 13/7 ـ 337][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 382/6 ـ 552/34][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 320/1][سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 191][أمالي المحاملي رواية ابن يحيى البيع / المكتبة الإسلامية / دار ابن القيم / عمان / الأردن / الدمام / ط 1 / 1412 هـ ـ ص 74][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 2/6]

[24] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 184/4 ـ 153/9]

وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إن بأرض الحبشة مَلِكاً ، لا يُظْلَمَ أحد عنده ، فالْحَقوا ببلاده ، حتى يجعل الله لكم فرجاً و مخرجاً مما أنتم فيه) .[25]

فرحل إلى الحبشة مجموعة من الصحابة ، فيهم عبد الله بن مسعود ، و جعفر بن أبي طالب ، و عبد الله بن عرفطة ، و عثمان بن مظعون ، و أبو موسى الأشعري ، و قد روي أنهم هاجروا إلى أرض الحبشة في رجَبِ العامِ الخامس بعد البعثة ، سنة 614 م .[26]

و خرج أبو بكر مهاجرا قِبَلَ الحبشة ، حتى إذا بلغ بَرْكَ الْغِمَاد لقيه ابن الدَّغِنَةِ ، و هو سيد قبيلة القَارَةِ ، فقال : (أين تريد يا أبا بكر) ؟ فقال أبو بكر : (أخرَجَني قومي ، فأنا أريد أن أسيح في الأرض ، فأعبد ربي) . فقال ابن الدغنة : (إن مِثْلَكَ يا أبا بكر لا يَخْرُج و لا يُخْرَج ، إنك تَكْسِب المعدوم ، و تَصِلُ الرَّحِمَ ، و تَحْمِل الكَلَّ ، و تَقْري الضيف ، و تُعين على نوائب الحق ، فأنا لك جارٌ ، ارجع و اعبد ربك ببلدك) . فرجع و ارتحل معه ابن الدَّغِنة ، فطاف ابن الدغنة عشيةً في أشراف قريش ، فقال لهم : (إن أبا بكر لا يَخْرج مثله و لا يُخْرج ، أتُخرِجون رجلا يَكْسِب المعدوم ، و يصل الرحم ، و يحمل الكَلَّ ، و يَقْرِي الضيف ، و يعين على نوائب الحق) . فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، و قالوا لابن الدغنة : (مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فَلْيُصَلِّ فيها و ليقرأ ما شاء ، و لا يؤذينا بذلك ، و لا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا و أبناءنا) . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، و لا يستعلن بصلاته ، و لا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر ، فابتنى مسجدا بفناء داره ، و كان يصلي فيه ، و يقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين و أبناؤهم ، وهم يَعجبون منه ، و ينظرون إليه ، و كان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، و أفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : (إنا

[25] [سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ [ص 213]

[26] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 408/7][الطبقات الكبرى / دار صادر / ط 1 / 1968 م ـ 204/1]

كنا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة و القراءة فيه ، و إنا قد خشينا أن يفتن نساءنا و أبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، و إن أبى إلا أن يعلن بذلك ، فسله أن يَرُدَّ إليك ذِمَّتَك ، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَك ، و لسنا مُقِرِّين لأبي بكر الاستعلان) . فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : (قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، و إما أن تُرْجِعَ إلي ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرْتُ في رجل عقدت له) . فقال أبو بكر : (فإني أَرُدُّ إليك جِوَارك ، و أرضى بجوار الله عز و جل) . فسارع ابن الدغنة إلى قريش ، فقام فيهم و نادى : (يا معشر قريش ، إن أبا بكر قد رد علي جواري ، فشأنكم بصاحبكم) .

و بينما كانت أمُّ عبد الله الشِّفاءُ ليلى بنتُ أبي حَثْمَة تهيأ هي و زوجها للارتحال إلى أرض الحبشة ، و قد ذهب زوجها عامر بن ربيعة في بعض حاجاتهم ، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليها ، و هو على شِرْكِه ، و كانوا يَلقَون منه البلاء و الشدة عليهم ، فقال لها : (إنه الإنطلاق يا أم عبد الله) ؟ فقالت : (نعم ، و الله لنَخْرُجَنَّ في أرض الله ، آذيتمونا ، و قهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا) . فقال : (صحبكم الله) . و رأت له رِقَّةً لم تكن تراها ، ثم انصرف و قد أحزنه خروجهم ، فجاء زوجها عامر بن ربيعة من حاجته تلك ، فقالت له : (يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفا و رِقَّتَه و حزنه علينا) ! فقال : (أفطمعت في إسلامه) ؟ قالت : (نعم) . قال : (لا يسلم الذي رأيتِ حتى يسلم حمار الخطاب) . حتى إذا هاجر الناس إلى الحبشة ، أسلم عمر بن الخطاب على إثرها ببرهة من الزمن ، و لما أسلم عمر ، لم تعلم قريش بإسلامه ، ثم انتشر خبر إسلامه ، فلزم عمر داره خوفا على نفسه من قريش ، فجاءه العاص بن وائل أبو عمرو السَّهْمِي ، فقال له : (ما لك) ؟ قال : (زعم قومك أنهم سيقتلوني إن أسلمت) . فقال : (لا سبيل إليك) . فخرج

العاص ، فلقي الناس قد سال بهم الوادي ، فقال : (أين تريدون) ؟ فقالوا : (نريد هذا ابن الخطاب الذي صبا) . فقال : (لا سبيل إليه) . فَكَرَّ الناس .[27]

و كان الصحابة في الحبشة عند النجاشي النصراني بخير دار ، يمارسون عباداتهم بكل حرية ، لا يؤذيهم أحد ، و لا يسمعون ما يكرهون ، كما كان يتوقعه النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .

و لما رأت قريش أنْ قد أصاب الصحابةُ في الحبشة دارًا و أمنًا ، لم يَهْدَأْ لهم بال ، و لم يَطِبْ لهم حال ، و حسدوهم على ما كانوا عليه ، فبعثوا عَمْرو بن العاص في صحبة عبد الله بن أبي ربيعة ، و عُمَارة بن الوليد ، و جهزوهم بهدايا كثيرة للمَلِكِ و بطارقته ، و لم يتركوا من سُبَّةٍ إلا و قد أعدوها و زوقوها للنجاشي ، حتى يطرد ضيوفه الهاربين بدينهم .

و لقد نجح عمرو بن العاص و صاحبه في شراء ذِمَمِ بطارقة النجاشي بتلك الهدايا ، و اتفقوا معهم على الوقوف ضد العصبة المومنة عند الملك ، و قالوا لهم : (إذا كلمْنا الملكَ فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، و لا يكلِّمَهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا ، و أعلمُ بما عابوا عليهم) . فقالوا لهم : (نعم) . فلما دخلوا على النجاشي سجدوا له ، و قربوا هداياهم إلى النجاشي ، فقبِلها منهم ، ثم ابتدروه عن يمينه و عن شماله ، ثم كلموه فقالوا له : (أيها الملك ، إنه قد هاجر إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارَقوا دين قومهم ، و لم يدخلوا في دينك ، و جاءوا بدين مُبْتَدَع ، لا نعرفه نحن و لا أنت ، و قد بعثَنا إليك فيهم أشرافُ قومهم ، من آبائهم و أعمامهم و عشائرهم ؛ لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، و أعلم بما عابوا عليهم ، و عاتبوهم فيه) . فقالت بطارقته : (صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، و أعلم بما عابوا عليهم ، و إنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك ، فأسلمهم إليهم ، فَلْيَرُدُّوهُم إلى بلادهم و قومهم) . فغضب النجاشي عند ذلك و قال : (لا و الله ، لا أسلم قوما لجئوا إلى بلادي ، و

[27] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 98/3 ـ 58 ـ 48/5][الطبقات الكبرى / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1410 هـ ـ 159/1 ـ 161][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 89/3 ـ 90][سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 181 ـ 235] [المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 29/25][السنة لأبي بكر بن الخلال / دار الراية / ط 1/ 1410 هـ ـ 311/2]

اختاروا جواري على جوار غيري ، حتى أدعوَهم فأسألَهم ماذا يقول هؤلاء في أمرهم ، فإن كانوا كما تقولون ، أسلمتهم إليهم ، و رددتهم إلى قومهم ، و إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم ، و لم أُخَلِّ ما بينهم و بينهم ، و أحسنت جوارهم ما جاوروني) .
و لم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عمرو بن العاص و من كان معه مِنْ أن يسمع النجاشي كلام المسلمين ، فأرسل النجاشي إلى المسلمين فدعاهم ، فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : (ما تقولون للرجل إذا جئتموه) ؟ قالوا : (نقول و الله ما علمنا و ما أمرنا به نبينا صلى الله عليه و آله و سلم ، كائن في ذلك ما هو كائن) . فلما جاءوه ، دخلوا عليه ، و قد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، و كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب ، فسأله النجاشي فقال له : (ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، و لم تدخلوا في يهودية و لا نصرانية ، و لا في دينِ أحدٍ من هذه الأمم) ؟ فقال له جعفر : (أيها الملك ، كنا قوما على الشرك ، نعبد الأصنام ، و نأكل الميتة ، و نستحل المحارم بعضُنا من بعض ، في سفك الدماء و غيرها ، لا نحل شيئا و لا نحرمه ، و نأتي الفواحش ، و نقطع الأرحام ، و نسيء الجوار ، و يأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده و نعبده ، و نخلع ما كنا نعبد نحن و آباؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان ، و أمرنا بصدق الحديث ، و أداء الأمانة ، و صلة الرحم ، و حُسْنِ الجِوَار ، و الكف عن المحارم و الدماء ، و نهانا عن الفواحش ، و قول الزور ، و أكل مال اليتيم ، و قذف المحصنة ، و أمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، و أمرنا بالصلاة و الزكاة و الصيام ، فصدقناه ، و آمنا به ، و اتبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، و حرمنا ما حرم علينا ، و أحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، و فتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، و أن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا و ظلمونا و شقُّوا علينا ، و حالوا بيننا و بين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، و اخترناك على من سواك ، و رغبنا في جوارك ، و

رجونا أيها الملك أن لا نظلم عندك) . فقال له النجاشي : (هل معك مما جاء به عن الله من شيء) ؟ فقال له جعفر : (نعم) . فقال له النجاشي : (اقرأه علي) . فقرأ عليه صدرا من سورة مريم ، فبكى النجاشي حتى أَخْضَلَ لحيته ، و بكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشي : (إن هذا و الله ، و الذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها عيسى ، مرحبا بكم ، و بمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، فإنه الذي نجد في الإنجيل ، و إنه الرسول الذي بشر به عيسى ابنُ مريم ، انزلوا حيث شئتم ، و الله لولا ما أنا فيه من الْمُلك ، لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، و أوضئه) . ثم قال النجاشي لعمرو بن العاص و من كان معه : (انطلقوا ، فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا) . فخرجوا من عنده ، فقال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبي ربيعة : (و الله لآتينه غدا ، و لأنبئَنَّه بعيبهم عنده ، و لأخبرنَّه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عَبْدٌ ، ثم أَستأصِلُ به خضراءهم) . فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : (لا تفعل ، فإن لهم أرحاما ، و إن كانوا قد خالفونا) . فقال عمرو : (و الله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابنُ مريم عبد) . فلما كان الغد ، دخل عليه ، فقال له : (أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فأرسِلْ إليهم فاسألهم ، عما يقولون فيه) . فأرسل إليهم يسألهم عنه ، فاجتمع القوم ، فقال بعضهم لبعض : (ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه) ؟ فقالوا : (نقول و الله فيه ما قال الله ، و ما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن) . فدخلوا عليه و عنده بطارقته فقال لهم : (ما تقولون في عيسى ابن مريم) ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : (نقول فيه الذي جاء به نبينا ، هو عبد الله و رسوله ، و روحه ، و كلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول) . فدلى النجاشي يده إلى الأرض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : (ما عدا عيسى ابنُ مريمَ ما قلتَ هذا العودَ) . فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : (و إن نخرتم ، و الله ، اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي ، من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، فما أُحِبُّ أن لي جبلا من ذهب ، و أني آذيت

رجلا منكم) . ثم قال لأساقفته : (ردوا عليهم هداياهم ، فلا حاجة لنا بها ، و اخرجوا من بلادي ، فوالله ما أخذ الله مني الرِّشوة حين رد علي ملكي ، فآخذ الرشوة فيه ، و ما أطاع الناسَ في ، فأطيعهم فيه) . فخرجوا من عنده مقبوحين مردودا عليهم ما جاؤا به ، و أقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار ، و صار الصحابة منذ ذلك الحين عنده في أمن و منعة ، و مكثوا عنده تقريبا خمس عشرة سنة ، حتى كانت الهجرة إلى المدينة ، ففازوا بالهجرتين جميعا ، كما أخبرهم النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .[28]

القتل أو المقاطعة و الحصار

و لما باءت جميع محاولات قريش بالفشل في استرجاع المسلمين من الحبشة ، و رأت إقبال الناس على الإسلام ، عزمت قريش على قتل رسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .

فتحالفت قريش و كنانة على مقاطعة و محاصرة بني عبد المطلب ؛ حتى يسلموا لهم رسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليقتلوه .[29]

فأجمع بنو عبد المطلب أمرهم على أن يُدخلوا رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم شِعْبهم المسمى بالْمُحَصَّب ، بين جبال مكة و يَحموه فيه .

و قد روي أن الحصار دام ثلاث سنين إلى أواخر السنة العاشرة ، عانى فيه النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و جميعُ من كان معه الْجَهْد و الجوع .[30]

---

[28] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 263/3 ـ 264 ـ 265 ـ 266 ـ 267 ـ 268][دلائل النبوة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 301/2]

[29] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 148/2][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 952/2]

[30] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 245/19]

وفاةُ أبي طالب

و بعد أن أنهك الحصار المسلمين ، فقدَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عمه أبا طالب الذي كان يحوطه ، و يَغْضَب له ، و ينصره ، و الذي دون التاريخ قوله في أحلك أوقات تكذيب قريش للنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و الله ما كذبنا ابن أخي) .

و قد روي بأنه توفي في آخر السنة العاشرة من البعثة ، سنة 619 م .

و بعد وفاة عمه أبي طالب اشتد أذى قريش على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، إلى حَدِّ الإقدام على قتله ، فقد كان جماعة من أعداء الدعوة جلوسا في ظل الكعبة و رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يصلي عند المقام ، فقالوا : (ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سَفَّه أحلامنا ، و شتم آباءنا ، و عاب ديننا ، و فرق جماعتنا ، و سب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم) . فوثبوا إليه وَثْبَةَ رجل واحد ، و أحاطوا به ، و أخذ عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط بمجمع ردائه ، ثم جذبه ، فلوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، حتى غشي عليه ، و سقط لركبتيه صلى الله عليه و آله و سلم ، و تصايح الناس ، فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بِضَبْعَيْ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من ورائه ، و هو يقول : (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) . فقاموا عنه ، و انصرَفوا ، إلا أن التآمر على قتل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صار حديثَ الساعة عند مجرمي قريش ، حيث إن السيدة فاطمة مرت ذات مرة بالملأ من قريش في الحجر ، فسمعتهم يتعاقدون باللات و العزى و مناةِ الثالثة الأخرى ، و نائلة و إساف : أنهم إذا رأوا مُحَمَّدا ، أن يقوموا إليه قيام رجل واحد ، فلم يفارقوه حتى يقتلوه ، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي حتى دخلت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فقالت :

(هؤلاء الملأ من قومك قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك قاموا إليك ، فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا عرف نصيبه من دمك) . [31]

وفاة خديجة سنة 619 م

و هكذا يشاء الله تعالى أن يجرد نبيه مرة أخرى عن سند آخر ، و ركن لا يقل أهميةً عن ركنية أبي طالب و أهميته في دعوة التوحيد ؛ ليَسْمُوَ به إلى أعلى مراتب التفريد ، فيبتلِيَه في السنة العاشرة بعد البعثة بفقدان زوجته خديجة ، التي طالما واسته بمالها حينما حرمه الناس ، و وقفت معه في أحلك الأوقات ، لقد غادرت هذه الدنيا حزينة على زوجها ، خائفةً عليه ، تاركة له أربع بنات هن : زينب و رقية و فاطمة و أم كُلْثوم ، و كانت رقية آنذاك في الحبشة ، و قد كان له من خديجة القاسمُ ثم عبدُ الله ، غير أنهما توفيا و هما صغيران . [32]

السفر إلى الطائف

و ما إن وُورِيَ أبو طالب الترابَ ، حتى بدأت المؤامرات تُحَاكُ من جديد ضدَّ النبيِّ صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في الكيفية التي يمكن من خلالها التخلصُ منه ، فلم يلبث النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن سار ماشيا إلى الطائف خُفْيَةً ، طلبا للحماية و النصرة من ثقيف ، غير أنهم رفضوا دعوته ، و آذَوه أشد الإيذاء ، لينطلق بعدها إلى مكة مكروبا مهموما ، لا أبا طالبٍ يحميه ، و لا خديجة في بيتها تؤويه ، فلم يستفق إلا و هو بمكان يسمى : قرن الثعالب ، حيث تجلى له فيه مَلَكُ الجبال ، يستأذنه في إهلاكهم ، فأبى النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذلك لهم ،

---

[31] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 46/5][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 362/6 ـ 176/12][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 430/14 ـ 525 ـ 529][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 274/2][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 345/66]

[32] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 9/8][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1889/4][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 356/41]

رحمةً بهم ، و قال له : (بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا) .

و لم يدخل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مكة حتى استوثق لنفسه الحماية و الْجِوار مِن الْمُطْعِم بن عَدِيّ .[33]

الالتقاء بالأنصار

و لم يستسلم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لإعراض المشركين عنه ، و لم يتوقف عن عرضِ نفسه على القبائل ، بعد أن أمره الله بذلك ، فكان ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ، بحثا عن مُتَنَفَّسٍ لدعوته ، حيث يستطيع ممارسة الدعوة إلى الله بكل حرية ، بعد أن منعته قريش من ذلك ، حتى الْتقى ذات يوم بجماعة من الخزرج ، فقال لهم : (من أنتم) ؟ فقالوا : (نحن الخزرج) . فقال : (أَمِنْ موالي اليهود) ؟ فقالوا : (نعم) . فقال : (أفلا تجلسون حتى أكلمكم) ؟ فقالوا : (بلى) . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز و جل ، و عرض عليهم الإسلام ، و تلا عليهم القرآن ، و كان مما صنع الله تعالى بهم للإسلام ، أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، و كانوا أهل كتاب و علم ، و كان الأوس و الخزرج أهلَ شرك و أوثان ، و كانوا إذا كان بينهم شيء ، قال لهم اليهود : (إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد و إرم) . فلما كلم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أولئك النفر ، و دعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : (يا قوم ، تعلمون و الله ، إنه لَلنَّبِيُّ الذي توعدكم به اليهود ، فلا تسبقنكم إليه) . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، و صدقوه ، و قبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، و قالوا له : (إنا كنا قد تركنا قومنا ، و لا قومَ بينهم من العداوة و الشر ما بينهم ، و عسى الله أن يجمعهم لك ، فسنَقْدَم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، و نعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن

[33] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 4/91 ـ 115][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 31/289][الدعاء للطبراني / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1413 هـ ـ ص 315]

يَجْمَعْهم الله ، فلا رجل أعز منك) . فما قام النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من بينهم حتى بايعوه ، ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم راجعين إلى بلادهم ، قد آمنوا به و صدقوه .

و كان أولئك النفر الذين أسلموا ينشرون دعوة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في المدينة ، و كان بين الفينة و الأخرى ، من يسافر منهم إلى المدينة ؛ ليتعلم من النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ثم يرجع إلى أهله .

و كان مِنْ بين مَنِ الْتقَى بالنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبل هجرته : أبو ذر الغفاري ، حيث أرسل أخاه أُنَيْسَ بن جُنادة إلى مكة ، حينما بلغه أن رجلا قد خرج بمكة يقول أنه نبي ، و قال له : (انطلق إلى هذا الرجل ، كلمه ، و أْتِني بخبره) . فانطلق فلقيه ، ثم رجع ، فقال له أبو ذر : (ما عندك) ؟ فقال : (و الله لقد رأيت رجلا على دينك ، يأمر بمكارم الأخلاق ، و يأمر بالخير ، و ينهى عن الشر) . و كان أبو ذر يتعبد الله قبل ذلك ، فقال له أبو ذر : (فما يقول الناس) ؟ فقال : (يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ،، و لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، و لقد وَضَعْتُ قوله على أقراء الشعر ، فما يلتئم على لسان أحد بعدي ، أنه شِعْرٌ ، و الله إنه لصادق ، و إنهم لكاذبون) . فقال له أبو ذر : (ما شفيتني فيما أردتُ ، فاكفني حتى أذهب فأنظر) . فقال له : (كن على حذر من أهل مكة ، فإنهم قد شَنِفوا له و تَجَهَّموا) . فأخذ جِرابا و عصا فأتى مكة ، فجعل يلتمس النبيَّ صلى الله عليه و آله و سلم و لا يعرفه ، و كره أن يسأل عنه ، حتى أدركه الليل ، فاضطجع ، فرآه عليٌّ ، فعرف أنه غريب ، فمر به فقال : (كأن الرجل غريب) ؟ فقال : (نعم) . قال : (فانطلق إلى المنزل) . فانطلق معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، فلما أصبح احتمل قِرْبَته و زاده إلى المسجد ، فظل فيه ذلك اليوم ، لا يرى النبي صلى الله عليه و آله و سلم حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمر به علي ، فقال : (أما آن للرجل أن يعلم منزله بعدُ) ؟ فقال : (لا) . فقال له : (انطلق معي) . فذهب به معه ، و لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث ،

فعل مثل ذلك ، فأقامه علي معه ، ثم قال له : (ما أمْرُك ، و ما أقدمك هذه البلدة) ؟ فقال : (إن أعطيتني عهدا و ميثاقا أن تكتم علي و ترشدَني ، أخبرتك) . قال : (فإني أفعل) . فقال : (بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبي ، فأرسلت أخي ليكلمه ، فرجع و لم يشفني من الخبر ، فأردت أن ألقاه) . فقال له : (أما إنك قد رُشِدْتَ ، هذا وجهي إليه فاتبعني ، ادخل حيث أدخل ، فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك ، قمتُ إلى الحائط ، كأني أصلح نعلي ، و امض أنت ، فإن مضيتُ ، فاتبعني حتى تدخل مدخلي) . ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل معه على النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال له : (اعرِضْ علي الإسلام) . فعرضه عليه ، فأسلم مكانه ، فقال له صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، و ارجع إلى قومك ، فأخبرهم حتى يأتيك أمري ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل ، إنه قد وُجِّهَتْ لي أرض ذات نخل ، لا أراها إلا يثرب) . فقال : (والذي بعثك بالحق ، لَأَصْرُخَنَّ بها بين أظهرهم ، فجاء إلى المسجد و قريش فيه ، فقال : (يا معشر قريش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أن مُحَّمدا عبده و رسوله) . فقالوا : (قوموا إلى هذا الصابئ ، فضربوه حتى أضجعوه ، فأتى العباسُ فأكب عليه ، فقال : (ويلكم ، ألستم تعلمون أنه من غِفَار ، و أن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم) . فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد بمثلها ، و ثاروا إليه فضربوه ، فأكب عليه العباس فأنقذه ، ثم عاد إلى قومه ، و أتى أنيسا فقال له : (ما صنعت) ؟ فقال : (صنعت أني قد أسلمت و صدَّقت) . فقال له أنيس : (ما بي رغبة عن دينك ، فإني قد أسلمت و صدقت) . فأتيا أمهما ، فقالت : (ما بي رغبة عن دينكما ، فإني قد أسلمت و صدقت) . فأتوا قومهم غفارا ، فكانوا يدعونهم إلى الإسلام ، فأسلم نصفهم ، و كان يؤمهم إيماء بن رَحَضَة الغفاري و كان سيدهم ، و قال النصف الآخر من غفار : (إذا قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة أسلمنا) . [34]

[34] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 184/4][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1919/4 ـ 1923][دلائل النبوة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 426/2 ـ 434][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 681/2 ـ 669][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 211/1][دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / دار النفائس / بيروت / ط 2 / 1406 هـ ـ ص 298]

بيعة العقبة الأولى سنة 620 م

و في العام الحادي عشر بعد البعثة ، سنة 620 م ، جاء وفد من اثني عشر أنصاريا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فيهم عُبادة بن الصامت و كعب بن مالك و جابر بن عبد الله ، و بايعوا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على ترك الشرك ، و قتل النفس البريئة ، و السرقة ، و الزنى ، و البهتان ، و معصيته في المعروف ، ثم قال لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فمن وَفَّى منكم ، فأجره على الله ، و من أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به في الدنيا ، فهو له كفارة ، و من أصاب من ذلك شيئا ، فستره الله فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، و إن شاء عفا عنه) . [35]

و لما أُنْجِزَتْ بيعةُ العقبة الأولى ، و عاد الأنصار إلى المدينة ، كتبوا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يبعث إليهم من يعلمهم دينهم ، فبعث رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إليهم مُصْعَبَ بن عُمَير و ابن أم مَكتوم ، و أمرهما أن يُقْرِءَا المسلمين القرآن ، و يعلماهم الإسلام ، و يفقهاهم في الدين ، و كانت دعوتهما في المدينة تتم في الخفاء ، و كان سالمُ بْنُ مَعْقِلٍ مولى أبي حذيفة يؤمهم ، و أخذ الإسلام ينتشر شيئا فشيئا بالمدينة ، حتى لم يبق حي من أحياء المدينة ، إلا و فيها رَهْطٌ من المسلمين يُظهرون الإسلام . [36]

بيعة العقبة الثانية سنة 621 م

و في العام الثاني عشر بعد البعثة سنة 621 م ، و بعد أن أخذ الإسلام ينتشر في المدينة ، على يد مجموعة من الشباب ، بعيدا عن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ

[35] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 55/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1333/3 ـ 2120/4][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 22/23 ـ 371 ـ 374/37 ـ 434][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 681/2]

[36] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 140/1 ـ 168/6][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 22/23][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 431/2]

آلِهِ وَ سَلَّمَ ، اشتاق مجموعة من المسلمين في المدينة ، إلى لقاء النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فاغتنموا فرصة الحج ، و خرجوا مع قومهم حجاجا إلى البيت ، و كانوا سبعين رجلا ، و لما كانوا في الطريق ، قال لهم البراء بن معرور ، و كان سيدَهم و كبيرهم : (يا هؤلاء ، إني قد رأيت و الله رأيا ، و إني والله ما أدري توافقوني عليه أم لا) ؟ فقالوا له : (و ما ذاك) ؟ قال : (قد رأيت أن لا أدع هذه الْبَنِيَّةَ ، و أن أصلي إليها) . فقالوا : (و الله ما بلغنا أن نبينَا يصلي إلا إلى الشام ، و ما نريد أن نخالفه) . فقال : (إني أصلي إليها) . فقالوا له : (لكنا لا نفعل) . و عابوا عليه ما صنع ، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلوا إلى الشام ، و صلى إلى الكعبة ، حتى إذا قدموا مكة ، قال البراء لكعب بن مالك : (انطلِقْ بنا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ؛ حتى أسأله عمّا صنعتُ في سفري هذا ، فإنّي و الله لقدْ وقعَ في نفسي منه شيء ؛ لما رأيت من خِلافكم إيَّاي فيه) . فذهبا يسألان عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و كانا لا يعرفانه ، فلقيهما رجل من أهل مكة ، فسألاه عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال : (هل تعرفا العباس بن عبد المطلب عمه) ؟ فقالا : (نعم) . و كان لا يزال يقدَم عليهم تاجرا ، قال : (فإذا دخلتما المسجد ، فهو الرجل الجالس مع العباس) . فدخلا المسجد ، فإذا العباس جالس ، و رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم معه جالس ، فسلما ، ثم جلسا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم للعباس : (هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل) ؟ فقال : (نعم ، هذا البراء بن معرور ، سيد قومه ، و هذا كعب بن مالك) . فقال رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (الشاعر) ؟ قال : (نعم) . فقال البراء بن معرور : (يا نبي الله ، إني خرجت في سفري هذا ، و هداني الله للإسلام ، فرأيت أن لا أجعل هذه البَنِيَّةَ مني بظهر ، فصليت إليها ، و قد خالفني أصحابي في ذلك ، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء ، فماذا ترى يا رسول الله) ؟ فقال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لقد كنتَ على قِبلة لو صبرتَ عليها) . فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فصلى إلى الشام .

و واعد مسلمو المدينة السبعون رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم العقبة من أوسط أيام التشريق ليلا ، و كتموا من معهم من قومهم من المشركين أمرهم ، حتى إذا فرغوا من الحج ، و كانت الليلة التي وعدهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، ناموا تلك الليلة مع قوهم في رحالهم ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجوا من رحالهم لميعاد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، يتسللون مستخفين تسلل القَطا ، حتى اجتمعوا في الشِّعْبِ عند العقبة ، و هم سبعون رجلا ، و معهم امرأتان من نسائهم : نسيبةُ بنتُ كعبٍ ، إحدى نساء بني مازنِ بنِ النَّجار ، و أسماءُ بنت عمرو ، إحدى نساء بني سلمة ، فاجتمعوا بالشِّعْبِ ينتظرون رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، حتى جاءهم و معه يومئذ عمه العباس بن عبد المطلب ، و كان لا يزال على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، و يتوثق له ، فلما جلسوا كان العباس بن عبد المطلب أولَ متكلم ، فقال : (يا معشر الخزرج) . و كانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرجَ أَوْسَها و خَزْرَجَها ، (إن مُحَمَّدا منا حيث قد علمتم ، و قد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، و هو في عِزٍّ من قومه ، و مَنَعَةٍ في بلده) . فقالوا له : (قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ، و لربك ما أحببت) . فتكلم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فتلا ، و دعا إلى الله عز و جل ، و رغب في الإسلام ، ثم قال : (أبايعكم على السمع و الطاعة ، في النشاط و الكسل ، و على النفقة في العسر و اليسر ، و على الأمر بالمعروف ، و النهي عن المنكر ، و على أن تقولوا في الله ، لا تأخذكم فيه لومة لائم ، و على أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب ، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، و أزواجكم ، و أبناءكم ، و لكم الجنة) . فلما قاموا إليه ليبايعوه ، أخذ بيده أسعد بن زرارة ، و هو أصغر السبعين ، فقال : (رويدا يا أهل يثرب ، فإنا لم نَضْرِبْ أكباد الإبل ، إلا و نحن نعلم أنه رسول الله ، إنَّ إخراجه اليوم ، مفارقةُ العرب كافة ، و قتل خياركم ، و أن تَعَضَّكُم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك ، فخذوه و أجركم على الله عز و جل ، و إما أنتم قوم تخافون من أنفسكم

جَبِينَةً ، فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله) . فقالوا : (أَمِطْ عنا يدك يا أسعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا ، و لا نستقيلها) . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : (نعم و الذي بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايِعْنا يا رسول الله ، فنحن أهل الحروب ، و أهل الْحَلْقَة ، و رثناها كابرا عن كابر) ، و قال أبو الهيثم بن التَّيِّهَان حليف بني عبد الأشهل : (يا رسول الله ، إن بيننا و بين الرجال حبالا ، و إنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك ، و تدعنا) ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، ثم قال : (بل الدم الدم ، و الهدم الهدم ، أنا منكم ، و أنتم مني ، أحارب من حاربتم ، و أسالم من سالمتم) . فقاموا إليه فبايعوه ، رجلا رجلا ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم) ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا ، منهم تسعة من الخزرج ، و ثلاثة من الأوس ، فكان نقيب بني النجار : أسعد بن زُرَارة ، و نقيب بني سلمة : البراء بن مَعْرُور ، و عبد الله بن عمرو بن حرام ، و نقيب بني ساعدة : سعد بن عُبَادة ، و المنذر بن عمرو ، و نقيب بني زُريق : رافع بن مالك ، و نقيب بني الحارث بن الخزرج : عبد الله بن رَواحة ، و سَعْدُ بن الرَّبيع ، و نقيب القوافل بني عوف بن الخزرج : عُبادة بن الصامت ، و في الأوس من بني عبد الأشهل : أُسَيْدُ بن حُضَيْر ، و أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، و نقيب بني عمرو بن عوف ، سعد بن خَيْثَمَة .

و لم ينقضِ اللقاء حتى سمعوا صارخا يصرخ بأعلى صوته أن مُحَمَّدا و من معه قد اجتعوا على الحرب ، فأشار العباس بن عبادة على النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يميلوا على أهل منى بأسيافهم ، فقال له النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ (إنا لم نؤمر بذلك ، و لكن ارجعوا إلى رحالكم) . و في الصباح أقبل جمع من كبار قريش ، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي و دعوتهم له إلى الهجرة ، فحلف المشركون من الخزرج و الأوس بأنهم لم يفعلوا ، و قالوا لهم : (و الله إنه ما من

العرب أحد أبغضَ إلينا أن تَنْشَبَ الحرب بيننا و بينه منكم) . و المسلمون ينظرون إلى بعضهم .[37]

بداية هجرة الصحابة إلى المدينة

و بعد أن رأى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إقبال أهل المدينة على الإسلام ، و اطمأن إلى صدقهم فيه و الدعوة إليه ، أشار على صحابته أن يجعلوها دار هجرتهم بدل الحبشة ، فأخذ الصحابة يلتحقون بها ، الواحد بعد الواحد ، و تتابع المهاجرون إليها ، بما فيهم بعض من كان بالحبشة ، فكان ممن قدم المدينة : بلال بن رباح ، و سعد بن أبي وقاص ، و عمار بن ياسر ، ثم عمر بن الخطاب في عشرين من الصحابة .

و قد سَعَتْ قريش بشتى الطرق إلى عرقلة المهاجرين عن الهجرة إلى المدينة ، و ثَنْيِهِمْ عنها بشتى الطرق ، مرة بحجز أموالهم و منعهم من حملها ، كما وقع لصهيب الرومي ، و مرة بحجز زوجاتهم و أطفالهم ، كما وقع لأبي سلمة ، و الذي لم يلتحق به أهله إلا بعد مرور سنة من المعاناة ، و مرة أخرى بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة ، كما وقع لعياش بن أبي ربيعة ، و الذي قدم عليه المدينة أبو جهل و الحارث بن هشام ، فأوهماه أنَّ أمه نذرت أن لا يَمَسَّ رأسَها مُشْطٌ ، و لا تستظل من شمس حتى تراه ، فخرج معهما ، و لما كان في الطريق أوثقاه ، و ذهبا به إلى مكة ، غير أنَّ شيئا من ذلك كله لم يُعِقْ موكب الهجرة أن يستمر ، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم و أهليهم و دنياهم كلها ، تلبية لداعي الله سبحانه و تعالى .[38]

[37] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 348/22 ـ 23/23 ـ 24 ـ 89/25 ـ 90 ـ 91][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 443/2 ـ 446 ـ 448][صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 55/2][صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 50/2]

[38] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 98/3][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 475/1]

الزواج بسودة سنة 621 م

و في السنة الثانية عشر من البعثة ، الموافقة لعام 621 م ، بعد قُرَابَةِ العامين من وفاة السيدة خديجة ، هدى الله قلب خولة بنت حكيم ، امرأة عثمان بن مظعون إلى ظرف النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الصعب ، حِيال الفراغ الذي خلفته خديجة وراءها في بيت النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فجاءت إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فذكرت له الزواج ، بعد أن استغرقت الدعوة إلى الله جميع أوقات النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من الدنيا ، و أشغلته عن كل ما سوى الله سبحانه و تعالى ، و أشارت عليه خولةُ بسودة بنت زمعة ، المرأة المسلمة المطلقة ، و التي إن لم تكن في سنه كانت بلا شك أكبر منه ، فأمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خولة بأن تذكره لها ، فدخلتْ خولة على سودة بنت زمعة ، فقالت : (ماذا أَدْخَلَ الله عز و جل عليكِ من الخير و البركة) ؟ قالت : (ما ذاك) ؟ قالت : (أرسلني رسول الله صلى الله عليه و سلم أخطبك عليه) . قالت : (وددت ، ادخلي إلى أبي ، فاذكري ذاك له) . و كان أبوها شيخا كبيرا ، فدخلتْ عليه ، فحَيَّتْه بتحية الجاهلية ، فقال : (من هذه) ؟ فقالت : (خولة بنت حكيم) . قال : (فما شأنك) ؟ قالت : (أرسلني مُحَمَّد بن عبد الله ، أخطب عليه سودة) . فقال : (كُفْؤٌ كريم ، ماذا تقول صاحبتك) ؟ قالت : (تحب ذاك) . قال : (ادعها لي) . فدعتها ، فقال : (أي بُنَيَّةُ ، إن هذه تزعم أن مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب ، قد أرسل يخطبك ، و هو كُفْؤٌ كريم ، أتحبين أن أزوجك به) ؟ قالت : (نعم) . قال : (ادعيه لي) . فجاء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إليه ، فزوجها إياه ، فجاءها أخوها عبد بن زمعة من الحج ، و كان مشركا يومئذ ، فجعل

يَحْثِي على رأسه التراب ، أن تزوج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سودة بنت زمعة .[39]

مؤامرة دار الندوة سنة 622 م

و في السنة الثالثةَ عشر من البعثة المحمدية ، عام 622 م ، و بعد أن أيقنت قريش بأن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لا محالة خارج إلى مدينة الإسلام الجديدة ، ملتحقًا بأصحابه ، بات الوضع مخيفا جدًا حيال مستقبلها المجهول ، إن انتصر عدوها مُحَمَّد صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، لذلك فقد تواعد أشراف قريش على أن يجتمعوا ليلا بدار الندوة ، من أجل حسم أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .[40]

و لما أَطْلَعَ اللهُ تعالى نبيه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على المؤامرة القرشية ، سارع إلى التأهب للرحيل ، فأمر عليا أن يلبس ثوبه ، و أن ينام على فراشه في المساء ، و أن يتغطى بِبُرْدِه ، و أن يصبر على ذلك حتى يصبح .[41]

ثم أتى بيت أبي بكر مُتَقَنِّعًا في القيلولة ، حيث يلوذ فيها الناس ببيوتهم ؛ لشدة الحر و الرمضاء ، فأمره بالتأهب ، و تجهيزِ لوازم السفر ، و أن يلتحق به في غار ثور .[42]

و استأجر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و أبو بكر رجلا من بني الدِّيل ، هاديا ماهرا بالطريق ، على دين كفار قريش ، فدفعا إليه راحلتيهما ، و واعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صُبْحَ ثلاث .[43]

---

[39] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 55/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1039/2][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 504/42][مسند إسحاق بن راهويه / مكتبة الإيمان / ط 1 / 1412 هـ ـ 650/3][البحر الزخار / مؤسسة الرسالة / بيروت / دار الكتاب الإسلامي / القاهرة / ط 1 / 1975 مـ ـ 211/1][الآحاد والمثاني / دار الراية / ط 1 / 1411 هـ ـ 415/5]

[40] [صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 57/2 ـ 58][دلائل النبوة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 465/2]

[41] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 180/5 ـ 301][مسند أبي بكر الصديق لأحمد بن علي المروزي / المكتب الإسلامي / بيروت ـ ص 140][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 472/6]

[42] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 58/5]

[43] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 89/3]

ثم خرج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى غار ثور ، و التحق به أبو بكر بالليل .[44]

و هكذا اجتمع في دار الندوة لَيْلاً شريفُ كل قبيلة من أشراف قريش ، و كان فيهم : عتبة بن ربيعة ، و أبو سفيان بن حرب ، و حكيم بن حزام ، و أبو جهل بن هشام ، و أُمَيَّة بن خلف ، و قد أجمعوا بعد المشورة على قول أبي جهل بن هشام حيث قال : (أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا جلدًا ، نسيبًا وسيطًا فِينَا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا ، ثم يَعْمِدون إليه ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فيقتلونه فنستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا ، و رضوا منا بالعقل فعقلناه لهم) . فتفرق القوم على ذلك ، و هم مجمعون له .[45]

و بات المشركون يحرسون عليا ، يحسبونه النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه بالحجارة لكي يخرج ، فلما رأوا عليا ، قالوا : (أين صاحبك) ؟ فقال : (لا أدري) . فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خُلِّطَ عليهم ، فصعِدوا في الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : (لو دخل هاهنا ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه) .[46]

و عرض الرهط القرشي الهدايا و الهبات أمام من يأتي بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم حيًا أو ميتًا .[47]

و بقي النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع أبي بكر في الغار ثلاث أيام .[48]

و كان يبيت عندهما الشاب الفطن عبدُ اللهِ بنُ أبي بكر ، ثم يرحل من عندهما سحرا ، فيصبح مع قريش بمكة كبائِتٍ ، فلا يسمع أمرا يُكَادَانِ به إلا وعاه ،

[44] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 58/5][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 180/5]
[45] [صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 58/2]
[46] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 180/5 ـ 301][مسند أبي بكر الصديق لأحمد بن علي المروزي / المكتب الإسلامي / بيروت ـ ص 140][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 5/3]
[47] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 60/5]
[48] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 58/5]

حتى يأتيَهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، و يرعى عليهما عامرُ بن فُهَيْرَةَ مولى أبي بكر مِنْحَةً من غنم ، فَيُرِيحُها عليهما حين تذهب ساعةٌ من العشاء . [49]

الانطلاق من مكة سنة 622 م

و في صبيحة الليلة الثالثة يومَ الخميس ، السابع و العشرين من شهر صفر ، الموافق للتاسع من سبتمبر 622 م ، أتى النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و أبا بكر أجيرهما من بني الدِّيل براحِلَتَيْهِما ، فارتحلا ليلا ، و انطلق معهما عامر بن فُهَيْرَةَ ، و الدليل الدِّيلي ، فأخذ بهم أسفل مكة ، و هو طريق الساحل . [50]

و بينما هم في طريق المدينة ، إذا بفارس من فرسان قريش ، و هو سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ يلحق بهم على حصان له معه سلاحه ، يريد أن يظفر بعَرْض قريش ، فدعا عليه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه ، و وَثَبَ عنه ، و قال : (يا مُحَمَّد قد علمتُ أن هذا عملُك ، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه ، و لك علي لَأُعَمِّيَنَّ على من ورائي ، و هذه كنانتي ، فخذ سهما منها ، فإنك ستمر على إبلي و غلماني بمكان كذا و كذا ، فخذ منها حاجتك) . فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لا حاجة لي في إبلك) . فدعا له النبي صلى الله عليه و سلم فنجا ، فجعل لا يلقى أحدا إلا قال لهم : (قد كَفَيْتُكُم ما هنا) . و كان لا يلقى أحدا إلا رده ، فجعله الله تعالى سببا في نجاة نبيه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و صاحبه . [51]

و كانا خلال سفرهما يحتاطان في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق ، فإذا سئل أبو بكر عن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، قال : (هو رجل

---

[49] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 145/7]

[50] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 88/3 ـ 64/5]

[51] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 201/4][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 2310/4]

يهديني السبيل) . فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق ، و إنما كان يعني سبيل الخير . [52]

و في الطريق نزلا بأبي مَعْبَدٍ ، فلم يجدا عنده غير شاة هزيلةٍ لا تَدِرُّ لبناً ، فأتي بها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فمسح ضَرْعَها بيده ، و دعا الله ، و حلب في إناء حتى علت الرَّغْوَةُ ، وشرب الجميع ، و كانت هذه الكرامة سبب إسلام أبي معبد ، و أحب أن يصحب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في سفره ، فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لا ، حتى تسمع أنا قد ظهرنا) . [53]

الوصول إلى قباء سنة 622 م

ثم واصل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و صاحبه المسير ، إلى أن وصلا إلى قُباء ليلا ، يومَ الاثنين التاسعَ من شهر ربيع الأول ، الموافق للعشرين من شهر سبتمبر سنة 622 م ، فنزلا على بني عمرو بن عوف ، و لبثا عندهم أربع عشرة ليلة ، و بنى بها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أول مسجد أسس على التقوى . [54]

و كانت بين النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و بين بعض اليهود في قرية بني عمرو لقاءات ، كان اليهود من خلالها يتعرفون على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و كان سلمان الفارسي ممن التقى بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم بقباء ، حيث كان يتبين فيه علامات نبي آخر الزمان . [55]

[52] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 62/5]

[53] [المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 9/3][كشف الأستار عن زوائد البزار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1399 هـ ـ 301/2]

[54] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 2310/4][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 67/5][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 172/17][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 9/3]

[55] [سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 519/1][دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / دار النفائس / بيروت / ط 2 / 1406 هـ ـ ص 77][سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 90]

النزول بالمدينة

ثم أرسل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى القوم الذين أسلموا من الأنصار بالمدينة أبي أمامة و أصحابه ، فخرجوا إليهما ، و هم زُهَاءُ خمسِمائةٍ مِنَ الأنصار ، متقلدي سيوفهم ، فسلموا عليهما ، و قالوا : (اركبا آمنَيْنِ مطاعَين) . فركب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ راحلته و أبو بكر رِدْفُهُ ، و الصحابة من حولهما بالسلاح .[56]

و ما إن لاح موكب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و صحابته قُبَيْلَ القايلة ، حتى ارْتَجَّتِ المدينة فرَحًا و سرورا بقدوم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و خرج أهل المدينة ، و تفرق الغلمان و الْخَدَمُ في الطرق ، ينادون : (يا مُحَمَّد يا رسول الله ، يا مُحَمَّد يا رسول الله) . حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن : (أيهم هو ، أيهم هو) ؟ و لعِبَت الحبشة لقدومه بحرابهم فرحا بذلك .[57]

و دخل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المدينة ، فتنازع الصحابة أيهم ينزل عليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أنزل على بني النجار ، أخوالِ عبد المطلب ، أكرمهم بذلك) .[58]

و لما بلغ النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حيَّ بني النجار ، إذا هو بِجَوَارٍ يضربن بدُفِّهِن و يتغنين و يقلن :

نحن جوارٍ من بني النجار   يا حبذا مُحَمَّد من جار

فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (الله يعلم إني لَأُحِبُّكُنَّ) .[59]

---

[56] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 67/5][غاية المقصد في زوائد المسند / دار الكتب العلمية / بيروت / ط 1 / 1421 هـ ـ 22/3][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 426/20 ـ 427][المنتخب من مسند عبد بن حميد / دار بلنسية / ط 2 / 1423 هـ ـ 267/2]

[57] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 60/5 ـ 168/6][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 2310/4][المنتخب من مسند عبد بن حميد / دار بلنسية / ط 2 / 1423 هـ ـ 267/2][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 91/20 ـ 427]

[58] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 2310/4]

[59] [سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 92/3]

ثم قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (أيُّ بيوتِ أهلنا أقرب) ؟ فقال أبو أيوب : (أنا يا نبيَّ الله ، هذه داري و هذا بابي) . فقال النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فانطلق ، فهيئ لنا مقيلا) . فقال أبو أيوب : (قُومَا على بركة الله) . فكان النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في بادئ الأمر يبيت بأسفل البيت ، فلم يطق ذلك أبو أيوب حياءً ، فألح على النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يصعد إلى الطابق الأول ، فكان النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد ذلك بالأعلى . [60]

و قد اختار عمر بن الخطاب أن يجعل العام الذي هاجر فيه النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هو أولَ عام للتأريخ الهجري ، و بدأوا التأريخ الهجري من شهر المحرم الذي سبق الهجرة بشهرين و تسعة أيام ، و قد وافق أوَّلُ المحرم من أول السنة الهجرية : 15 أو 16 جويلية 622 م . [61]

إسلام حَبْر اليهود عبد الله بن سلام

و ما إن سمع عبد الله بن سلام أحدُ كبار علماء اليهود بقدوم النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى سارع إليه ليتبين نبوته فيه ، و يقول عبد الله بن سلام عن أول لقاء رأى فيه النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لما رأيت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، و كان أول ما سمعته يقول : (يا أيها الناس ، أفشوا السلام ، و أطعموا الطعام ، و صلوا الأرحام ، و صلوا و الناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) . ثم كان بينه و بين النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لقاء خاص ، اختبر فيه عبد الله بن سلام نبوة النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلم يفارقه حتى أعلن إسلامه ، و طلب من النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يكتم إسلامه عن اليهود حتى يسألهم النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن مكانة عبد الله بن سلام بينهم ، حتى إذا لقي النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد ذلك جماعة من

[60] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 62/5]
[61] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 68/5][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 172/17]

اليهود ، سألهم عن مكانة عبد الله بن سلام فيهم ، فقالوا : (خَيْرُنَا و ابن خَيْرِنَا ، و أَفْضَلُنَا و ابنُ أَفْضَلِنَا ، و سيدنا و ابن سيدنا) . فقال لهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام) ؟ قالوا : (أعاذه الله من ذلك) ، فلما تحققوا من إسلامه ، قالوا عنه : (شرنا و ابن شرنا) ، و تَنَقَّصُوه . [62]

بناء المسجد النبوي

و لما أصبح النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالمدينة ، كان أولُ ما بدأ به ، هو بناء المسجد ، فأرسل إلى ملإٍ من بني النجار فقال : (يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا) . فقالوا : (لا و الله ، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله) . و كانت بتلك الأرض قبور للمشركين ، فأمر النبي صلى الله عليه و سلم بقبور المشركين فنبشت ، و جعلوا ينقلون الصخر و هم يرتجزون و النبي صلى الله عليه و آله و سلم معهم بقولهم : (اللهم لا خير إلا خير الآخره ، فاغفر للأنصار و المهاجره) . [63]

و قد بنى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ جدرانه باللَّبِنِ ، و جعل سقفه من الجريد ، و عُمُدَه من خَشب النخل . [64]

و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يأمر صحابته بأن يُمَكِّنُوا رجلا يماميا من البناء ؛ لما له من خبرة في البناء ، و إتقان في العمل . [65]

و في تلك الأثناء التي كان يُرْفَعُ فيها المسجد ، نبَّأَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عمار بن ياسر بأنه ستقتله الفئة الباغية ، في إشارة منه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى أن بناء المسجد و الاجتهاد في توحيد المسلمين فيه على إمام واحد في زمنه ، لا يجدي نفعا مع المنافقين الذين لا يساعدهم الاجتماع على الحق . [66]

---

[62] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 69/5 ـ 19][سنن الدارمي / دار المغني للنشر والتوزيع / ط 1 / 1412 هـ ـ 915/2]
[63] [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 287/15][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 93/1]
[64] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 97/1]
[65] [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 404/3][معرفة الصحابة لأبي نعيم / دار الوطن للنشر / ط 1 / 1419 هـ ـ 357/1]
[66] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 97/1][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 2236/4]

و بنى النبي صلى الله عليه و آله و سلم له بيتًا ملاصقًا للمسجد ، و قسمه إلى حُجُرَات صغيرة ، أبوابها إلى داخل المسجد . [67]

و بعد بناء المسجد ، كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يخطب بدون منبر ، فاقترحت عليه امرأة كان لها غلام نجار أن تصنع له منبرا من خشب ، يقوم عليه ، فاستحسن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رأيها ، فصنعته من ثلاث درجات ، و لما كان يوم الجمعة قعد النبي صلى الله عليه و آله و سلم عليه ، فجعلت نخلة كان يخطب عندها تُصْدِرُ صوتا كمثل بكاء الصبي ، فنزل النبي صلى الله عليه و سلم عن منبره ، و أمسكها بيده الشريفة ، حتى انقطع ذلك الصوت عنها . [68]

إسلام سلمان الفارسي

و لم تمض إلا أيام قلائل ، حتى أسلم سلمان الفارسي ، بعد أن رأى في النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ما أخبره به بقايا الرهبان الصادقين من علامات النبي الذي يخرج في ذلك القرن الذي بعث فيه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و كان سلمان رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جي ، و كان أبوه دِهْقَانَ قريته ، و كان سلمان أحب خلق الله إليه ، فلم يزل به حبه إياه حتى حَبَسَه في بيته كما تحبس الجارية ، و اجتهد سلمان في المجوسية حتى كان قَطِنَ النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، و كانت لأبيه ضَيْعَةٌ عظيمة ، فشُغِلَ في بُنْيانٍ له يوما ، فقال لسلمان : (يا بني ، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضَيْعَتي ، فاذهب فاطلعها ، و أمره فيها ببعض ما يريد ، فخرج يريد ضيعته ، فمر بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمع أصواتهم فيها و هم يصلون ، و كان لا يدري ما أَمْرُ الناس ؛ لحبس أبيه إياه في بيته ، فلما مر بهم ، و سمع أصواتهم ، دخل عليهم ينظر ما يصنعون ، فلما رآهم أعجبته صلاتهم ، و رغب في أمرهم ، و قال : (هذا و الله خير

[67] [مسند إسحاق بن راهويه / مكتبة الإيمان / ط 1 / 1412 هـ ـ 614/3]

[68] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 97/1][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 386/1][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 117/22]

من الدين الذي نحن عليه) . فما تركتهم حتى غربت الشمس ، و ترك ضيعة أبيه و لم يأتها ، فقال لهم : (أين أصل هذا الدين) ؟ قالوا : (بالشام) . فرجع إلى أبيه ، و قد بعث في طلبه ، و شغله عن عمله كله ، فلما جاءه ، قال : (أي بني ، أين كنت ؟ ألم أكن عهدتُ إليك ما عهدت) ؟ فقال : (يا أبت ، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس) . فقال له أبوه : (أي بني ، ليس في ذلك الدين خير ، دينك و دين آبائك خير منه) . فقال سلمان : (كلا و الله ، إنه لخير من ديننا) . فخافه أبوه حينها ، فجعل في رجله قيدا ، ثم حبسه في بيته ، فبعث سلمان إلى النصارى فقال لهم : (إذا قدم عليكم ركب من الشام تجارٌ من النصارى ، فأخبروني بهم) . فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى ، فأخبروه بهم ، فقال لهم : (إذا قضوا حوائجهم ، و أرادوا الرجعة إلى بلادهم ، فآذنوني بهم) . فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروه بهم ، فألقى الحديد من رجله ، ثم خرج معهم حتى قدم الشام ، فلما قدمها ، قال : (من أفضل أهل هذا الدين) ؟ ثقالوا : (الْأُسْقُفُّ في الكنيسة) . فجاءه ، فقال : (إني قد رغبت في هذا الدين ، و أحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك ، و أتعلم منك ، و أصلي معك) . فقال له : (فادخل) . فدخل معه ، فكان رجل سوء ، يأمرهم بالصدقة و يرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها أشياء ، اكتنزه لنفسه ، و لم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قِلال من ذهب و وَرِقٍ ، و أبغضه سلمان بغضا شديدا ؛ لما رآه يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقال لهم سلمان : (إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ، و يرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها ، اكتنزها لنفسه ، و لم يعط المساكين منها شيئا) . فقالوا : (و ما علمك بذلك) ؟ فقال : (أنا أدلكم على كنزه) . قالوا : (فدلنا عليه) . فأراهم موضعه ، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا و ورقا ، فلما رأوها قالوا : (و الله لا ندفنه أبدا) . فصلبوه ، ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاءوا برجل آخر ، فجعلوه بمكانه ، قال سيدنا سلمان : (فما رأيت رجلا أفضل منه ، أزهد في الدنيا ، و لا أرغب في الآخرة ، و لا أدأب ليلا و نهارا

منه) . فأحبه سيدنا سلمان حبا شديدا ، و أقام معه زمانا ، ثم حضرته الوفاة ، فقال له سلمان : (إني كنت معك ، و أحببتك حبا لم أحبه من قبلك ، و قد حضرك ما ترى من أمر الله ، فإلى من توصي بي ، و ما تأمرني) ؟ فقال له : (أي بني ، و الله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنتُ عليه ، لقد هلك الناس ، و بدلوا و تركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلا بالموصل ، و هو فلان ، فهو على ما كنتُ عليه ، فالْحَقْ به) . فلما مات و غُيِّبَ ، لَحِقَ سلمان بصاحب الموصل ، فقال له : (إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك ، و أخبرني أنك على أمره) . فقال له : (أَقِمْ عندي) . فأقام عنده ، فوجده خير رجل ، على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن حضرته الوفاة ، فقال له سلمان : (إن فلانا أوصى بي إليك ، و أمرني باللحوق بك ، و قد حضرك من الله عز و جل ما ترى ، فإلى من توصي بي ، و ما تأمرني) ؟ فقال : (أي بني ، و الله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين ، [بين العراق و سوريا] ، و هو فلان ، فالحق به) . فلما مات و غيب ، لحق بصاحب نصيبين ، فجاءه فأخبره خبره ، و ما أمره به صاحبه ، فقال له : (فأقم عندي) . فأقام عنده ، فوجده على أمر صاحبيه ، فأقام مع خير رجل ، فما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر ، قال له سلمان : (يا فلان ، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصي بي ، و ما تأمرني) ؟ فقال : (أي بني ، و الله ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية [موطن بسوريا] ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على أمرنا) . فلما مات و غيب لحق بصاحب عمورية ، و أخبره خبره ، فقال : (أقم عندي) . فأقام مع رجل على هدي أصحابه و أمرهم ، و اكتسب حتى كان له بقرات و غُنَيْمَة ، ثم نزل به أمر الله ، فلما حضر قال له : (يا فلان ، إني كنت مع فلان ، فأوصى بي فلان إلى فلان ، و أوصى بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصي بي ، و ما تأمرني) ؟ فقال : (أي بني ، و الله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ، و لكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض

العرب ، مهاجرا إلى أرضٍ بين حَرَّتَيْن [جبلين في المدينة] بينهما نخل ، به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ، و لا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل) . ثم مات و غيب ، فمكث سلمان بعمورية ما شاء الله أن يمكث ، ثم مر به نفر من كَلْبٍ تجارا ، فقال لهم : (تحملوني إلى أرض العرب ، و أعطيكم بقراتي هذه و غُنَيْمَتي هذه) ؟ قالوا : (نعم) . فأعطاهم إياها ، و حملوه ، حتى إذا قدموا به وادي القِرَى ، ظلموه ، فباعوه من رجل من يهودَ عبدا ، فكان عنده ، حتى قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة ، فابتاعه منه ، فاحتمله إلى المدينة ، فما هو إلا أن رآها حتى عرفها بصفة صاحبه ، فأقام بها ، و بعث الله رسوله ، فأقام بمكة ما أقام لا يَسمع له بذكر مع ما هو فيه من شغل الرق ، ثم هاجر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة ، و بينما كان سلمان في رأس عِذْق لسيده ، يعمل فيه بعض العمل ، و سيده جالس ، إذ أقبل ابن عم له ، حتى وقف عليه فقال : (فلانُ ، قاتل الله بني قَيْلَة ، و الله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبي) . فلما سمعها سلمان ارتعد ، حتى كاد أن يسقط على سيده ، و نزل عن النخلة ، فجعل يقول لابن عم سيده ذلك : (ماذا تقول ؟ ماذا تقول) ؟ فغضب سيده فلكمه لكمة شديدة ، ثم قال : (ما لك و لهذا ، أقبل على عملك) . فقال : (لا شيء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال) . و قد كان عند سلمان شيء قد جمعه ، فلما أمسى أخذه ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو بقباء ، فدخل عليه ، فقال له : (إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، و معك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، و هذا شيء كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم) . فقربه إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأصحابه : (كلوا) . و أمسك يده فلم يأكل ، فقال سلمان في نفسه : (هذه واحدة) . ثم انصرف عنه فجمع شيئا ، و تحول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة ، ثم جاءه به ، فقال : (إني رأيتك لا تأكل الصدقة ، و هذه هدية أكرمتك بها) . فأكل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم منها ، و أمر أصحابه

فأكلوا معه ، فقال سلمان في نفسه : (هاتان اثنتان) . ثم جاء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و هو ببقيع الغرقد ، و قد تبع جنازة رجل من أصحابه ، عليه شملتان له ، و هو جالس في أصحابه ، فسلم عليه ، ثم استدار ينظر إلى ظهره ، هل يرى الخاتَم الذي وَصَف له صاحبه ، فلما رآه رسولُ الله صلى الله عليه و آله و سلم استدبره ، عرف أنه يستثبت في شيء وصف له ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظر إلى الخاتم فعرفه ، فانكب عليه يقبله و يبكي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (تحول) . فتحول ، فجلس بين يديه ، و قص عليه حديثه ،،، فأعجب رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يسمع ذلك أصحابه ، فقص عليهم خبره ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (كاتِبْ يا سلمان) . فكاتب سيده على ثلاث مائة نخلة يغرسها له ، و بأربعين أُوقِيَّةً ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأصحابه : (أعينوا أخاكم) . فأعانوه بالنخل ، حتى اجتمعت له ثلاثُ مائة وَدِيَّةً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (اذهب يا سلمان فَفَقِّرْ لها ، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي) . ففقر لها ، و أعانه أصحابه ، حتى إذا فرغ منها جاءه فأخبره ، فخرج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم معه إليها ، فجعل سلمان يقرب له الوَدِيَّ و رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يضعه بيده ، قال سلمان : (فوالذي نفس سلمان بيده ، ما ماتت منها وَدِيَّةً واحدة) . فأدى النخل ، و بقي عليه المال ، فأُتِيَ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب . فقال : (ما فعل الفارسي المكاتب) ؟ فدعي له ، فقال : (خذ هذه ، فأد بها ما عليك يا سلمان) . فقال سلمان : (و أين تقع هذه يا رسول الله مما علي) ؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (خذها ، فإن الله سيؤدي بها عنك) . فأخذها ، فوزن لهم منها أربعين أُوقِيَّةً ، فأوفاهم حقهم ، و عتق .[69]

[69] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 140/39 ـ 147][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 220/1]

المؤاخاة بين المسلمين

و بعد أن استقر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالمدينة ، كانت من أولى أولوياته : توحيد الصف ، و التأليف بين القلوب ، و المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار ، و تقوية روابط الإيمان بين جميع المسلمين ، و كان المسلمون يتوارثون فيما بينهم بمقتضى تلك الأخوة ، إلى أن نُسِخَ التوارثُ فيما بعد بينهم ، و بقي التوارث على مقتضى القرابة المذكورة في القرآن .[70]

و كان الأنصار مع المهاجرين نموذج الإيثار و الجود و الكرم ، حتى لقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين .[71]

البناء بعائشة

و من أجل تقوية النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ علاقته بأبي بكر ، بنى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعائشة ، بعد مرور سبعةِ أَشْهُرٍ من نزوله بالمدينة ، و كان ذلك في شهر شوال ، و كانت عائشةُ آنذاك ابنةَ تسع سنين .[72]

دعاة الفتنة في المدينة

و بالرغم من أهمية الاتحاد و الوحدة و الجماعة في الحياة ، و التي كان يسعى إلى تحقيقها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من خلال التأليف بين القلوب في المدينة ، غير أن أهل الأطماع و الأهواء و الشهوات ، لا يساعدهم هذا الهدف من أجل الوصول إلى مصالحهم الخاصة ، و أطماعهم التي لا حدود لها ، و كان على رأس هذه الفتنة في المدينة آنذاك رجل اسمه : عبد الله بن أُبَيّ بنِ سَلُول ، و الذي كاد

---

[70] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 96/3 ـ 4/7][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 258/4][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 68/6][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 38/3][تفسير ابن أبي حاتم / مكتبة نزار مصطفى الباز / ط 3 / 1419 هـ ـ 3114/9]

[71] [الحشر: 7][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 38/9]

[72] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 55/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1039/2]

أن يُتَوِّجَهُ أهل المدينة بالزعامة عليهم ، لولا النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فهو في نظره يرى بأن النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سلب له ملكا لا يبلى ، و غايةً لا تعلوها غاية ، و لذلك فقد كان يُكِنُّ للنبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عداوة دفينة ، و كان دائما يتربص الفرص السانحة من أجل إثارة الفتن بين أهل المدينة ، فيكون هو المستفيد من تلك الفتن ، و قد كادت أن تشتعل فتنة عظيمة بعد أيام أو أشهر قلائلَ من مجيء النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة بسببه بين المسلمين و المشركين و اليهود ، لولا حكمة النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و تهدئته للأوضاع التي لا تحتمل الاحتقان في تلك الحقبة بالذات ، فقد ركب النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذات يوم حماره ، و أردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج ، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُول ، و كان يومئذ مشركا ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين و المشركين و اليهود ، و في المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلسَ عَجَاجَةُ الدابة ، خَمَّر عبد الله بن أُبَيٍّ أنفه بِردائه ، ثم قال : (لا تُغَبِّرُوا علينا) . فسلم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليهم ، ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله ، و قرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : (أيها المرء ، إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا ، فلا تؤذنا به في مجلسنا ، ارجع إلى رَحْلِك ، فمن جاءك فاقصص عليه) . فقال عبد الله بن رواحة : (بلى يا رسول الله ، فاغْشَنَا به في مجالسنا ، فإنا نحب ذلك) . فاستب المسلمون و المشركون و اليهود ، حتى كادوا يتثاوَرون ، فلم يزل النبي صلى الله عليه و آله و سلم يخفضهم حتى سكنوا ، ثم ركب النبي صلى الله عليه و آله و سلم دابته ، فسار حتى دخل على سعد بن عُبادة ، فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (يا سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حُبَابٍ) ؟ فقال سعد بن عبادة : (يا رسول الله ، اعف عنه و اصفح عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب ، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ، و لقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة على أن يُتَوِّجُوه ، فيُعَصِّبوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك ، بالحق الذي أعطاك الله ، شَرِق بذلك ،

فذلك فَعَلَ به ما رأيت) . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و كان صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه يعفون عن المشركين و أهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، و يصبرون على الأذى في تلك الحقبة .[73]

قريش تتوعد و تهدد

و بعد أن أُعْلِنَ الأذانُ في المدينة ، و صار لكلمة التوحيد صداها الواسعُ الذي ملأ فضاء المدينة ، انتقلت الدعوة المحمدية في يثرب إلى مرحلة جديدة ، أزعجت آذان أهل الكفر و الانحلال ، و ضاقت بها قلوبهم ، و باتت تشكل تهديدا واضحا على أطماعهم ، و تطارد أحلام صناديد الكفر في مكة بالرغم من بُعْدِ المسافة ، و لذلك فقد قررت قريش أن ترسل برقيةَ تهديدٍ و وعيدٍ إلى زعيم كفار المدينة ، و هو عبد الله بن أبي ، تقول له فيها : (إنكم آوَيتُم صاحبَنا ، و إنا نُقسِم بالله لَتُقاتِلُنَّهُ ، أو لَتُخرِجُنَّهُ ، أو لنَسِيرَنَّ إليكم بأجمَعِنا ، حتى نقتلَ مُقَاتِلَتَكُم و نَسْتَبِيحَ نِساءَكم) . فلما بلغَ ذلك عبدَ الله بن أبيّ و مَن كان معه من عَبَدةِ الأوثانِ ، أجمعوا على قتالِ النبيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلما بلغ ذلك النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لقيهم فقال : (لَقَدْ بَلَغَ وعيدُ قُريشٍ منكم المبَالغ ، ما كانت تكيدُكم بأكْثَرَ مِمَّا تريدُون أن تَكيدُوا بِهِ أنفُسَكم ، تريدُون أن تُقاتلوا أبنَاءَكم و إخوانَكم) ! فلما سمعُوا ذلك من النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تفرَّقوا .[74]

و هكذا عاد الهدوء إلى المدينة مرة أخرى ، بعد أن كادت الفتنة تأتي على الأخضر و اليابس ، لولا تدخل الحكمة المحمدية التي كانت كالدواء على الجرح .

و لكن بالرغم من خمود نار الفتنة ، إلا أن النار التي قد تختبئ في باطن الجمر ، قد تعاود الظهور مرة أخرى إذا ما هبت عليها ريح الفتنة ، و قد كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و الصحابة معه في تلك الأيام و بعدها ، لا يبيتون إلا

[73] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 39/6 ـ 45/8]

[74] [سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 618/4]

بالسلاح ، و لا يصبحون إلا فيه ، و كان الصحابة يحرسون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عند نومه .[75]

و لذلك فلبد من إيجاد الحل المناسب ، الذي من شأنه أن يحول الخوف إلى موطنه ، و يقلب السحر على الساحر .

الإذن بالقتال

لقد كانت قريش بالرغم من بعدها عن المدينة ، تريد أن تسيطر على قلوب المسلمين في المدينة ، من خلال الحرب النفسية التي يديرها بالنيابة عنها أذنابها بالمدينة ، لكي تضمن لها الأمن بذلك ، و لذلك فقد كان من الضروري اتخاذ الرد المماثل الرادع الذي يضع حدا للكبرياء القرشي ، و بما أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم ، فقد اقتضى ذلك الظرف ضرورة الجهاد ، و في هذه الأثناء أُنْزِلَ على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قوله تعالى : {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} .[76]

بداية الغزوات و السرايا

لقد كانت أول صفعة تلقتها قريش من النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، بعد نزول الإذن بالقتال ، و أولُ تهديد مباشر لها هي غزوة العُشَيْرَة ، و العشيرة هي منطقة تقع على طريق قوافل قريش ، ما يعني أن تجارة قريش أصبحت في خطر ما لم تغير موقفها المتعنت من الإسلام .[77]

---

[75] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 83/9][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 434/2]

[76] [الحج : 39 ، 40]

[77] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 71/5]

و كان النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يبعث بين الفينة و الأخرى سراياه تتعرض لقوافل قريش ، و الفرق بين السرايا و بين الغزوات ، هو أن الغزوة كان يحضرها النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، بخلاف السرايا .

و كان النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في غزواته و إذا أرسل سراياه ينهى عن قتل الصبيان و النساء و غير المقاتلين . [78]

و كانت من تلك السرايا : سرية نخلة ، حيث بعث النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ جماعة من الصحابة و أمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فبكى أبو عبيدة لمفارقة رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأرسل النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مكانَه عبدَ الله بن جحش و كتب له كتابا ، و أمره أن لا يَقرَأه حتى يبلغ مكانا يُسَمَّى نَخْلَةُ ، و أمره أن لا يُكْرِهَ أحدا من أصحابه على السير معه ، فلما بلغ المكان الذي حدده له النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، قرأ الكتاب على أصحابه ، فرجع رجلان و مضى بقيتُهم ، فَلَقَوا عمرو بنَ الحضرمي فقتلوه ، فقال المشركون للمسلمين : فعلتم و فعلتم كذا و كذا في الشهر الحرام ، فأنزل الله تبارك و تعالى : {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} . [79]

و أمر النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد انطلاق الغزوات و السرايا بالهجرة إلى المدينة ، و تبرأ من كل من أقام مع أهل الكفر و الشرك في دار الحرب ، إلا من كان من أهل الأعذار ، و كلف النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَرْثَدَ بْنَ أبي مَرْثَدٍ ، أن يهرب المسلمين العالقين في مكة إلى المدينة . [80]

[78] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 61/4][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 112/11][بحار الأنوار / مؤسسة الوفاء / بيروت / ط 2/ 1403 هـ ـ 177/19]

[79] [البقرة: 217][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 107/8][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 102/3][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 654/3 ـ 663]

[80] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 48/6][الأشعثيات / مكتبة نينوى الحديثة ـ ص 82][تهذيب الأحكام / دار الكتب الإسلامية / ط 3 / 1364 هـ ـ 151/6][صحيح أبي داود / مؤسسة غراس / ط 1 / 1423 هـ ـ 397/7][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 148/7][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 328/5]

تحويل القبلة إلى الكعبة سنة 623 م

و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالرغم من التحرك العسكري الجديد ، و الذي بدأت تبرز من خلاله معالم قوة المسلمين ، يبدي نوعا من الليونة و التقارب مع جماعة أهل الكتاب في المدينة ، و كان يتألف قلوبهم ، من خلال موافقتهم فيما لم يؤمر بخلافهم فيه ، و من ذلك استقباله لبيت المقدس معهم في عبادته ، كل هذا طمعا في انضمامهم إلى صف المسلمين ، بالرغم من أن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت العتيق ، غير أن ذلك لم يكن مجديا معهم ، إذ لم يزد أهل الكتاب إلا جحودا و كفرا و ريبا في دعوة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و لذلك ففي رجب من سنة 623 من الميلاد ، و بعد مرور ستةَ عشرَ شهرا على نزول النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالمدينة ، نزلت الآية التي وضعت حدا للتقارب الذي كان يمارسه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ معهم ، و نسخ الله حكما دام عليه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ستة عشر شهرا ، و كانت أولُ صلاة صلاها إلى الكعبة : صلاة العصر . [81]

معركة بدر سنة 623 م

و بعد مرور ثمانيةَ عشرَ شهرا على الهجرة المحمدية ، بعث النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الصحابيَّ بُسَيْسَةَ عينا ، يَنظُر ما صنعَتْ عيرُ أبي سفيان ، فرجع فأخبر النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فاستدعى صحابتَه ، و أخبرهم بإقبال عير أبي سفيان ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله يُنَفِّلَكُمُوهَا) . فندب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الناس ، و قال لهم : (من كان ظهره حاضرا ، فليركب معنا) .

[81] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 17/1 ـ 189/4][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 796/2][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 366/4]

فأخذ الصحابة يجتمعون ، و كان فيمن تأهب للخروج معهم البراء بن عازب و عبد الله بن عمر و عمير بن أبي وقاص ، فاستصغر سنهم النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و أمرهم بالعودة ، فبكى عمير ، فأجازه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و أمر أن يُحْمَلَ عنه سيفه ؛ لصغره ، و جعل رجال يستأذنون النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في إحضار مراكبهم من عُلْوِ المدينة ، فقال : (لا ، إلا من كان ظهره حاضرا) . غير أن الكثير من صحابة رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ممن لا ظهر له أبى إلا أن يخرج .

و كان عددُ من كان جاهزا مع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ثلاثَمِائةً و بضعةَ عشرَ صحابيا ، فكان كل ثلاثة يتناوبون و يتعاقبون على بعير ، و كان أبو لُبَابَةَ ، و عليٌّ بن أبي طالب ، زمِيلَيْ رسولِ الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فتنازلا لرسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن نَوْبَتِهِمَا ، فقال لهما صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما أنتما بأقوى مني ، و لا أنا بأغنى عن الأجر منكما) .

و لم يكن معهم من فرس غيرُ فرسٍ للزبير و آخرَ للمقداد ، و أمر النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل ، حتى تكون العملية العسكرية في منتهى السرية .

فانطلق رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه ، و كان ذلك في السادس عشر من شهر رمضان ، الموافق لسنة 623 من الميلاد ، حتى إذا كان بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ ، أَدْرَكَهُ رجلٌ قد كان يُذْكَرُ منه جُرأة و نجدة ، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (جئتُ لِأَتَّبِعَكَ ، و أُصِيبَ معك) . فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (تؤمن بالله و رسوله) ؟ فقال : (لا) . فقال له : (فارجع ، فلن أستعين بمشرك) . ثم مضى حتى إذا كانوا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (تؤمن بالله و رسوله) ؟ فقال : (لا) . فقال له : (فارجع ، فلن أستعين بمشرك) . ثم رجع فأدركه بالبيداء ،

فقال له كما قال أول مرة : فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (تؤمن بالله و رسوله) ؟ فقال : (نعم) . فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (فانطلِقْ) .

و في تلك الأثناء كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، و يسأل من لقي من الركبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان : أن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قد استنفر أصحابَه له و لعيره ، فَحَذِرَ عند ذلك ، و استأجر ضَمْضَمَ بنَ عَمْرٍو الغفاريَّ ، فبعثه إلى مكة ، و أمره أن يأتي قريشا فيستنفرَهم إلى أموالهم ، و يخبرَهم أن مُحَمَّدا قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة ، فنزلها و وقف على بعيره بالأبطح قد حول رحله ، و شق قميصه ، و جدع بعيره ، و أخذ ينادي بأعلى صوته و يقول : (يا معشر قريش ، اللَّطِيمَةَ اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان ، و تجارتكم قد عرض لها مُحَمَّد و أصحابه ، فالغوث) .

فاستنفر أبو جهل الناس ، فقال : (أدركوا عيركم) ؟ و بعد أن انتشر خبر الخروج في قريش ، و جاء الخبر أُمَيَّة ، كره أن يخرج ، فأتاه أبو جهل فقال : (يا أبا صفوان ، إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت ، و أنت سيد أهل الوادي ، تخلفوا معك) . فلم يزل به أبو جهل ، حتى خرج معهم .

و لما بلغ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ واديا يقال له ذَفِرَانُ ، فخرج منه ، أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار النبي صلى الله عليه و آله و سلم الناس ، و أخبرهم عن قريش ، فتكلم أبو بكر ، فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر ، فأعرض عنه ، و كان فريق من المومنين قد كرهوا القتال ، و جادلوا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في الخروج ، كأنما يساقون إلى الموت و هم ينظرون ، فقام المقداد بن عمرو فقال : (يا رسول الله ، امْضِ إلى حيث أمرك الله ، فنحن معك ، و اللهِ لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : {اذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} . و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك

بالحق لئن سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغِمَادِ (مدينةٍ بالحبشة) لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه) . فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خيرا ، ثم دعا له بخير ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أشيروا علي أيها الناس) ، و إنما يريد الأنصار ، و ذلك أنهم كانوا أكثر الناس ببدر ، و أنهم حين بايعوه يوم العقبة ، قالوا : (يا رسول الله ، إنا بُرَآءُ من ذِمَامِك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذِمَّتِنَا ، نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ منه أبناءنا و نساءنا) . فكأن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خاف أن لا ترى الأنصار عليها نصرتَه ، إلا ممن دَهَمَه بالمدينة من عدوه ، و أن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍ من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، قام سعد بن معاذ فقال له : (إيانا تريد يا رسول الله ؟ و الذي نفسي بيده ، لو أمرتنا أن نُخِيضَها البحر لأخضناها ، و لو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَاد لفعلنا) . فَسُرَّ رسولُ الله صلى الله عليه و آله و سلم بقول سعد ، و نَشَّطَهُ ذلك ، ثم قال : (سيروا على بركة الله ، و أبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، و الله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدا) .

فانطلَقوا حتى نزلوا بدرا قبل مجيء جيش المشركين ، و كان بدرٌ مَوْسِما من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوقُ كلِّ عام ، و بها بئر يستقي الناس منه ، فوجدوا رَوَايا قريشٍ الذين يحملون الماء إلى المشركين قد سبقوهم إلى البئر ، و فيهم غلام لبعض صناديد قريش ، فأخذه الصحابة ، فسألوه عن أبي سفيان و أصحابه ، فقال : (ما لي علم بأبي سفيان ، و لكن هذا أبو جهل ، و عتبة ، و شيبة ، و أمية بن خلف) . فإذا قال ذلك ضربوه ، فقال : (نعم ، أنا أخبركم ، هذا أبو سفيان) . فإذا تركوه فسألوه ، قال : (ما لي بأبي سفيان علم ، و لكن هذا أبو جهل ، و عتبة ، و شيبة ، و أمية بن خلف ، في الناس) . فإذا عاد إلى قوله هذا ضربوه ، و جعلوا يقولون له : (كم القوم) ؟ فيقول : (هم و الله كثير عددهم ، شديد بأسهم) . فجعل المسلمون إذا قال ذاك ضربوه ، و رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قائم يصلي ، فلما رأى ذلك انصرف ، فقال لأصحابه : (و الذي نفسي بيده ، إنكم

لتضربونه إذا صدقكم ، و تتركونه إذا كَذَبَكُم) . و سأله رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال له : (كم القوم) ؟ فقال : (هم و الله كثير عددهم ، شديد بأسهم) . فَجَهَدَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم على أن يخبرهم كم هم ، فأبى ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه و سلم سأله : (كم ينحرون) ؟ فقال : (عشرا كل يوم) ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (القوم ألف ، كلُّ جَزُور لمائة) .

و بُنِيَتْ قُبَّةٌ للنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالعُدْوَة الدنيا ، و هي أقرب مكان إلى طريق المدينة ، و كان المشركون بالعدوة القصوى مما يلي طريق مكة .

و قد التقى المشركون في طريقهم إلى بدر حذيفة بن اليمان و أباه ، متوجهين إلى بدر للقتال مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، بعد أن سمعوا بخروج المشركين ، فأخذوهما ، و قالوا لهما : (إنكم تريدون محمدًا) ؟ فقالا : (ما نريد إلا المدينة) . فأخذوا منهما عهد الله و ميثاقه أن ينصرفا إلى المدينة ، و لا يقاتلا مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فخالفا المشركين إلى رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأخبراه الخبر ، فقال لهما : (انصرفا ، نَفِي لهم بعهدهم ، و نستعينُ اللهَ عليهم) .

و لما أسدل الليل ستاره ، أوى الجميع إلى مضاجعهم ، و أصابهم في تلك الليلة طش من مطر ، فانطلقوا يختبئون تحت الشجر و التُّرُوس ، و أمضى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ جل الليل يصلي و يتضرع إلى الله و يناجيه ، و لما أخذ نصيب جسده من الراحة ، أراه الله في منامه أن عدد المشركين قليل ، ليثبته سبحانه و تعالى و يؤيدَه بذلك .

و لما طلع الفجر ، نادى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (الصلاة عباد الله) . فجاء الناس من تحت الشجر و الدروع التي كانوا يختبؤون تحتها ، فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و حرَّض بعدها على القتال ، و في تلك الأثناء كان عتبة بن ربيعة يدعو قريشا إلى الرجوع و ترك القتال ، فلم يأبهوا له ، و رموه بالجبن و الخوف ، و أبوا إلا المقاتلة ، و تقدم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ

حتى إذا تراءت الفئتان ، استقبل نبي الله صلى الله عليه و آله و سلم القبلة ، ثم مد يديه ، فجعل يهتف بربه ، و هو يَثِبُ في درعه و يقول : (اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تَهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبدْ في الأرض) . فما زال يهتف بربه ، مادا يديه مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فجاءه أبو بكر فأخذ رداءه ، و ألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، و قال : (يا نبي الله ، كفاك مناشدتُك ربَّك ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وعدك) ، و أنزل الله عز و جل : {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} . و جعل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يردد قوله تعالى : {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} . و صفَّ النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صحابته صفوفا متتالية ، و كانت رايتهم سوداء ، و لواءهم أبيض ، و أوصى جماعة من الصحابة بأن يرموا المشركين بالنَّبل إذا غشوهم ، و أن يُجْهِزُوا عليهم بعدها مسرعين ، و أمرهم أن لا يفعلوا شيئا دون إذنه ، و كان أبو جهل في تلك الأثناء يحرض الناس على القتال ، و يدعو الله بقوله : (اللهم أَيُّنا كان أَقطع للرحم ، و أتانا بما لا يُعْرَف فأَحْنِهِ الغداة) ، و كان يعَيِّر عتبةَ بن ربيعة بالجبن على تثبيط قومه عن القتال ، فقال له حينها عتبة : (ستعلم اليوم أينا الجبان) . ثم دعا أخاه شيبة و ابنه الوليد ، فخرج يمشي بينهما ، و دعا إلى المبارزة حَمِيَّةً ، فقال : (من يبارز) ؟ فخرج فتية من الأنصار ستة ، فقال عتبة : (لا نريد هؤلاء ، و لكن يبارزنا بنو عبد المطلب) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (قم يا علي ، و قم يا حمزة ، و قم يا عبيدةَ بنَ الحارثِ بْنِ الْمُطَّلِب) . فأقبل حمزة إلى عتبة ، و علي إلى شيبة ، فصرعاهما ، و اختلف عبيدة و الوليد ضربتين ، فأثخن كل واحد منهما صاحبه ، ثم مال علي و حمزة على الوليد ، فقتلاه ، واحتملا عبيدة ، و لما أن دنا المشركون ، قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض) . فتلاحم القوم ، و كان النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أقربَ المومنين إلى العدو ، و كان من أشد الناس يومئذ بأسا ، حتى كان الصحابة يلوذون به في ساحة

القتال ، و هكذا اشتد القتال ، و ما هي إلا لحظات ، حتى تفاجأ المشركون بقوةٍ غير طبيعية في تلك الفئة القليلة التي احتقرتها أعينهم ، إذا بهم أمام طاقة شبابية غيرِ مألوفة لديهم تصنع أمام أعينهم الأعاجيب ، و بقي أغلب الشيوخ عند الرايات ، و كلما اشتد القتال ، كلما كانت كفة النصر تميل شيئا فشيئا إلى جهة العصبة المومنة ، و أخذ المشركون يتساقطون صرعى الواحدُ تلوَ الآخَرِ ، إلى أن حَمَلُ شابٌّ اسمه معاذُ بنُ عمروِ بنِ الجموح على رئيس المشركين أبي جهل ، و كان في مَنَعَةٍ من الناس ، فقطع ساقه ، فأجهز على معاذٍ عكرمةُ بنُ أبي جهل ، فقطع دراعه ، فولى عنه ، ثم جاء إليه شاب آخرُ اسمه مُعَوِّذُ بْنُ عَفْرَاءَ فضربه حتى أثبتَه ، فتركه و به رمق .

و بعد موت أبي جهل ، لم تلبث المعركة كثيرا حتى حُسِمت لصالح العصبة المومنة ، و ما هي إلا لحظات حتى فر المشركون ، و أُدرِك سبعون منهم فأسروا ، و بدأ الصحابة يأتون بالأسرى ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أوصاهم أن يأسِروا بني عبد المطلب ؛ لخروجهم إلى بدر كارهين ، فجيء بالعباس بن عبد المطلب ، و عَقِيل بن أبي طالب ، و نوفل بن الحارث ، و جاء علي بعُقْبةَ بن أبي مُعَيط ، و أتى عبدُ الرحمن بن عوف بأمية بنِ خلف و ابنِه أَسِيرَيْن ، و كان بين عبد الرحمن و بين أمية كتاب ، بأن يحفظ كلٌّ منهما الآخرَ في بلده ، فرآه بلال معهما فصرخ بأعلى صوته : (يا أنصارَ الله ، رأس الكفر أُمَيَّةُ بن خلَف ، لا نجوتُ إن نجا) . فأحاطوا بهم ، و كان عبد الرحمن يذُبُّ عنهما ، فضرب رجلٌ ابنه فوقع ، و صاح أميّة صيحة عظيمة ، فهبرُوهما بأسيافهم ، و جاء الصحابة بسائر الأسرى ، و كان فيهم عقبة بن أبي مُعَيْط ، جاء به علي ، و خَيَّرَ اللهُ سبحانه و تعالى النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بين أن يقتلهم و بين أن يأخذ منهم الفداء ، على عكس ما كان مشروعا في الأمم السابقة ، حيث كان الأسر غير مشروع ، إلا بعد حصول التمكين لهم في الأرض ، و قد أراد الكثير من الصحابة أن يأخذ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من الأسرى الفداء ، فأباح الله تعالى لهم ذلك ، و أخبرهم تعالى أنه لو لم يبح لهم ذلك ، لعذبهم بأخذهم الفداء من المشركين ، فكان فداء كل واحد منهم أربعةَ

آلافِ درهم ، و أمر النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عليا أن يضرب عنق مجرم الحرب عقبةَ بنِ أبي مُعَيْط ، ثم أمر النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بدفن شهداء بدر ، و أن يُلَفُّوا في دماءهم ، و كانوا ثمانية عشر شهيدا ، و أمر بدفن أربعة و عشرين رجلا من صناديد قريش ، فقُذِفُوا في بير من آبار بَدْرٍ ، ثم قام النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على طرف البير ، فجعل يناديهم بأسمائهم و أسماء آبائهم : (يا فلان بن فلان ، و يا فلان بن فلان ، أَيَسُرُّكُم أنكم أطعتم الله و رسوله ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) ؟ فقال عمر : (يا رسول الله ، ما تُكَلِّمُ مِنْ أجسادٍ لا أرواح لها) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (و الذي نفس مُحَمَّد بيده ، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم) . [82]

الرجوع من بدر إلى المدينة بالأسرى

و بعد أن بقي النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في بدر ثلاثة أيام ، رجع إلى المدينة و معه الأسرى ، و كان في الأسرى أبو العاص بن الربيع ، زوج ابنته زينب ، و قدم النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة ، بعد وفاة ابنته رقية التي تركها قبل خروجه مريضة في عناية زوجها عثمان بن عفان ، فأخبره النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن له أجرَ رجل ممن شهد بدرا و سهمه . [83]

---

[82] [المائدة : 24][الأنفال : 1 ـ 5 ـ 19 ـ 42 ـ 49 ـ 68][الأنفال : 9][القمر : 45][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 607/1 ـ 609 ـ 618 ـ 631 ـ 632 ـ 635 ـ 676][مصنف عبد الرزاق الصنعاني / المكتب الإسلامي / ط 2 / 1403 هـ ـ 205/5][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 81/2 ـ 97 ـ 260 ـ 17/7 ـ 264/21 ـ 66/39 ـ 381/43][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 71/5 ـ 73 ـ 74 ـ 75 ـ 76 ـ 143/6][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1383/3 ـ 1403 ـ 1414 ـ 1449 ـ 1509][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - مُحَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 298/4 ـ 299 ـ 329][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 135/4 ـ 196][التفسير من سنن سعيد بن منصور / دار الصميعي / ط 1 / 1417 هـ ـ 218/5][كشف الأستار عن زوائد البزار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1399 هـ ـ 313/2][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 552/10 ـ 490/11][الجهاد لابن أبي عاصم / مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة / ط 1 / 1409 هـ ـ 517/2][صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 89/2 ـ 91 ـ 106 ـ 107][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 41/11 ـ 45 ـ 91][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 102/13 ـ 426/22][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 115/2 ـ 21/3 ـ 22 ـ 208 ـ 407][دلائل النبوة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 574/2 ـ 37/3 ـ 49 ـ 63 ـ 127][الإصابة في تمييز الصحابة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1415 هـ ـ 603/4][بحار الأنوار / مؤسسة الوفاء / بيروت / ط 2/ 1403 هـ ـ 301/19]

[83] [المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 240/3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 88/4]

و لما بدأ أهل مكة يبعثون بأموالهم في فداء أسراهم ، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في فداء أبي العاص بن الربيع ، بقلادة لها كانت لخديجة ، أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، رَقَّ لها رِقَّةً شديدة ، و قال : (إن رأيتم أن تُطْلِقُوا لها أسيرها ، و تردوا عليها الذي لها ، فافعلوا) . فقالوا : (نعم يا رسول الله) ، فاشترط عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يخلي سبيل زينب إليه ، و بعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم زيد بن حارثة و رجلا من الأنصار ، فقال : (كونا ببطن يأجِجَ حتى تمر بكما زينب ، فتصحباها حتى تأتيا بها) . فلما قدم أبو العاص مكةَ ، أمرها باللحوق بأبيها فخرجت مهرة . [84]

و هكذا افتدى أهل مكة أسراهم ، الواحد تلو الآخر ، و أما الأسرى الذين لم يكن لهم فداء ، فقد جعل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فداءهم : أن يُعَلِّمُوا أولاد الأنصار الكتابة . [85]

ما بعد الانتصار

و هكذا لم يَزْدَدِ الإسلام في أعقاب تلك المعركة إلا قوة و عزة و مَنَعَة ، أَهَمَّتْ إلى حد كبير قلوب مشركي المدينة و أهل الكتاب الذين تيقنوا أن الإسلام يسير في منحى من شأنه أن يشكل خطرا على عقائدهم ، فانقسم موقف أعداء الدين إلى قسمين ، منهم من فضل إظهار الإسلام و إبطان الكفر ، عساه يحقن بذلك دمه ، و ينال من فوائد الإسلام ما لا يحصل عليه بكفره ، و لأن ذلك أقوى في الكيد للإسلام من إعلان الكفر ، و كان من بين هؤلاء : عبد الله بن أبي بن سلول ، الذي قال بعد انتصار بدر : (هذا أمر قد تَوَجَّه) . فبايع هو و من كان معه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على الإسلام . [86]

---

[84] [سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 328/4][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 426/22]
[85] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 92/4]
[86] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 39/6]

و منهم من أبى الدخول في الإسلام ، و كان بعض وجوه هؤلاء يعلن بين الحين و الآخر عداوته الصريحة للإسلام و للنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .

و كان من هؤلاء : كعبُ بن الأشرفِ الذي كان يَهجُو النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله و سَلَّمَ و يُحرِّضُ عليه كفارَ قريشٍ ، فلما أكثر من ذلك ، قال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (من لكعب بن الأشرف ، فإنه قد آذى الله و رسوله) . فقال مُحَمَّد بن مسلمة : (أتحب أن أقتله يا رسول الله) ؟ فقال : (نعم) . فاستأذن النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في أن يوهمه بأنه يبغض النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأذن له في ذلك ، فأوهمه ذلك حتى إذا استمكن منه قتله .[87]

غزوة بني النضير سنة 624 م

لقد تركت عمليةُ اغتيال كعب بن الأشرف أثرها البالغَ العميق في صدور من تُسَوِّلُ له نفسه الاعتداء على الإسلام ، و فزعت اليهود ، و من كان معهم من المشركين ، و غدوا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم حين أصبحوا ، فقالوا : (قد طُرِقَ صاحبنا الليلة ، و هو سيد من ساداتنا ، فقتل غِيلَةً) . فذَكَرَ لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الذي كان يقول في أشعاره و يؤذيهم به ، و دعاهم صلى الله عليه و آله و سلم أن يكتب بينهم و بين المسلمين عامةً صحيفةً ، فيها جامعُ أمرِ الناس ، فكتبها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم .[88]

غير أن التزام اليهود بهذه الوثيقة لم يدم طويلا ، حيث إن قريشا راسلت مرة أخرى اليهود تهددهم بما يسوءهم إن لم يقاتلوا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأجمعت بنو النضير بعد مرور ستة أشهر من غزوة بدر على الغدر بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنْ يَخْرُجَ إليهم في ثلاثة من أصحابه ؛ لمقابلة ثلاثةٍ من أحبار اليهود ، على أنهم إن صدقوه و آمنوا به ،

---

[87] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 64/4][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - مُحَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 614/4]

[88] [المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 76/19]

آمن به جميع اليهود ، فخرج النبي صلى الله عليه و آله و سلم في ثلاثة نفر من أصحابه ، و استعدَّ اليهود للفتك برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فأرسلت امرأةٌ ناصحةٌ من بني النضير إلى بني أخيها المسلمين من الأنصار ، فأخبرتهم بما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فأقبل أخوها سريعا ، حتى أدرك النبيَّ صلى الله عليه و آله و سلم ، فسارَّه بخبرهم قبل أن يصل صلى الله عليه و آله و سلم إليهم ، فرجع النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، حتى إذا كان من الغد ، صَبَّحَهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالكتائب فحاصرهم ، و قال لهم : (إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه) . فأبَوا أن يُعطوه عهدا ، فقاتلهم يومهم ذلك هو و المسلمون ، ثم غدا الغدَ على بني قريظة بالخيل و الكتائب ، و ترك بني النضير و دعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب ، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء من منازلهم ، وعلى أن لهم ما أَقَلَّتِ الإبل إلا السلاح ، فاحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم ، و أبوابِ بيوتهم و خشبها ، فكانوا يخربون بيوتهم ، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها ، و كان جلاؤهم ذلك أولَ حشر الناس إلى الشام ، و كان بنو النضير مِنْ سِبْطٍ من أسباط بني إسرائيل ، لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاء ، فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا ، و أعطى الله نخل بني النضير لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و خصه بها بغير قتال ، فأعطى النبي صلى الله عليه و آله و سلم أكثرها للمهاجرين ، و قسمها بينهم ، و لرجلين من الأنصار ، كانا ذوي حاجة ، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما ، و بقي منها صدقةٌ لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في يد بني فاطمة .[89]

[89] [الحشر: 1 ـ 7][مصنف عبد الرزاق الصنعاني / المكتب الإسلامي / ط 2 / 1403 هـ ـ 358/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1387/3][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 467/6][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 525/2]

الزواج بحفصة

و بعد أن تأيمت حفصة بنت عمر بن الخطاب من خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ ، أتى عمرُ عثمانَ بن عفان ، فعرض عليه الزواج بحفصة ، فقال له : (سأنظر في أمري) . فلبث ليالي ثم لقيه ، فقال : (قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا) . فلقي عمر أبا بكر ، فقال له : (إن شئتَ زوجتك حفصة بنت عمر) . فصَمَتَ أبو بكر ، فلم يَرْجِعْ إليه شيئا ، و كان عمرُ أَوْجَدُ عليه من عثمان ، فلبث لياليَ ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فأنكحها إياه ، فلقيه أبو بكر فقال له : (لعلك وَجَدْتَ علي حين عرضتَ عليَّ حفصة ، فلم أَرجِعْ إليك شيئا) ؟ فقال عمر : (نعم) . فقال له أبو بكر : (فإنه لم يمنعني أن أَرجع إليك فيما عرضت علي ، إلا أني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لو تركها رسول الله صلى الله عليه و سلم قبِلْتُهَا) . [90]

زواج علي بفاطمة

و أراد أبو بكر و عمر أن يتزوجا فاطمة ، فأمرهما النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأن ينتظرا القضاء الذي قُدِّرَ لها في الأزل ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ينتظر بها عليا ، فجاءه سيدنا علي يخطبها إليه ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و كانت لرسول الله صلى الله عليه و سلم جلالة و هَيْبَةٌ عند علي فريدة ، فلما قعد بين يديه ، أُفْحِمَ ، و ما استطاع أن يتكلم . فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما جاء بك ، ألك حاجة) ؟ فسكت ، فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لعلك جئت تخطب فاطمة) ؟ فقال : (نعم) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فهل عندك من شيء تستحلها به) ؟ فقال : (لا

---

[90] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 83/5 ـ 13/7 ـ 14][شرح مشكل الآثار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1415 هـ ـ 10/9]

و الله يا رسول الله) . فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (ما فعلَتْ الدِّرْعُ التي سَلَحْتُكَهَا) ؟ فقال : (عندي و الذي نَفْسُ عليٍّ بيده ، إنها لَحُطَمِيَّةٌ (عريضة ثقيلة) ، ما ثمنُها أربعمائة درهم (980 غ فضة) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (قد زَوَّجْتُكَهَا ، فابعث بها) .

و قالت أسماء ابنة عميس : (لما أُهْدِيتْ فاطمة إلى علي لم نجد في بيته إلا رملا مبسوطا ، و وِسادةً حَشْوُهَا لِيفٌ ، وَ جَرَّةً وَ كُوزًا ، فأرسل النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى علي : (لا تَقْرَبَنَّ أهلك حتى آتيَك) . فجاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال : (أَثَمَّ أخي) ؟ فقالت أم أيمن : (يا نبي الله ، هو أخوك و زوجتُه ابنتُك) ؟ فقال : (إن ذلك يكون يا أم أيمن) . فدعا النبي صلى الله عليه و آله و سلم بإناء فيه ماء ، فقال فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم نَضَحَ على صدر علي و وجهِه ، ثم دعا فاطمة ، فقامت إليه تَعْثُرُ في مِرْطِهَا من الحياء ، فنضح عليها من ذلك الماء ، و قال لها ما شاء الله أن يقول ، ثم قال لها : (أما إني لم آلُكِ ، أَنْكَحْتُكِ أحبَّ أهلي إلي ، سيدا في الدنيا ، و سيدا في الآخرة ، لا يبغضه إلا كل منافق) . ثم قال لعلي : (دونك أهلك) . ثم خرج فولى ، قالت : (فما زال يدعو لهما ، حتى توارى في حُجَرِهِ) . [91]

غزوة أحد سنة 625 م

و في السنة الثالثة من الهجرة المحمدية ، فوجئ المسلمون بنزول جيش المشركين أُحُدًا ، و قد رأى النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبل ذلك رؤيا ، تدل على وقائع المعركة ، و فيها أن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رأى نفسه في دِرْعٍ حصينة ، و هي في التاويل : المدينة ، و كأنها تعني أن انتظارهم للمشركين في المدينة خير من الخروج إليهم ، و رأى كَسْرًا في سيفه ذي الفَقَار ، و المقصود من ذلك :

[91] [المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 62/6][الطبقات الكبرى / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1410 هـ ـ 16/8][فضائل فاطمة لابن شاهين / دار ابن الأثير / الكويت / ط 1 / 1415 هـ ـ ص 26 ـ 47][الذرية الطاهرة / الدار السلفية / ط 1 / 1407 هـ ـ ص 63][مصنف عبد الرزاق الصنعاني / المكتب الإسلامي / ط 2 / 1403 هـ ـ 485/5]

وقوع المسلمين في هزيمةٍ ما أثناء المعركة ، و رأى أنه يسوق كبشا ، و المقصود : قتل سيد جيش المشركين ، و رأى بقرا تذبح ، و هي كما سيأتي ضحايا الحرب من المسلمين .[92]

فدعا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صحابته بعد أن بلغه خبرُ قريش ، و كان رأي النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها ، للرؤيا التي رآها في منامه ، غير أن مجموعة من الصحابة الذين تخلفوا عن بدر ، أشاروا عليه بالخروج ، فأخذ برأيهم ، و بعد أن لبس لامَتَه ، ندموا لمخالفة رأي النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقالوا له : (يا رسول الله ، أقم فالرأي رأيك) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها ، حتى يحكم الله بينه و بين عدوه) ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يريد أن يعلمهم أن الانتداب للجهاد في سبيل ، يوجب إتمامه إلى آخر مراحله .[93]

و أخذ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في الاستعداد للقتال ، و تجهيز الجيش للخروج ، و كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يرد من كان في سن الأربعة عشر ، كابن عمر و من كان في سنه .[94]

و ترك النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خلفه جماعة من الصحابة يَحْمُون المدينة ، و يحرسون من كان فيها من أي هجوم محتمل .[95]

و كان من جملة من خرج مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مجموعة من النساء ، فيهن السيدة فاطمة و عائشة و أم سليم ، من أجل مداواة الجرحى ، و إسعاف المقاتلين بالماء و الدواء .[96]

و خرج المسلمون رافعين راية سوداء ترفرف في السماء ، حتى إذا كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ببعض الطريق ، قرر ناس ممن خرج معه الرجوع إلى

[92] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 259/4 ـ 217/39]
[93] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1512/3][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 141/2]
[94] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 107/5]
[95] [المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 222/3]
[96] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 33/4 ـ 34 ـ 37/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1416/3]

المدينة ، فقيل لهم : {تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا} يعني : الأعداءَ بتكثيركم سواد المسلمين . فقالوا : {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ} . فأنزل الله تعالى على نبيه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ اَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلايمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} .[97]

و كان أصحابُ النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيهم فِرقتين : فرقةً تقول : نقاتلهم ، و فرقةً تقول : لا نقاتلهم ، فنزلت : {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنَ اَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} ، أي : ما لكم انقسمتم فئتين في المنافقين ؟ لا ينبغي أن تختلفوا في ضلالهم ، و قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد أن أنزلت الآية : (إنها طَيْبَة تنفي الْخَبَثَ كما تنفي النارُ خَبَثَ الفضة) .[98]

و قد يراد من قول النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هذا : أن نيران الشدائد تكشف أحوال المنافقين ، كما قال تعالى بعد هذه الحادثة : {وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُومِنِينَ (166) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا} ، و قال تعالى : {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُومِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} .[99]

و مهما يكن من أمر ، فقد كاد أن يوهن رجوعُ أولئك المنافقين من عزيمة طائفتين من الأنصار ، ممن خرج مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و هما بنو سلمة و بنو حارثة ، لولا تدخل العناية الإلهية من خلال شحذ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِهِمَمِ المقاتلين ، و تقوية عزائمهم ، و تبشيرهم بتأييد الله لهم {بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ} ، فأنزل الله عليه : {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَاتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا} الذي فارَ فيه غضبهم ؛ انتقاما ليوم بدر ، فَوَرَانَ الْقِدْرِ عِنْدَ غَلَيَانِها {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى

[97] [آل عمران : 167]
[98] [النساء : 87][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 96/5][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 196/4]
[99] [آل عمران : 166 ، 167 ، 179]

لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} .[100]

و لما وصل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أسفلَ جبل عَيْنَيْن و هو جبلٌ بينه و بين أُحُدٍ وادٍ ، أخذ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يعطي لكل مقاتل موضعه و مهمته ، و جعل صلى الله عليه و آله و سلم على الرماة عبدَ الله بن جبير ، و قال للرماةِ : (احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا تَخَطَّفُنَا الطيرُ ، فلا تبرحوا مكانكم هذا ، حتى أرسل إليكم ، و إن رأيتمونا هَزَمْنا القومَ و أوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم) .[101]

و كان الدعاء قبل المعركةِ أحدَ أهم الأشياء التي كان المسلمون يتهيؤون بها لملاقاة العدو ، فأخذ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المسلمون يدعون ، و من عجيب ما سطرته لنا كتب الحديث من ذلك : دعاء عبد الله بن جحش قبل المعركة ، حيث نَدَبَ سعدَ بن أبي وقاص إلى أن يدعوا الله تعالى ، فدعا سعد بقوله : (يا رب إذا لقِينا القوم غدا ، فَلَقِّنِي رجلا شديدا بأسُه شديدا حَرْدُهُ ، فأقاتله فيك و يقاتلني ، ثم ارزقني عليه الظَفَرَ حتى أقتلَه ، و آخُذَ سَلَبَه) ، فأَحَبَّ عبدُ الله بن جحش أن يَسْمُوَ بسعد إلى أعلى مراتب الإخلاص ، فدعا أمامه بقوله : (اللهم ارزقني غدا رجلا شديدا حَرْدُه ، شديدا بأسه ، أقاتله فيك و يقاتلني ، ثم يأخذني فيجدَعُ أنفي و أذني ، فإذا لقيتك غدا قلتَ : يا عبد الله فيم جُدِعَ أنفُك و أذنُك ؟ فأقول : فيك و في رسولك) .[102]

فلما تصافَّوا للقتال ، خرج أحد شجعان قريش ، و هو سِبَاع بن عبد العُزَّى الخزاعي فقال : (هل من مبارز) ؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فقال : (يا

[100] [آل عمران : 124 - 127][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 38/6]
[101] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 65/4 ـ 78/5 ـ 100][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 369/4]
[102] [المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 86/2][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1363/3]

سباع ، أَتُحَادُّ اللَّهَ و رسوله صلى الله عليه و آله و سلم) ؟ ثم شد عليه ، فكان كأمْسِ الذاهِبِ .[103]

ثم أخذ النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سيفا فقال : (من يأخذ مني هذا) ؟ فبسطوا أيديَهُم ، كل إنسان منهم يقول : (أنا) ، (أنا) ، فقال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فمن يأخذه بحقه) ؟ فأحجم القوم ، فقال سِمَاكُ بن خَرَشَةَ أبو دُجَانَةَ : (أنا آخذه بحقه) . فأخذه .[104]

و ما هي إلا لحظات قلائل حتى الْتَحَمَتِ الصُّفُوفُ ، و تَشَابَكَتِ السُّيُوفُ ، و كان النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يُشْرِف من قُبَّتِه يُوَجِّه المقاتلين ، و يَشْحَذُ هممهم ، و يرفع معنوياتهم ، و بالرغم من انتعاش الصحابة بإشراف النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من قبته ، إلا أنه كان يشق عليهم إشرافه خوفا عليه من أن تصيبه سهام المشركين ، فكان أبو طلحة يقول له إذا أشرف : (يا نبي الله ، بأبي أنت و أمي ، لا تشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نَحْرِي دون نحرك) .[105]

و كان بعض الصحابة يشاهد غير ما يشاهده الآخرون ، فكان سعد بن أبي وقاص يرى ملكين بشمال النبي صلى الله عليه و آله و سلم و يمينه ، عليهما ثياب بيض ، ما رآهما قبلُ و لا بعد .[106]

و استعمل المشركون النار في قتال المسلمين ، فكان أحد المشركين يحرق المسلمين بالنار ، فلما أكثر من ذلك ، أمر النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سعد بن أبي وقاص أن يرميه و قال له : (ارم فداك أبي و أمي) . فنزع له سعدٌ بسهم ليس فيه نصل ، فأصاب جنبه فسقط ، فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى بدت نواجذه .[107]

---

[103] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 100/5]
[104] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1917/4]
[105] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 39/4 ـ 37/5]
[106] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 149/7]
[107] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1876/4]

و لما اشتد القتال ، و بلغت المعركة أَوُجَّهَا ، أخذ المشركون يتراجعون شيئا فشيئا ، و بدأت الهزيمة تلوح في صفوف المشركين ، حتى صاروا يفرون جماعاتٍ و أشتاتا ، ليتقدم على إثر ذلك المسلمون المشاة إلى مواقع المشركين ، و شرعوا في سلب المشركين و جمع غنائمهم ، بينما كان الرماة حينئذ في أَخْذٍ و رَدٍّ مع قائدهم عبد الله بن جبير ، حول النزول لأخذ الغنائم ، فكانوا يحاولون إقناع عبد الله بن جبير بزوال السبب الذي أمروا بلزوم أماكنهم من أجله ، و كان عبد الله بن جبير مُصِرًّا على ضرورة امتثال أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، إلا أنهم أبوا في آخر المطاف إلا عصيانَ أمرِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فتركوا مواقعهم التي أمرهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بلزومها ، و هبُّوا جميعا إلى جمع الغنائم ، و لما اطمأن الجميع إلى ما هم فيه ، و ظنوا أنهم قد انتصروا على عدوهم ، و اجتمعوا جميعا في ساحة المعركة ، إذا بهم يفاجؤون بخيل المشركين تُجْهِزُ عليهم بغتةً من قِبَلِ مواقع الرماة التي تركوها خلفهم ، ففزع لذلك المسلمون ، و أخذوا يركضون في كل اتجاه ، فاختلط بعضهم ببعض ، و اشتبكوا مع بعضهم ، و ضرب بعضهم بعضا بالسيوف ، و انجلى المسلمون عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا ، و قُتِلَ مِنَ المسلمين عندئذ ناس كثير .

و كان من بين القتلى : أبو حذيفة ابنُ اليمان الذي راح ضحية سيوف إخوانه الذين حلت بهم الفوضى ، و صاروا لا يفرقون بين الصديق و العدو ، و كان غلامُ جُبَيرِ بْنِ مُطْعِم : وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ ، الذي وعده جبيرٌ الحرية إن هو قتل حمزة ، يتربص بحمزة ، و يتَبَصَّرُه مِنْ بداية المعركة ، و يتحين الفرصة لرميه بحربته ، و بينما هو يتهيأ لذلك ، و هو يشاهد حمزة مثل الجمل ، يَهُدُّ المشركين بسيفه هَدًّا ، ما يقوم له شيء ، إذا بمشرك يتقدم إليه ، ليضربه حمزة ضربةً طار بها رأسه ، فاغتنم وحشيٌّ آخِرَ المواجهة بينهما ، فرماه على إثرها بحربته ، التي وقعت في أسفل بطنه ،

حتى خرجت من بين رجليه ، فلما رآه حمزة ، أقبل عليه بسيفه خطواتٍ ، إلا أنه غُلِبَ فسقط أرضا .[108]

و في تلك الأثناء التي كان كثير من المسلمين يتخبطون فيها خبط عشواء ، كان اثنا عشر صحابيا حول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يحرسونه ، فيهم طلحة بن عبيد الله ، فأدركهم المشركون ، و أحاطوا برسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من كل جانب ، فلم يزل أولئك النفر يقاتلون دون النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى قُتِلُوا جميعا ، و لم يبق مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلا طلحة بن عبيد الله ، فكان يقاتل قتال الأسود ، حتى ضُرِبت يدُ طلحة ، فقطعت أصابعه ، و أجهز المشركون عليهما ، و صرخ صارخ : (ألا إن مُحَمَّدا قتل) ، فأذهلت هذه الصيحة كثيرا من المسلمين ، و أضعفت معنوياتهم في المعركة ، و ولى الكثير منهم على أعقابهم مدبرين ، منهم عثمان بن عفان ، و سعد بن عثمان ، و عقبة بن عثمان ، و قال المنافقون حينها : {هَلْ لَنَا مِنَ الامْرِ مِنْ شَيْءٍ ،،، لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الامْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا} ، فأنزل الله تعالى على نبيه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} . و أمّا بقية الصحابة ، ففضلوا الموت على حياةٍ ليس فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فكانوا يقاتلون قتال الأسود لا يثنيهم عن القتال شيء ، منهم : سعد بن أبي وقاص و أنس بن النضر الذي استُشْهِد بعد قتال عنيف ، و منهم عليٌّ الذي أخذ يبحث في القتلى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فلم يجده ، فقال : (و الله ما كان ليفر ، و ما أراه في القتلى ، و لكن أرى اللهَ غضب علينا بما صنعنا فرفع نبيَّه صلى الله عليه و آله و سلم ، فما فيَّ خير من أن أقاتل حتى أُقْتَلَ) . فَكَسَر غِمْدَ سيفِه ، ثم حَمَلَ على المشركين فأفرجوا له ، فإذا به برسول الله صلى الله عليه و آله

[108] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 65/4 ـ 136/8][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 369/4][مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / مكتبة القدسي / 1414 هـ ـ 110/6][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 71/2 ـ 72][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 415/1]

و سلم بينهم ، قد جُرح وجهه ، و كُسِرَتْ رباعيته ، و كسرت الْخُوذَةُ التي كان يغطي بها رأسه ، و كان على كتفه الشريفة جُرْحٌ مِنْ رَمْيَةٍ رماهُ بها المشركون ، و كان مِنْ بين مَنْ عَرَفَ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كعب بن مالك الذي قال : (عرفت عينيه تَزْهَرَانِ من تحت الْمِغْفَرِ ، فناديت بأعلى صوتي : (يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) ، فأشار إليه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يصمت ، حتى إذا عرف المسلمون رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم نهضوا به إلى الجبل ، و كان فيهم أبو بكر و عمر بن الخطاب ، و علي بن أبي طالب ، و طلحة بن عبيد الله ، و الزبير بن العوام ، و الحارث بن الصِّمَّة ، في رهط من المسلمين ، فلما أُسْنِدَ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، أدركه أُبيُّ بنُ خلف و هو يقول : (أين يا مُحَّد ، أين يا مُحَّد ، لا نجوتُ إن نجوتَ) ، فقال القوم : (أَيَعْطِفُ عليه يا رسول الله رجل منا) ؟ فقال : (دعوه) . فلما دنا تناول رسولُ الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْحِربة من الحارث بن الصِّمَّة ، فانتفض بها انتفاضةً تطاير عنه بها الصحابةُ تطايُرَ الشَّعْرِ من ظهر البعير إذا انتفض ، فطعنه بها طعنةً تردَّى بها عن فرسه ، فحمله أصحابه فاستفردوه فقالوا : (ما نرى بك بأسا) . فقال : (إنه قد استسقى اللهَ دمي ، إني لأجد لها ما لو كان على مضر و ربيعة لوَسِعَهُمْ) . و في تلك الرمية أنزل الله قوله : {وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [109] .

و بعد أن أصابت حِرْبَةُ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أحدَ كبار زعماء الكفر ، تراجع جيش الشرك ، و اجتمع الصحابة حول رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأعلى الجبل ، و خمدت المعركة ، ثم لم يلبث أن رجع كل جيش إلى معسكره ، و أخذ يشتغل كل جيش بجرحاه و قتلاه ، و كانت عائشة و أم سليم و

[109] [آل عمران : 153 ـ 154 ـ 155][الأنفال: 17][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 95/5 ـ 97][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1415/3 ـ 1512][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 29/3][سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 330 ـ 331 ـ 332][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 415/1][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 220/4][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 29/6][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 220/4][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 227/5]

أم سَلِيط في تلك الأثناء تداوين الجرحى ، و تُسْعِفْنَ المقاتلين بالماء و الدواء ، و كانت السيدة فاطمة تغسل الدم عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و كان علي يسكب لها الماء بالْمِجَنِّ ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة ، أخذت قطعةَ حصير ، فأحرقته حتى صار رمادا ، ثم ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدم .[110]

و بعد مضي برهة من الزمن ، سمع المسلمون أبا سفيان ينادي في أسفل الجبل و يقول : (أفي القوم مُحَمَّد) ؟ ثلاث مرات ، فنهاهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن إجابته ، ثم قال : (أفي القوم ابنُ أبي قحافة) ؟ ثلاث مرات ، ثم قال : (أفي القوم ابن الخطاب) ؟ ثلاث مرات ، ثم رجع إلى أصحابه فقال : أمَّا هؤلاء ، فقد قُتِلوا ، فما ملك عمر نفسه ، فقال : (كَذَبْتَ و الله يا عدو الله ، إن الذين عددت لأحياء كلهم ، و قد بقي لك ما يسوءك) . فقال أبو سفيان : (يوم بيوم بدر ، الأيام دول ، و إن الحرب سجال) . فقال له عمر بن الخطاب : (لا سواء ، قتلانا في الجنة ، و قتلاكم في النار) . فقال أبو سفيان : (إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خبنا إذن و خسرنا) . ثم أخذ أبو سفيان يرتجز و يقول : (اعْلُ هُبَلْ ، اعْلُ هُبَلْ) . فأمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صحابته أن يجيبوه بقولهم : (الله أعلى و أجل) . فقال أبو سفيان : (إن لنا العُزَّى و لا عُزَّى لكم) ، فأمرهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يجيبوه بقولهم : (الله مولانا ، و لا مولى لكم) .[111]

و بعد أنِ انصرف المشركون من أرض المعركة في آخر النهار ، خاف النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يرجعوا فقال لصحابته : (من يذهب في إِثْرِهِمْ) . فانتُدِبَ منهم سبعون رجلا ، ثم أقبل المسلمون يتفقدون شهداءهم ، و وقف رسول الله صلى الله عليه و سلم على قتلى أحد فقال : (اشهدوا لهؤلاء الشهداء عند الله عز و جل يوم القيامة ، فأْتُوهم و زُورُوهم و سَلِّمُوا عليهم ، فوالذي نفسي بيده لا

[110] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 33/4 ـ 34 ـ 37/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1416/3][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 324/2]

[111] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 65/4][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 370/4]

يُسَلِّمُ عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا رَدُّوا عليه) . و كان عدد من أصيب من الأنصار أربعة و ستون رجلا ، و من المهاجرين ستة ، و وجد المسلمون جثث بعض القتلى قد شُوِّهَتْ و مُثِّلَ بها ، كجثة حمزة ، و جثة عبد الله بن جحش الذي وُجِدَ على الهيئة التي دعا اللّهَ قبل المعركة أن يكون عليها ، ثم أخذ المسلمون يكفنون شهداءهم ، و استكثر الصحابة عدد القتلى ، فشكَوْا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ التَّعَبَ و الْجِرَاحَ و قِلَّةَ الثياب ، فأمرهم أن يكفنوا الرجل و الرجلين و الثلاثة في الثوب الواحد من غير تغسيل ، و أن يحفروا لهم قبرا واحدا ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يصلي عليهم أفواجا ، و كان بعض المسلمين قد أخذوا قتلاهم إلى المدينة ليدفنوهم بها ، فأمرهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يَرجعوا بالقتلى ، فيدفنوهم في مصارعهم حيث قُتِلُوا .[112]

و ما إن وصل خبر الهزيمة التي أصابت النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة ، حتى أطلق المنافقون ألسنتهم بالتشفي في النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المسلمين ، فكانوا يقولون : {لَوَ اَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} . فأنزل الله تعالى على نبيه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : {قُلْ فَادْرَءُوا عَنَ اَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168) وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُومِنِينَ} .[113]

و بين الله تعالى سبب فشل المسلمين في تلك المعركة ، و أنَّبَ العصاة منهم بقوله : {وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي

---

[112] [مسند ابن الجعد / مؤسسة نادر / ط 1 / 1410 هـ ـ ص 432][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 34/3][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 326/3 ـ 213/4 ـ 299/5][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 372/7][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 519/1 ـ 86/2 ـ 216/3 ـ 218][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 91/2 ـ 102/5][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 18/4 ـ 20][شرح معاني الآثار / عالم الكتب / ط 1 / 1414 هـ ـ 503/1][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 457/7]

[113] [آل عمران : 168 - 172]

الامْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُومِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} . و لما أنزل الله تعالى هذه الآية قال ابن مسعود : (مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ مِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَوْمَئِذٍ أَحَدًا يُرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى قَالَ اللَّهُ مَا قَالَ) .[114]

محاولة اغتيال النبي

و كان من بين الجرحى في صفوف المشركين الذين أثخنتهم الجراحة في غزوة أحد : وَهْبُ بْنُ عُمَيْرٍ الذي كان في القتلى ، حتى إذا دخل الليل و أصابه البرد ، خف ما به ، فلحق بمكة ، فَبَرَأَ فاجتمع هو و صفوان بن أمية في الْحِجْر فقال وهب : (لولا عيالي و دَيْنٌ علي لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل مُحَمَّدا) . فقال له صفوان : (فكيف تصنع) ؟ فقال : (أنا رجل جواد لا أُلْحَقُ ، آتيه فأغتره ، ثم أضربه بالسيف ، فألحق بالخيل ، و لا يلحقني أحد) . فقال له صفوان : (فعيالك مع عيالي ، و دينك علي) . فخرج يَشْحَذُ سيفه و سَمَّهُ ، ثم خرج إلى المدينة لا يريد إلا قتل النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فلما قدم المدينة رآه عمر بن الخطاب ، فشق عليه ذلك فقال لأصحاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (إني رأيت وهبا ، فرابني قدومه ، و هو رجل غادر ، فأَطِيفوا نبيَّكم) . فأطاف المسلمون بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فجاء وهب ، فوقف على النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال : (أَنْعِمْ صباحا يا مُحَمَّد) . فقال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (قد أبدلنا الله خيرا منها) . فقال : (عهدي بك تحدث بها و أنت معجب) . فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (ما أقدمك) ؟ قال : (جئت أفدي أَسَارَاكم) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما بال السيف) ؟ قال : (أَمَا إنا قد حملناه يوم بدر ، فلم نفلح و لم ننجح) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فما شيء قلت لصفوان في الْحِجر :

[114] [آل عمران : 152 ، 153][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 141/6]

لولا عيالي و دَيْنٌ علي لكنت أنا الذي أقتل مُحَّدا بنفسي) ؟ فقال وهب : (هاه ، كيف قلت) ؟ فأعاد عليه ، فقال وهب : (قد كنتَ تُخْبِرُنا خبرَ أهل الأرض فنكذبك ، فأراك تخبر خبر أهل السماء ، أشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله) . ثم رجع إلى مكة مسلما . [115]

سرية استطلاع تُقْتَلُ بالرجيع

و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يبعث باستمرار سرايا الاستطلاع التي تنبئه عن نشاط العدو و تحركه ، و كانت من تلك السرايا : سرية عاصم بن ثابت الأنصاري الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في عشرة رهْط ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالرَّجِيع ، و هو مكان بين عُسْفَان و مكة ، ذكروا لحي من هُذَيلٍ ، يقال لهم : بنو لِحْيَان ، فَنَفَروا لهم بقريب من مائتي رجل ، كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم ، حتى أتوا منزلا نزلوه ، فوجدوا فيه نَوى تمر تزودوه من المدينة ، فقالوا : (هذا تمر يثرب) . فاتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما أحسهم عاصم و أصحابه ، لجئوا إلى مكان مرتفع فأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : (انزلوا ، و أعطونا بأيديكم ، و لكم العهد و الميثاق أن لا نقتل منكم أحدا) . فقال عاصم بن ثابت أمير السرية : (أمَّا أنا فوالله لا أنزل في ذِمَّة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك صلى الله عليه و سلم) . فَرَمَوْهم بالنَّبْل ، فقتلوا عاصما في سبعة ، و نزل إليهم ثلاثة نفر على العهد و الميثاق ، منهم خُبَيْبٌ الأنصاري ، و زيد بن الدَّثِنَة ، و رجل آخر ، فلما تمكنوا منهم حلوا أوتار قِسِيِّهِم ، فربطوهم بها ، فقال الرجل الثالث : (هذا أول الغدر ، و الله لا أصحبكم ، إن لي بهؤلاء القتلى لأسوة) . فَجَرُّوه و عالجوه ، فأبى أن يصحبهم ، فقتلوه ، فانطلقوا بخبيب و زيد بن الدَّثِنَة حتى باعوهما بمكة ، و بعث ناس من كفار قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثُوا أنه قُتِل ، ليأتوا بشيء منه يعرف ، و كان قد قَتَلَ رجلا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله على عاصم مثل الظلة من الدَّبْر ، فحمته من

[115] [المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 61/17]

رسلهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا ، و ابتاع بنو الحارث بن عامر خُبَيْبًا ، و كان خبيب قد قتل الحارث بن عامر بن نوفل يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا ، حتى أجمعوا قتله ، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب : (دعوني أركع ركعتين) . فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : (و الله لولا أن تظنوا أن ما بي جزع من القتل لطولتها) . ثم قال : (اللهم أَحْصِهِم عددا ، و اقتلهم بَدَدا ، و لا تُبْقِ منهم أحدا) . ثم أنشأ يقول :

فلست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان لله مصرعي
و ذلك في ذات الإله و إن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سِرْوَعَة ، عُقبة بن الحارث ، فقتله ، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد أخبر أصحابه خبرهم يوم أصيبوا .[116]

عامر بن الطُّفَيْل بن مالك يهدد

و على إثْرِ فاجعة الرجيع التي أَلَمَّتْ بالمسلمين ، أَغْرَتْ هذه العمليةُ الخسيسةُ قبائلَ من العرب على النيل من سرايا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و الجرأةِ على تهديد دولة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقد أتى عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ إلى النبي صلى الله عليه و سلم بالمدينة بعد أن أعطاه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الأمان فقال للنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أُخَيِّرُكَ بين ثلاثِ خِصَال : أن يكون لك أهل البوادي و لي أهل المدن ، و أكونَ خليفتَك من بعدك ، أو أغزوَك بِغَطَفَان) . ثم انصرف على ذلك .[117]

[116] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 67/4 ـ 78/5 ـ 103][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 308/13 ـ 460]

[117] [السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 377/9][التاريخ الكبير مع حاشية الشيخ محمود مُحَّد خليل / دائرة المعارف العثمانية ـ 326/8][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 105/5]

ميثاق مع قبيلة بني عامر

و على عكس موقف عامر بن الطفيل قدم عَامِرُ بْنُ مَالِكِ أَبُو الْبَرَاءِ الذي يُلَقَّبُ بـ : (مَلَاعِبُ الْأَسِنّةِ) بعد حادثة الرجيع على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ؛ ليعقد مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عهدا على الأمان بينهما ، فرحَّب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بما جاء له ، فتعاهدا على ذلك ، و أهدى عامر بن مالك للنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هديةً ، فأبى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يقبلها إلا أن يُسْلِمَ ، لما كان يتوسم فيه من علامات الخير ، و التي من أبرزها الميثاق الذي جاء لأجله ، فأبى أن يسلم ، فلم يقبل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هديته ، إلا أنه انصرف بالعهد و الميثاق الذي عاهد عليه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ راضيا مرضيا .[118]

الغدر بالقراء في بئر معونة

و بعد العهد الذي كان بين النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و بين بني عامر ، جاء جماعة من قبيلة رِعْلٍ وَ ذَكْوَانَ وَ بَنِي لِحْيَانَ وَ عُصَيَّةَ إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و تظاهروا بالإسلام ، و ادَّعَوْا بأنهم في أمس الحاجة إلى من يعلمهم أمور دينهم ، و يعينهم على أعدائهم ، فأرسل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إليهم سبعين رجلا من خيرة صحابته في التقوى و العلم ، حتى إنهم لكثرة اشتغالهم بالقراءة و العلم ، كانوا يُدْعَوْنَ آنذاك بالقُرَّاءُ ، فساروا حتى إذا نزلوا بئر مَعُونة ، و هي أرض بين أرض بني عامر وَ حَرَّةِ بني سُليم ، اتفقوا على أن يبعثوا رجلا منهم ، من أجل أن يتبين لهم حال أهل ذلك المكان ، فإن وجد خيرا ، لَحِقَ به سائر أصحابه ، و إن وجد غير ذلك ، أو حَلَّ به مكروه ، أَمِنُوا شرهم ، و أرسلوا حَرَامَ بْنَ مِلْحَان إلى أهلها ، يستأمنهم في تبليغ رسالة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و يدعوهم

[118] [المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 71/19]

إلى أن يُخَلُّوا بينهم و بين دعوة الناس إلى الإسلام في تلك البلاد ، و لما وصل إلى أهل ذلك المكان ، أخذ يكلمهم فيما أرسل به ، و بينما كان يحدثهم ، أعطى عامر بن الطفيل رئيسُ أهل تلك المنطقة الإشارة إلى رجل خلفه ، فطعنه فأرداه قتيلا ، ثم قال عامر : (لا أحسبه إلَّا أنّ له أصحابًا) . فطلب مِنْ قبيلة بني عامر أن يعينوه عليهم ، فرفضوا أن يطيعوه ، و أبوا أن ينقضوا العهد الذي أبرمه عامر بن مالك مع النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فطلب من قبيلة بني سُليم عُصَيَّةَ و رِعْلٍ و ذَكْوانَ و بني لِحْيَانٍ أن يُعِينُوهُ عليهم فأطاعوه ، و أجابوه إلى ذلك ، فتوجه إلى باقي أصحاب ابن مِلْحَان بقريب من مائة رجل رام ، فأدركوهم ببئر معونة ، و أحاطوا بهم من كل جهة ، فقتلوهم إلا كعب بن زيد الأعرج ، فإنهم تركوه و به رمقٌ ، فعاش بعد تلك الحادثة ، و إلَّا عَمْرَ بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ ، الذي أطلقه عامر بن الطُّفَيْل حينما علم أنه من قبيلة مُضَرَ ، و جَزَّ ناصيته ، و أعتقه عن رقبةٍ زعم أنَّها كانت على أمّه ، و في تلك الأثناء توجّه النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى أصحابه فقال : (إن إخوانكم قد قتلوا ، و إنهم قالوا : اللهمّ بلّغ عنّا نبينا أن قد لقيناك ، فرضينا عنك و رضيت عنا) .

و سار عمرو بن أميَّة ، حتى إذا كان بمكان يدعى بالقَرْقَرَة ، لقي رجلين من بني عامر ، فنزلا معه في ظلّ هو فيه ؛ فسألهما حين نزلا : (ممَّن أنتما) ؟ فقالا : (من بني عامر) ، فأمهلهما حتَّى إذا ناما ، عَدا عليهما فقتلهما ، و هو يرى أنَّه قد أصاب بهما ثُؤْرَةً من بني عامر ، لما أصابوا من أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فلمَّا قدم عمرو بن أميَّة على رسولِ الله صلى الله عليه و آله و سلم أخبره الخبر ، فحزن لذلك ، و أعطى لأهليهما دِيَةَ كل واحد منهما ؛ وفاء بالعهد الذي كان بينه و بين بني عامر ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (هذا عمل أبي بَراء ؛ قد كنت لهذا كارهًا متخوّفًا) . فبلغ ذلك أبا براء فشقَّ عليه إخْفَارُ عامر إيَّاه ، و ما أصاب رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم بسببه و جواره ، و دعا رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد تلك الحادثة في قنوته على من قتل القراء

ثَلاَثِينَ صَبَاحًا ، فلم يلبث بعدها عامر بن الطفيل طويلا ، حيث أصابه الطاعون ، فأدركه الموت و هو على فرسه .[119]

غزوة بدر الصغرى سنة 626 م

و لما حان موسم بدر من عام 626 م ، تجهز النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للخروج إلى بدر ، بعد أن هدده أبو سفيان بعد غزوة أحد بقوله : (مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ ، حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا) . فخرج المسلمون إلى بدر ، حتى إذا أتوه لم يجدوا به أبا سفيان و لا جيشه ، فتسوقوا فيه ثم رجعوا ، فأنزل الله سبحانه و تعالى قوله : {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُومِنِينَ} .[120]

غزوة الأحزاب أو الخندق سنة 626 م[121]

و في السنة الرابعة من الهجرة المحمدية ، اجتمع نفر من اليهود منهم : سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ النَّضَرِيُّ ، وَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضَرِيُّ ، وَ كِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ النَّضَرِيُّ ، وَ هَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الْوَائِلِيُّ ، وَ أَبُو عَمَّارٍ الْوَائِلِيُّ ، فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ، وَ نَفَرٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ ، على إنشاءِ حلفٍ قويٍ ، يَضُمُّ جميع القبائل المعادية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، من أجل غزو المدينة ، فأخذ القوم يجمعون الأحزاب لِقتال رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، و خَرَجُوا حَتَّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكَّةَ ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى إنشاء حلف عظيم ؛ لقتال النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، وَ قَالُوا : (إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ ، حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ) . فَرَحَّبت قريش بما جاء له اليهود ، و اتفقوا

---

[119] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1511/3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 105/5][تاريخ خليفة بن خياط / دار القلم / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1397 هـ ـ [ص 76][صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 153/2 ـ 132/7 ـ 133][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 394/19]

[120] [آل عمران : 174 ، 175][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 55/10][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 247/11]

[121] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 177/3]

على الانضمام إلى ذلك الحلف ، و استطاعوا أن يضموا إلى ذلك الحلِف قبائلَ غَطَفَانَ ، غير أن سِرِّيَة هذا الحلف لم تستمر طويلا ؛ بسبب الأطماع التي تقوم عليها مثل هذه التحالفات الشيطانية ، حيث عرضت غطفان على النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الانسحاب من الحلف الذي جاء لأجله اليهود ، على أن يعطيهم نصف تمر المدينة ، فعرض النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ما جاء لأجله رسول غطفان ، و هو الحارث الغطفاني على الأنصارِ كبارِ أصحاب بساتين التمر ، و هم : سَعْد بْن مُعَاذٍ ، وَ سَعْد بْن عُبَادَةَ ، وَ سَعْد بْن الرَّبِيعِ ، وَ سَعْد بْن خَيْثَمَةَ ، وَ سَعْد بْن مَسْعُودٍ ، فقالوا : (يا رسول الله ، إن كان هذا أمر من أمر الله تعالى ، فالتسليم لأمر الله ، و إن كان هذا أمر من أمرك ، فأمرنا لِأَمْرِكَ تَبَعٌ ، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا ، فوالله لقد رأيتُنا و إياهم على سواء ، ما ينالون منا تمرة إلا بِشِرَا ، أو قِرَى) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (هو ذا) . فقالوا : (و الله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية ، فكيف و قد جاء الله بالإسلام) . فقال رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للحارث : (تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ) ؟ فانصرف رسولُ غطفان ذليلا ، و قد كشف الله للمسلمين ما تخبئه لهم أحزاب الشر ، و تأمّل صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وضع المدينة ، فوجد المعركة هذه المرة مختلفة ، فقريش اليوم ليست وحدها ، معها غطفان ، و معها بقايا بني النضير ، الذين استطاعوا زحزحة يهود بني قريظة عن عهدهم و ميثاقهم مع النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و قد يلحق بقريش بنو سليم و غيرهم من حلفائهم ، و الوقت قصير لا يحتمل التأخير ، و الجيش المسلم لا يستطيع التصدّي لهذه الجموع العظيمة خارج المدينة ، فالأفضل البقاء في المدينة ، حيث يشارك الجميع في تلك المعركة دون استثناء ، و حتى لا يتكرر ما حدث في أحد ، فقرّر صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يحفِر خَنْدَقًا ؛ يُحَصِّنُ به الجهة الشمالية للمدينة من هجمات قريش و من معها ؛ لأن بقيةَ الجهات صعبةُ الاقتحام ؛ لكثرة النخيل و الصخور و الجبال ، فبدأ النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و صحابته في حفر الخندق ، و نقْلِ الترابِ ، و كان رسول الله صَلَّى اللّهُ

عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ينقل التراب مع صحابته ، حتى وارى الغبارُ شعرَ صدره ، و بياض بطنه ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يرتجز مع صحابته بقوله :

و الله لولا اللهُ ما اهتدينا و لا تصدقنا و لا صلينا

فأَنْزِلَنْ سَكينـــة علينا و ثَبِّتِ الأقدام إن لاقَينا

إن الأعداء قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنـــة أبينا

و أصابت المسلمينَ في تلك الفترة مجاعة و جوع شديد ، حتى كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يشد على بطنه حجرا من شدة الجوع ، و لما عرضت لسيدنا سلمان الفارسي عند الْحَفْرِ صخرةٌ صلبة لم يستطيع التخلص منها ، ذهب إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يشكوها إليه ، فأمره النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يرشها بالماء ريثما ينزل إليها ، ثم جاء صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و نزل إليها ، و وضع رداءه ناحيةَ الخندق ، فإذا بطن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ معصوبة بحجر من شدة الجوع ، ثم أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْمِعْوَلَ و سمى الله ثلاثا ، ثم ضربها ضربة برَقت معها برقةً خاطفة ، و تفتت ثلث الصخرة ، و قرأ قوله تعالى : {تَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} . و بَشَّرَ أصحابه بفتح الروم ، ثم ضرب الصخرة ضربة ثانية ، برَق لها الخندق برقة آخرى ، و تفتت من الصخرة ثلثٌ آخر ، و قرأ قوله تعالى : {تَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} . و بشر أصحابه بفتح فارس ، ثم ضرب الصخرة ضربة ثالثة ، برَق لها الخندق برقة آخرى ، فتفتت الثلث الباقي ، و قرأ قوله تعالى : {تَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} . و بشر أصحابه بفتح اليمن ، فقال عندها المنافقون : (نحن نُخَنْدِقُ على أنفسنا ، و هو يعدنا قصور فارس و الروم) ، و قد أشار الله تعالى إلى طرف من أقاويل المنافقين في غزوة الأحزاب بقوله تعالى : {وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} . و خرج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فأخذ رداءه و جلس ، فجاءه جابر بعد ما

رأى الحجر على بطن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و قد تأثر بذلك تأثرا بالغا ، فاستأذنه في الانصراف إلى بيته ، فأذن له ، فذهب ، و أخبر امرأته بما رأى من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و سألها عما في البيت من طعام ، فأخبرته بأن بالبيت صاعا من شعير و ماعزةً ، فعمَدوا إلى الماعزة ، فذبحوها و سلخوها ، ثم جعلوا لحمها في البُرْمَة على النار ، و طحَنا الشعير و عجنوه ، حتى إذا كاد اللحم أن يطيب ، انطلق جابر إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأوصته امرأته بأن لا يستكثر من الضيوف مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى يكفيَهم الطعام ، و لا يضيق بهم البيت ، فانصرف إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و ساروه و قال له : (إن عندنا طُعَيِّمًا لنا ، فإن رأيت أن تقوم معي أنت و رجل أو رجلان معك فَعَلْتَ) . فقال : (ما هو ، و كم هو) ؟ فقال : (صاع من شعير و ماعزة) . فقال له : (كثير طيب ، ارجع إلى أهلك ، فقل لها لا تَنْزِعِ البُرمةَ من الأثافي ، و لا تُخْرِجِ الخبزَ من التَّنُّورِ حتى آتي) . ثم صاح صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال : (يا أهل الخندق ، إن جابرا قد صنع طعاما ، فقوموا إلى بيته) . فقام المهاجرون و الأنصار ، قال جابر : (فاستحيت حياء لا يعلمه إلا الله) . و لما دخل على امرأته قال : (ثَكِلَتْكِ أُمُّكِ ، قد جاءك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه أجمعون) . فقالت : (بك و بك ،،،) . فقال لها : (قد فعلتُ الذي قُلتِ) . فقالت : (أكان رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سألكَ عن الطعام) ؟ فقال : (نعم) . قالت : (الله و رسوله أعلم ، قد أخبرتَه بما كان عندك) . قال : (فذهب عني بعضُ ما كنت أجد) و قال لها : (لقد صدقتِ) . فجاء رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فدخل ثم قال لأصحابه : (لا تضاغطوا) ، ثم عمد إلى العجين فنفث فيه ثم دعا ، و عمد إلى التَّنُّور ، فنفث فيه ثم دعا ، ثم قال : (ادع خابِزةً فَلْتَخْبِزْ معي) . فجعل يكسر الخبز ، و يجعل عليه اللحم ، و يغطي البُرْمَةَ و التَّنُّورَ

إذا أخذ منه ، و يُقَرِّبُ إلى أصحابه ، فلم يزل يكسر الخبز و يَغْرِف ، و هم ألف حتى أكلوا ، و شبعوا ، و إن البرمة لتغلي و تفور كما هي .[122]

و أُدْخِلَ النِّسَاء و الأطفال دون الخامسةَ عشرَ سنةً داخلَ حِصْنٍ لِبَنِي حارثة ، و شهد هذه الغزوةَ من كان في سِنِّ الخامسة عشر سنةً ، كعبد الله بن عمر ، الذي رده النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن غزوة أحد ، حين كان في سن الرابعة عشر من عمره .

و لما جاء الأحزاب بجموعهم العظيمة قال المومنون : {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ} . فأثنى الله عليهم بقوله : {وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا} .

و فُوجِئَ المشركون بالخندق الذي يمتد على مدخل المدينة الشَّمَالي ، مِن أقصى حَرَّةِ واقِمٍ شرقَ المدينة ، إلى أقصى حَرَّةِ الوَبَرَةِ غَرْبَ المدينة ، و الْحَرَّةُ هي الأرض الصخرية الصلبة الغليظة المليئة بالحجارة السودِ النَّخِرةِ ، و تُسَمَّى اللَّابَةُ ، و هي أرض يصعب اقتحامها ، فحاولوا اقتحام مدخل الخندق ، فلم يستطيعوا ، و قد أحاطه المسلمون بجموعهم ، و بارز سيدنا علي عَمْرَو بنَ عبدِ وُدٍّ فقتله ، فقرر المشركون الإقامةَ على مدخل المدينة الشمالي المحادي للخندق ، و محاصرةَ المسلمين ، و الاقتصارَ على رمي المسلمين بالسهام لإبعادهم عن مدخل الخندق ، و اشتد البلاء بالمسلمين لَمَّا علموا بأن يهود بني قريظة الذين يتمركزون بأسفل المدينة نقضوا العهد الذي بينهم و بين النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و أعانوا المشركين على المسلمين في معركتهم ، فصار المسلمون بين جبهتين ، كما قال تعالى : {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنَ اَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الابْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ

[122] [الأحزاب : 22][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 214/2 ـ 223][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 146/7][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 121/22 ـ 359/38][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 28/6][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 337/14][السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني/ مكتبة العبيكان / ط 1 / 1424 هـ ـ 84/3 ـ 85][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 64/4 ـ 74 ـ 108/5 ـ 110 ـ 84/9][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 314/6][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 423/3 ـ 424][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 43/6][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 376/11 ـ 376/11 ـ 37/13]

بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُومِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَاذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيءَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ انْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ اَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الادْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنَ اَرَادَ بِكُمْ سُوءًا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (17) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَاتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ اَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُومِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} .

فكان المنافقون يستاذنون النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فما يستاذنه أحدٌ منهم إلّا أَذِنَ له ، و بعد انصراف المنافقين إلى بيوتهم ، و فرارهم من نصرة النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، بقي النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في جماعة قليلة من المسلمين ، مرابطين على مدخل الخندق ، فتضاعفت على المسلمين الذين بقوا مع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المهام العسكرية ، فأصاب حِبَّانُ بنُ الْعَرِقَةِ و هو أحد رماةِ المشركين سعدَ بن معاذ بسهم في ذراعه ، فَقُطِعَ وريدُه ، فحولوه عند امرأة يقال لها : رُفَيْدَة ، كانت تداوي الجرحى ، و لما لم ينقطع نزيفه ، كوَاه رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالنار ، فانقطع دمه إلا أنها وَرِمَت يده ثم نزفه الدم مرة أخرى ، و كان يدعو في تلك الأثناء بقوله : (اللهم لا تُمِتْنِي حتى تُقِرَّ عيني من قريظة) . و كانوا حلفاءه و مواليَه في الجاهلية ، فغدروا بالمسلمين ، و نقضوا عهدهم ، فكواه النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مرة أخرى حتى انقطع دمه ، و تحجر جرحه فيما بعدُ و برئ .

و اضطر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد غدر بني قريظة إلى تكليف الزبير بن العوام بمراقبة الجهة الجنوبية من المدينة المحادية لبني قريظة ، و حُبِسَ النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يومَ الأحزاب بسبب رباطه على مدخل الخندق عن أداء صلاة الظهر و العصر و المغرب و العشاء إلى أن دخل وقت العشاء ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هو قاعد على مدخل الخندق : (شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس ، ملأ الله قبورهم و بيوتهم نارا) . ثم قام صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فأمر بلالا فأقام ، ثم صلى الظهر كما كان يصليها قبل ذلك ، ثم أقام فصلى العصر كما كان يصليها قبل ذلك ، ثم أقام المغرب فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك ، ثم أقام العشاء فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك ، و ذلك قبل أن تفرض صلاة الخوف على المسلمين .

و لم يكن من النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أمام هذا الوضع العصيب الشديد ، بعد أن طال حصار المشركين لهم ، سوى الدعاءِ و التضرع إلى الله تعالى ، فكان من دعاءه في ذلك الوقت العصيب : (اللهم مُنْزِلَ الكتاب ، سريعَ الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم و زلزلهم) ، فأرسل اللهُ تعالى على المشركين في تلك الليلة شديدةِ البرودة ، شديدةِ الظلام ، ريحا عاتية أطفئت نيرانهم ، و ألقَتْ قدورَهم ، و رمت خيامهم ، و بعثرت رحالهم .

و عرض النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في تلك الليلة المظلمة على رجال من صحابته التجسس على جماعة الأحزاب رجلا رجلا ، فأبوا الذهاب حتى وصل إلى حذيفة بن اليمان ، فلبى طلب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و انطلق حتى إذا تسلل إلى معسكر الأحزاب ، وجد الريح قد فرقت جموعهم ، و بددت عزائمهم ، و جعلتهم يفكرون بالرحيل العاجل ، و سمع سيدنا حذيفة أبا سفيان قائد قريش يتدمر على الوضع الذي كانوا فيه ، بعد أن فَرَّ يهود بني قريظة إلى حصونهم ، و تركوا الأحزاب يصارعون البرد و الريح وحدهم ، فرجع حذيفة إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و أخبره بخبر الأحزاب .

و لما تعسر على المشركين الدخولُ إلى المدينة ، و طالت مدة الانتظار ، و هي بدون شك في غير صالح العدو ، لاح شبح الانهزام في خيال اليهود ، و لبد لذلك من خطة أخرى تضمن لهم سلامة العاقبة ، إذا أخفق حلف المشركين في غزو المدينة ، فقام اليهود بدور العميل المزدوج ، و أرسلوا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من يخبره بأن اليهود معه في هذه المعركة ، و أنهم جاهزون لِأَسْر بعض أشراف حلف المشركين ، و اقتيادهم إلى المسلمين ، إذا أحب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذلك ، غير أن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تَفَطَّنَ إلى ما يريده بنو قريظة ، فأراد أن يستثمر هذه الخيانة اليهودية في تمزيق حلف المشركين ، فدعا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نُعَيمَ بن مسعود الأشجعي و كان رجلا نَمَّامًا ، لا يصله خبر إلا شاع بشكل رهيب بين الناس ، فأخبره صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بخيانة اليهود لحلف المشركين ، فما هو إلا أن سمع بالخبر حتى كان الخبر عند المشركين ، فكان هذا الخبرُ أحدَ أهم جنود الله في انصراف الأحزاب خاسئين إلى أوطانهم ، بالإضافة إلى الريح و البرد الشديد الذي سلطه الله تعالى عليهم ، و في هذا الصدد يقول تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} .

فقال عند ذاك أبو سفيان : (يا معشر قريش ، إنكم و الله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاعُ و الْخُفُّ ، و أخلَفَتْنَا بنو قريظة ، و بلغَنا عنهم الذي نكره ، و لقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدْرٌ ، و لا تقوم لنا نار ، و لا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل) .

و هكذا : {رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُومِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} .

و لما انصرف الأحزاب ، قال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (الآن نغزوهم و لا يَغزوننا ، نحن نسير إليهم) . و لبد للوصول إلى ذلك من أن يتفرغ النبي

صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لكل جبهة من جبهات الحلف على حدة ، و أن يعامل كل حزب من أحزاب ذلك الحلف الشيطاني بما يليق به . [123]

غزوة بني قريظة سنة 626 م

و لما رجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من الخندق ، و قد أدرك خطورة حلفاء قريش المحيطين بها ، و خصوصا جبهة اليهود التي تجاورهم عن جنوب المدينة ، لم يجد النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بُدا من ضرورة التفرغ لكل جبهة من الجبهات التي يتكون منها حلف الشرك في أقرب الآجال ، و لبد لذلك من ضرب كل جبهة على حدة ، الواحدةِ تلو الأخرى ، و لما كانت بنو قريظة هي أقرب الجبهات إلى النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و أخطرها عليه ، من حيث الموقع الجغرافي ، كان غزوها على رأس سُلَّمِ أولويات النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و من أجل ذلك ، ما إن وضع النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ السلاح و اغتسل ، حتى أتاه جبريل ، يأمره بالخروج إلى بني قريظة ، فنادى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في الناس : (لا يُصَلِّين أحد الظهر إلا في بني قريظة) . فأدرك بعضَهم العصرُ في الطريق ، فقال بعضهم : (لا نصلي حتى نأتيَها ، حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و إن فاتنا الوقت) . و تخوف ناس فوات الوقت و قالوا : (بل نصلي ، لم يُرِدْ منا ذلك) . فصلَّوا دون بني قريظة ، فذُكِرَ للنبي صلى الله عليه و آله و سلم اختلافهم ، فلم يعنف واحدا منهم ، طالما أنهم احتكموا إليه كما أمر الله تعالى ، و لم يخالفوا أمرا صريح الدلالة من أوامره . [124]

---

[123] [الأحزاب : 9 - 25][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 122/1 ـ 177/3 ـ 57/4 ـ 21/5 ـ 88 ـ 110 ـ 111 ـ 112][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 226/2 ـ 231 ـ 232 ـ 233][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 33/3][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 474/4 ـ 293/17 ـ 294 ـ 90/23 ـ 359/38 ـ 27/42 ـ 28][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 238/4][الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1408 هـ ـ 609/11 ـ 499/15][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 447/3][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 437/1 ـ 1390/3 ـ 1414 ـ 1731/4][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 471/2][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 26/19][الكافي / دار الكتب الإسلامية / ط 3 / 1367 هـ ـ 278/8][عمدة القاري شرح صحيح البخاري / دار إحياء التراث العربي ـ 201/12][التوضيح لشرح الجامع الصحيح / دار النوادر / دمشق / ط 1 / 1429 هـ ـ 346/15][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 317/7 ـ 346][مستخرج أبي عوانة / الجَامِعَة الإسلاميَّة، المملَكة الْعَرَبيَّة السَّعُودية / ط 1 / 1435 هـ ـ 483/14]

[124] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 15/2][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1391/3]

و أتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بني قريظة ، فحاصرهم خمسا و عشرين ليلة ، فلما اشتد عليهم الحصار ، قيل لهم : (انزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) . فقال لهم أُسَيْدُ و ثعلبةُ ابنا سعيةَ و أسدُ بنُ عبيدٍ : (يا بني قريظة ، وَ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي كَانَ عَهِدَ إِلَيْكُمْ فِيهِ ابْنُ الْهَيْبَانِ) . و كان قد أوصاهم باتباع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبل بعثته ثم مات ، فقال اليهود لأولئك النفر الثلاثة : (ما هو به) . فقال أولئك النفر : (بَلَى وَ ٱللَّهِ ، إِنَّهُ لَهُوَ بِصِفَّتِهِ) . فَنَزَلُوا وَ أَسْلَمُوا ، وَ أَحْرَزُوا دِمَاءَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ ، و أما من بقي من اليهود ، فقد استشاروا أبا لبابة بنَ عبدِ المنذر في حكم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأشار إليهم أنه الذبح ، فقالوا عند ذاك : (ننزل على حكم سعد بن معاذ) . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (انزلوا على حكم سعد بن معاذ) . فنزلوا ، و بعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى سعد بن معاذ ، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف ، قد حمل عليه ، و حف به قومه ، فقالوا : (يا أبا عمرو ، حلفاؤك ، و مواليك ، و أهل النكاية ، و من قد علمت) . فكان لا يَرْجع إليهم شيئا ، و لا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من ديارهم ، التفت إلى قومه ، فقال : (قد أَنَى لي أن لا أباليَ في الله لومة لائم) . فلما طلع على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (قوموا إلى سيدكم فأنزلوه) . فلما أنزلوه ، قال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (إن هؤلاء نزلوا على حكمك) . فقال سعد : (فإني أحكم فيهم : أن تُقْتَلَ المقاتِلَةُ ، و أن تُسْبَى النساء و الذرية ، و أن تقسم أموالهم) . فقضى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فيهم بحكم سعد بن معاذ ، على ما اختاروه لأنفسهم ، عقوبةً لهم على سوء ظنهم بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و عدم التسليم له ، و إنذارا لمن كان على مثل أخلاقهم ، و أخرج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سائر يهود المدينة كلهم : بني قَيْنُقَاع ، و هم قوم عبد الله بن سلام ، و يهود بني حارثة .

و فيهم أنزل الله تعالى قوله : {وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَاسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} .[125]

قتل أبي رافع سلَّامِ بْنِ أبي الْحُقَيْق النَّضَرِي

و بعد أن فرَغ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من إحدى أخطر الجبهات التي كانت تهدد المسلمين في المدينة ، صارت المدينة على الأقل آمنةً في محيطها من المخاطر المباغتة ، إلا أن هذا لا يعني ضمان الأمن خارج المدينة ، طالما أن الرؤوس المدبرة لحلف أهل الكفر و الشرك ، لا تزال مستعدة في أي وقت من الأوقات لتنفيذ خطة أخرى ؛ لضرب المسلمين إذا سنحت الفرصة لذلك .

و لأجل حسم مادة الشر من أصله ، قرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تبني أسلوبِ المباغتة في ضرب كل جبهة من جبهات الكفر على حدة ، و التخلص ما أمكن من رؤوس الشر المدبرة للمكائد ضد المسلمين في المدينة ، و كان على رأس قائمة زعماء الإجرام الذين حزّبوا الأحزاب : أبو رافع سلَّامُ بنُ أبي الْحُقَيْقِ النَّضَرِيُّ اليهوديُّ ، أحدُ كبار تجار أهل الحجاز ، و أحد الأثرياء القلائل الذين استطاعوا أن يُشَيِّدُوا لأنفسهم قصرا في ضواحي الحجاز ، فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم رجالا من الأنصار ، و أمَّر عليهم عبدَ اللهِ بن عَتِيك ، فلما دنوا من قصره ، و قد غربت الشمس ، و أخذ الناسُ يدخلون بمواشيهم إلى القصر ، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : (اجلسوا مكانكم ، فإني منطلق ، و متلطف للبواب ، لعلي أن أدخل) . فأقبل حتى إذا دنا من الباب ، تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة ، و قد دخل الناس ، فهتف به البواب : (يا عبد الله : إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإني أريد أن أغلق الباب) . فدخل فاختبأ في مَرْبِط حمار عند

[125] [الأحزاب : 26 ، 27][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 88/5 ـ 112][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1388/3][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 28/42][سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 85][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 213/1 ـ 214]

باب القصر ، فلما دخل الناس أغلق البوَّابُ الباب ، ثم علق المفاتيح على وتد ، و كان ابن أبي الْحُقَيقِ في سَمَرٍ مع جماعة من قومه ، فانتظرهم ابن عَتِيك حتى إذا تَعَشَّوْا و تحدثوا إلى ساعة متأخرة من الليل ، ثم رجعوا إلى بيوتهم ، و هدأت الأصوات ، قام إلى المفاتيح فأخذها ، و صعد بها إلى أعلى غرف القصر ، و هي لصاحب القصر و سيده ، فجعل كلما فتح بابا ، أغلق عليه مِنْ داخلٍ ، حتى انتهى إليه ، فإذا البيت مظلم ، قد طَفِئَ سِرَاجُهُ ، فلم يَدْرِ أين الرجل ، فنادى : (يا أبا رافع) ! فقال : (من هذا) ؟ فأهوى نحوَ الصوت فضربه ضربة بالسيف ، و هو دهشان ، فما أغنى شيئا ، فصاح ، و خرج ابنُ عَتِيك من البيت ، فمكث غير بعيد ، ثم دخل إليه كأنه مغيث ، و غيَّر صوته ، فقال : (ما هذا الصوت يا أبا رافع) ؟ فقال : (لِأُمِّكَ الويلُ) ! فقال : (ما شأنك) ؟ فقال : (لا أدري من دخل علي فضربني) . فأهوى إليه فوضع سيفه في بطنه ، ثم تحامل عليه ، حتى خرج السيف من ظهره ، ثم خرج مسرعا ، فجعل يفتح الأبواب بابا بابا ، حتى انتهى إلى دَرَجَةٍ ، فوضع رجله و هو يرى أنه قد انتهى إلى الأرض ، فوقع فانكسرت ساقه ، فعصبها بعمامة ، ثم انطلق إلى أصحابه يعرج فقال لهم : (انطلقوا فبشروا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية) . فلما صاح الديك ، قام الناعي على السور فقال : (أنعى أبا رافع ، تاجر أهل الحجاز) . فقام يمشي حتى أدرك أصحابه قبل أن يأتوا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلما انتهوا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بشره و أخبره بخبره ، فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ابسط رجلك) . فبسط رجله ، فمسحها ، فكأنه لم يشتكها قط .[126]

[126] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ - 63/4 - 91/5 - 92 - 93]

الزواج بزينب بنت جحش

و تزوج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبل غزوة بني المصطلق بالسيدة زينبَ بنتِ جحش ، بعد أن أمره الله تعالى بأن يتزوجها ، و ذلك حين أراد أن يطلقها زيد بن حارثة ، حيث إن زيدا كان يشكوا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ زينب ، و يريد طلاقها ، فكان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يقول له : {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ} ، و كان يخفي ما أمره الله به من الإشارة عليه بطلاقها ، و هذا يدل على أن الطلاق من أبغض الحلال عند الله تعالى ، غير أن الأمر مختلف في قضية زيد بن حارثة ، لأن أمْرَ اللهِ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأن يتزوجها ، كان من أجل غاية تشريعية أراد الله تعالى أن يَسُنَّها للناس ، و هي إبطال التبني ، و الذي لا أدل على بطلانه من زواج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بمن تبناه و اتخذه ولدا ، و هو زيد بن حارثة ، و كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يخشى من إبداء ما أمره الله به مِنِ افتتان الناس ، و سوء ظنهم بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فيهلكوا ، فأنزل الله عليه قوله : {وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُومِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيءِ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ابَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتِمَ النَّبِيئِينَ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} .

فلما طلقها زيد بن حارثة ، تزوجها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و أقام لزواجه عرسا ، أطعم فيه الناس خبزا و لحما ، بعد أن ذبح لذلك شاة ، فأكل الناس حتى شبعوا ، و خرج بعضهم ، و جلس رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ

سَلَّمَ و معه رجال بعد ما قام بعض القوم ، ثم أخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، قام من قام من القوم ، و قعد بقيةٌ من القوم ، ثم خرج رسول الله يمشي ، فجعل يتتبع حُجَرَ نسائه يُسَلِّمُ عليهن ، و كُنَّ يَقُلْنَ له : (يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك) ؟ و هن لا يعلمن أن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لم يدخل عليها بعد ، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ، فإذا هم جلوس مكانهم ، فرجع ثم جاء و القوم كما هم ، فرئي ذلك في وجهه ، فأنزل الله تعالى قوله : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِءِ اِلَّا أَنْ يُوذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَ لَكِنِ اِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَانِسِينَ لِحَدِيثٍ اِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُوذِي النَّبِيءِ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُوذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا} . [127]

غزوة بني المصطلق أو الْمُرَيْسِيع

و لما كان تأمين الطريق إلى مكة من القبائل الغادرة ، و التخلصُ من حلفاء قريش المحيطين بها في المنطقة ، إحدى أهم أولويات النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، كان قتالُ قبيلة بني المصطلق المحاذية لمكة مُتَعَيِّنٌ على المسلمين ، إذا أرادوا تمهيد الطريق إلى فتح مكة ، خصوصا و قد نُقِلَ عن بني المصطلق استعدادُهم لغزو المدينة ، فكان الهجوم عليهم خيرَ وسيلة للدفاع ، لأجل ذلك أخذ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يتهيء للخروج ، فجهز جيشه ، و كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه ، فأيَّتُهُنَّ خرج سَهْمُها خرج بها معه ، فأقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فخرج سهم عائشة ، فخرج بها صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ

[127] [الأحزاب : 37 ـ 40 ـ 53][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 354/5][الطبقات الكبرى / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1410 هـ ـ 82/8 ـ 83 ـ 84][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1048/2 ـ 1049][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 53/8]

آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى إذا لَقِيَهُم على ماء لهم يقال له : الْمُرَيْسِيعُ ، مِنْ ناحية قُدَيْدٍ إلى الساحل ، تزاحف الناس و اقتتلوا ، فهزم الله بني المصطلق ، و قُتِلَ مَنْ قُتِلَ منهم ، و استنقذ اللهُ أبناءَ و نساءَ و أموال تلك القبيلة مِن رجالٍ لا يَسْتَاهِلُون أن يكونوا رُعَاةً عليها ، بعد أن استماتوا في الدفاع عن الجاهلية و الفوضى ، و أثبتوا وحشيتهم في الصد عن الأخلاق النبيلة التي جاء الإسلام بها . [128]

و كان السَّبْيُ بعد الانتصار في هذه المعركة ، هو خير وسيلة لاستكثار المومنين ، من خلال استنقاذ من بقي منهم من أخلاق الجاهلية ، و إصلاحهم بمخالطة المومنين في بيوتهم ، و الإنفاق عليهم مما ينفق المومن على جميع أفراد أسرته ، عِوَضَ أن يكونوا عالة على الناس ، قبل الإنعام عليهم بالحرية التي جعلها الإسلام غاية ، إذا حَسُنَ إسلامُهم ، و استقامت أخلاقهم ، كما قال تعالى : {وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتَ اَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمُ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} .

فالرِّقُّ مهما تنوعت أشكاله ، إما أن يكون غاية في حد ذاته ، و إما أن يكون وسيلة إلى استصلاح شريحة من المجتمع أو كفالتها .

حادثة الإفك

و بعد أن حقق النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الهدف المطلوب من غزوة المريسيع ، انطلق راجعا إلى المدينة ، حتى إذا كانوا بموضع قريب من المدينة ، أدركهم الليل ، فأمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالمبيت في ذلك المكان ، فبات به بعض الليل ، ثم أَذَّنَ في الناس بالرحيل ، فأخذ الناس يتجهزون لذلك ، و في تلك الأثناء ، توارت السيدة عائشة عن الجيش لبعض شأنها ، ثم رجَعَتْ إلى رحلها ، و تفقدت عِقْدَها فلم تجده ، فرجعتْ تبحث عنه في ذلك المكان الذي كانت فيه ، و لما وجدته أقبلت على هودجها ، فإذا القوم قد حملوا هودجها و انصرفوا ،

[128] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 148/3][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 388/23 ـ 389][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1/ 1409 هـ ـ 380/7][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 290/2][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 135/9][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 348/8]

ظانين بأنها داخله ، و كان هودج أزواج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يوضع لهن في الأرض ، و ينصرف عنه القوم المكلفون بتهيئته لذلك ، ثم تجلس فيه زوجة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى إذا حان موعد الانطلاق ، جاء القوم ، فأخذوا بأسفل الهودج ، ثم رفعوه ، و وضعوه على ظهر البعير ، و شدّوه بحباله ، ثم أخذوا برأس البعير ، فانطلقوا به ، فلما لم تجد عائشة أحدا تَلَفَّعَتْ بجلبابها ، ثم جلست في مكانها ، و عرفت أن القوم سيرجعون إليها إذا ما افتقدوها ، و بينما هي جالسة ، إذ مر بها صَفْوَانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ، و قد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فلم يَتَّبِع الناس ، فلما رآها قال : (إنا لله و إنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه و سلم) ! ثم قرّب البعير و أناخه أرضا فقال : (اركبي) . و استأخر عنها ، فركِبَتْ ، و أخذ برأس البعير ، فانطلق سريعا يطلب الناس ، حتى أدركا الناس ، و قد نزلوا بأمر من النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في استراحة عند شِدَّةِ حَرِّ الظَّهِيرة ، و ما هي إلا أن رأت أعينُ المنافقين عائشةَ قادمةً على البعير يقودها صفوان ، حتى امتلأت قلوبهم بالظنون السيئة القبيحة ، و راحوا ينسجون من خيوط أوهامهم خيالا يتناسب مع نظرتهم إلى الآخرين ، و يتوافق مع طبيعتهم التي لم تتطهر من عفوناتها ، و أخذوا يُشِيعون بين الناس باطلهم قبل وصولهم إلى المدينة ، و عائشة في غفلة تامةٍ عما كان يجري من حولها .

و لما استقر الغزاة بالمدينة ، انتشر خبر الإفك في الناس انتشار النار في الهشيم ، و لَزِمَتْ عائشةُ بعد وصولها إلى المدينة فراشها ؛ لمرض أصابها ، فانشغلت بمرضها الذي لازمها شهرا عن معرفة ما يخوض فيه الناس ، إلا أنها لم تكن ترى من النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ اللطف الذي كانت تراه منه إذا مرضت ، حيث إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كان يكتفي بالتسليم عليها ، و كان يسألها عن حالها ، ثم ينصرف ، حتى إذا برئت ، و خَرَجْتْ ليلا هي و أُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ ابْنَةِ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ ؛ لقضاء حاجتها في موضع يسمى (الْمَنَاصِع) ، وَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يتَّخِذوا الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِهِم ، و كان الْعَرَبُ يستقذرون اتخاذ الكنيف في بيوتهم

، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي ثوبها فَقَالَتْ : (تَعِسَ مِسْطَحٌ) . فقالت لَهَا عائشة : (بِئْسَ مَا قُلْتِ ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا) ؟ فَقَالَتْ لها : (يَا هَنْتَاهْ ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ) ؟ فقالت لها : (مَا قَالَ) ؟ فأخبرتها بقول أهل الإفك ، فقالت لها عائشة : (وَ قَدْ كَانَ هَذَا) ؟ فقَالَتْ : (نَعَمْ) . قَالَتْ عَائِشَةُ : (فَوَاللهِ لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي ، وَ كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَ لَا كَثِيرًا ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي ، دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَسَلَّمَ ، فَقَالَ : (كَيْفَ تِيكُمْ) ؟ فقالت : (ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ) . قَالَتْ : (وَ أَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا) . فَأَذِنَ لها رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، وَ أَرْسَلَ مَعَها الْغُلَامَ ، فأتت أبويها فَدَخَلَتِ الدَّارَ ، فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ ، وَ أَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ ، فَقَالَتْ لها أُمُّها : (مَا جَاءَ بِكِ يَا بُنَيَّةُ) ؟ فقالت لَهَا : (مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ) ! فَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْ أمها مَا بَلَغَ مِنها ، و قَالَتْ : (يَا بُنَيَّةُ ، هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ ، فَإِنَّهُ وَ اللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَ لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَهَا ، وَ أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا) . فقالت : (سُبْحَانَ اللهِ ، يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا) ؟ ثُمَّ قالت : (وَ قَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي) ؟ قَالَتْ : (نَعَمْ) . فقالت : (وَ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ) ؟ قَالَتْ : (نَعَمْ) . فَاسْتَعْبَرَتْ وَ بَكَتْ ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتَها وَ هُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ ، فَنَزَلَ فَقَالَ لِأُمِّها : (مَا شَأْنُهَا) ؟ قَالَتْ : (بَلَغَهَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهَا) . فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ : (أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ يَا بُنَيَّةُ إِلَّا رَجَعْتِ إِلَى بَيْتِكِ) . فَرَجَعَتْ إلى بيتها ، قالت عائشة : (فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، وَ لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ) . و في الصباح دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ، حِينَ تأخر الْوَحْيُ ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَقَالَ : (أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَ لَا نَعْلَمُ وَ اللهِ إِلَّا خَيْرًا) . وَ أَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ : (يَا رَسُولَ اللهِ ، لَمْ يُضَيِّقْ اللهُ عَلَيْكَ ، وَ النِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ ، وَ سَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ) . فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَرِيرَةَ ، فَقَالَ : (يَا بَرِيرَةُ ، هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ) ؟ فَقَالَتْ بَرِيرَةُ : (لَا وَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ،

ما رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَعِيبُهُ عَلَيْهَا قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ) . فَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : (اصْدُقِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ) . و صرحوا لها بالأمر ، فَقَالَتْ : (سُبْحَانَ اللهِ ، وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ) . وَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْهَا ، فَقَالَتْ : (يَا رَسُولَ اللهِ ، أَحْمِي سَمْعِي وَ بَصَرِي ، وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا) . قَالَتْ عَائِشَةُ : (وَ هِيَ الَّتِي كَانَتْ تُنَافِسُنِي ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ ، وَ طَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تغضب لأختها ، و تتعصب لَهَا ، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ) . وَ كَانَ من بين الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِالأفك : مِسْطَحٌ ، وَ حَمْنَةُ ، وَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَ أَمَّا الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ، فَهُوَ الَّذِي اختلقه ، وَ قَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ صفوانَ بْنَ الْمُعَطَّلِ ، فَقَالَ : (سُبْحَانَ اللهِ ، وَ اللهِ مَا كَشَفْتُ عَنْ ثوب أُنْثَى قَطُّ) . فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ خَطِيبًا ، فَتَشَهَّدَ وَ حَمِدَ اللهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : (أَمَّا بَعْدُ ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي ، وَ ايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ قَطُّ ، وَ أَبَنُوهُمْ بِمَنْ وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ ، وَ لَا دَخَلَ بَيْتِي قَطُّ ، إِلَّا وَ أَنَا حَاضِرٌ ، وَ لَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي) . ثم اسْتَعْذَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله و سَلَّمَ الناسَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ إِنْ عَاقَبَهُ بما صنع ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ : (أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ ، إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ، ضَرَبْنَا عُنُقَهُ ، وَ إِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ ، أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ) . فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَ هُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ ، وَ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا ، وَ لَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ : (كَذَبْتَ ، لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ ، وَ لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَ لَوْ كَانُوا مِنْ الْأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ) . فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَ هُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بن معاذ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ : (كَذَبْتَ ، لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ) . فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَ الْخَزْرَجُ ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا فِي الْمَسْجِدِ ، وَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَ

سَكَتَ ، تقول عائشة : (وَ بَكَيْتُ يَوْمِي ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، وَ لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ ، قَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَ يَوْمًا ، حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي ، فَلَمْ يَزَالَا عِنْدِي ، حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ قَدْ صَلَّى الْعَصْرَ ، وَ قَدْ اكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَ عَنْ شِمَالِي ، فَجَلَسَ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ لَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا ، وَ قَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ ، فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ حَمِدَ اللهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : (أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَ كَذَا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً ، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ ، وَ إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَ تُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ) . قالت عائشة : (فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً ، وَ قُلْتُ لِأَبِي : (أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ) . فَقَالَ : (وَ اللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ) . ثم قالت لأمها : (أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِيمَا قَالَ) . فَقَالَتْ : (وَ اللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ) . قَالَتْ : (فَلَمَّا لَمْ يُجِيبَا ، تَشَهَّدْتُ ، فَحَمِدْتُ اللهَ ، وَ أَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ : (إِنِّي وَ اللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ ، وَ وَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ ، وَ صَدَّقْتُمْ بِهِ ، وَ اللهِ لَئِنْ حَلَفْتُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ، وَ اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَبَرِيئَةٌ ، لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ ، وَ لَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ ، وَ اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ، لَتُصَدِّقُنِّي ، وَ اللهِ مَا أَجِدُ لِي وَ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ : {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَ اللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} قَالَتْ : الْتَمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ) . قَالَتْ : (ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَ اضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي ، وَ أَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ ، وَ لَكِنْ وَ اللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ فِي شَأْنِي وَحْيًا ، وَ لَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي ، وَ لَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ ، فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مَجْلِسَهُ ، وَ لَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، حَتَّى

أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الشِّدَّة ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ اللؤلؤ مِنْ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ ، فَأَمَّا أَنَا حِينَ رَأَيْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا رَأَيْت ، فو الله مَا فَزِعْتُ وَ لَا بَالَيْتُ ، قَدْ عَرَفْتُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ، وَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ غَيْرُ ظَالِمِي ، و أمّا أبواي ، فو الّذي نَفْسُ عَائِشَةَ بِيَدِهِ ، مَا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ حَتَّى ظَنَنْتُ لَتَخْرُجَنَّ أَنْفُسُهُمَا ، خوفا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ اللَّهِ تَحْقِيقُ مَا قَالَ النَّاسُ ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ إِنِّي لَأَتَبَيَّنُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ وَ هُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي : (يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ) . فَقَالَ لِي أَبَوايَ : (قُومِي فَقَبِّلِي رَأَسَ رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ) . قَالَتْ : (وَ كُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا : لَا وَ اللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ ، وَ لَا أَحْمَدُهُ ، وَ لَا أَحْمَدُكُمَا ، وَ لَكِنْ أَحْمَدُ اللهَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي ، لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ ، فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَ لَا غَيَّرْتُمُوهُ) . و فِي هذا المجلس أنزل الله على نبيه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالافْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الاثْمِ وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُومِنُونَ وَ الْمُومِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَاتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا اِنْ كُنْتُمْ مُومِنِينَ (17) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20)} .

ثُمَّ خَرَجَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَى النَّاسِ ، فَخَطَبَهُمْ ، وَ تَلَا عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِمِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ ، وَ

حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ، وَ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَكَانُوا مِمَّنْ أَفْصَحَ بِالْفَاحِشَةِ ، فَضُرِبُوا حَدَّهُمْ .

و قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَ كَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَ فَقْرِهِ : (وَ اللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ) . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز و جل قوله : {وَ لاَ يَاتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُوتُوا أُولِي القُرْبَى وَ المَسَاكِينَ وَ المُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا ، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} . فقَالَ أَبُو بَكْرٍ : (بَلَى وَ اللَّهِ ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي) . فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، وَ قَالَ : (وَ اللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا) .[129]

الزواج بأم سلمة هند بنت حذيفة

و بعد أن توفي الصحابي الجليل أبو سَلَمَةَ عبدُ اللهِ بْنُ عبدِ الأسد ، تاركا خلفه زوجته و ابنين و ابنتين ، كانت هذه المصيبة بالنسبة إلى هذه العائلة الصغيرة شديدةً بما يترتب عليها من أعباءٍ على كاهل أرملته أم سلمة هندَ بنتِ حذيفةَ حِيَالَ أولادها اليتامى ، و على الرغم مِنْ أَنَّ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قال : (أيكم ما ترك دَيْنًا ، أو ضَيَاعًا ، فأنا مولاه) . إلا أن بيتا يخلو من رجل يرعاه ، يكون سندا لأفراده بالليل و النهار ، يبقى عرضة للانهيار ، و عروض الشرور عليه و الأخطار ، و لذلك فقد عرض النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الزواج عليها ، فقبلت به فتزوجها صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .[130]

[129] [النور : 11 ـ 33][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 173/3][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 348/8][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 297/2 ـ 302]

[130] [سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 440/1][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1237/3][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 72/44][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 372/9][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 234/44]

سرية عبد الله بن أُنَيْسٍ إلى خالد بن سفيان بن نُبَيْح

و لقد كان صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يعمل على تأمين محيط المدينة من كل المخاطر المحتملة ، و كان حريصا على تطهير المناطق المجاورة للمدينة مِنْ كل مَنْ أبدى رغبة في الإغارة عليها ، كخالد بن سفيان بن نُبَيْح الْهُذَلِيِّ الذي أخذ يَجْمَعُ بِعُرَنَةَ المقاتلين من أجل غزو المدينة ، فأراد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يُجَنِّبَ المدينةَ حربا تُكَلِّفُه ربما الكثير من الخسائر المادية و البشرية ، و يُخَلِّصَها من شر ذلك المشرك بأيسر الوسائل ، فأرسل إليه عبد الله بن أُنَيْسٍ في مهمة سرية من أجل القضاء عليه ، و أخبره صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أنه إذا رآه وجد له قشعريرة ، فانطلق عبد الله بن أنيس إلى عُرَنَةَ ، فانتهى إليه عند وقت العصر ، فخشي ابن أنيس أن تفوته الصلاة إذا ما كان بينهما مقاتلة ، فصلى العصر و هو يمشي ، يومئ فيها لركوعه و سجوده ، حتى إذا اقترب منه سأله خالد : (مَنِ الرجلُ) ؟ فقال له : (رجل من العرب سمع بك ، و بِجَمْعِك لهذا الرجل فجاءك لهذا) . فقال له : (أجَلْ أنا في ذلك) . فمشى معه شيئا حتى إذا سَنَحَتْ له الفرصة حمل عليه بسيفه فقتله ، ثم رجع إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلما رآه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قال : (أفلح الوجه) . فقال له : (قتلتُه يا رسول الله) . فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (صدقت) . [131]

الزواج بجويرية بنت الحارث

و بعد مضي أيام أو أشهرٍ على غزوة بني المصطلق ، جاءت جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارثِ بن أبي ضرار سيدِ بني المصطلق إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، تستعينه في كتابتها من أجل تحرير نفسها ، و كانت قد وقعت في سَهْمٍ من سهام سبايا بني المصطلق لثابت بن قيس ، فكاتبَتْهُ من أجل تحريرها ، فرقَّ لها النبي

[131] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 440/25 ـ 441]

صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و هو الذي روي عنه أنه كان يقول : (ارحموا عزيز قوم ذل) ، فعرض عليها رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يؤدي عنها كتابتها و يتزوجها ، فقبلت ، و تزوجها رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، إكراما و تشريفا لها ، و حفاظا على مكانتها ، و تأليفا لقلوب قومها ، و إطلاقا لسراحهم من السبي ، فقد بلغ الناسَ أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله و سلم تزوجها ، فأعتقوا أصهار رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من ذوي قرابتها الذين كانوا في سبايا بني المصطلق ، و كان عددُهم مائةَ أهلِ بيت .[132]

عمرة الحديبية 628 م

و على الرغم من كثرة الروابط التي أنشأها النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في المدينة عن طريق المصاهَرَةِ و الأُخُوَّة و الولاء ، و التي استطاع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من خلالها أن يجعل الحياة في المدينة من حوله سعيدة هادئة ، مطمئنة هنيئة ، غير أن قلب النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بقي متعلقا ببيت الله الحرام ، و ما حوله من المناسك التي سنَّها جدُّه إبراهيم ، و في إحدى ليالي الشوق و الغرام ، يُريه الله تعالى في المنام ، أنه دخل المسجد الحرام ، في جماعة من صحبه الكرام ، آمِنِينَ ، محلقين رؤوسهم و مقصرين لا يخافون ، فَقَصَّ النبيُّ صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رؤياه على صحابته ، و بشرهم بتحققها عن قريب .[133]

و في العام السادس من الهجرة النبوية الموافق لسنة : 628 م قرَّرَ النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ زيارة البيت العتيق ، و دعا الناس للخروج ، بما في ذلك الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، إلا أن الأعراب اعتذروا إلى النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و قالوا له كما أخبرنا الله تعالى عنهم : {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَ

---

[132] [سيرة ابن اسحاق = السير والمغازي / دار الفكر / ط 1 / 1398 هـ ـ ص 263][الفقيه و المتفقه / دار ابن الجوزي / ط 2 / 1421 هـ ـ 165/1][المجروحين لابن حبان / دار الصميعي / الرياض / ط 1 / 1420 هـ ـ 98/13 ـ 99][الفردوس بمأثور الخطاب / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1406 هـ ـ 13/2][تخريج أحاديث إحياء علوم الدين / دار العاصمة / ط 1 / 1408 هـ ـ 176/1][قرب الإسناد / مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث / ط 1 / 1413 هـ ـ ص 66]

[133] [الفتح : 10 ـ 27][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 193/3]

أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا اِنَ اَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوَ اَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُومِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَ مَنْ لَمْ يُومِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الاَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} .

فخرج صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في ذي القعدة إلى البيت معتمرا ، غير قاصد لقتالِ أَحَدٍ ، مع ألِفٍ و أربَعِمائَةٍ ممن قال فيهم صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هم في طريقهم إلى مكة : (أنتم خير أهل الأرض) ، و ساق النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ معه الْهَدْيَ : سَبْعِينَ بَدَنَةً ، فلما كان بِذِي الحُلَيْفَةِ ، قلَّدَ الهَدْيَ و أَشْعَره ، و هو أن يضع المعتمر على أعناق الْبُدْنِ شيئا تُعْرَفُ به أنها من الْهَدْيِ ، و أحرم بالعمرة ، ثم صلى ، و أحرم معه بقية الصحابة ، إلا أبا قَتَادَةَ الحارثَ بْنَ رَبْعِيٍّ ، حيث إن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعثه لجمع زكاة بعض المسلمين في الجوار ؛ من أجل توزيعها على من يستحقونها ، ثم أرسله في جماعة عَيْنًا إلى مكان يقال له : (غَيْقَةُ) ، حيث تتواجد هناك قوة من المشركين قد تُشَكِّلُ خطرا على مَوْكِبِ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و بعث النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِشْرَ بْنَ سُفْيَانَ الكَّعْبِيَّ الْخُزَاعِيَّ إلى مكة في مُهِمَّةِ استطلاع ؛ من أجل أن يأتيه بأخبار قريش .

و سار النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بصحابته حتى إذا نزلوا عُسْفَان أدركهم الليل ، فأمرهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالمبيت بها ، و أصابهم تلك الليلة مطر ، فلما أصبحوا و صلى بهم النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صلاة الصبح ، أقبل عليهم بوجهه فقال : (أتدرون ماذا قال ربكم) ؟ فقالوا : (الله و رسوله أعلم) . فقال : (قال الله : أصبح من عبادي مؤمن بي و كافر ، فأما من قال : مُطِرْنَا بِرحمة الله ، و برزق الله ، و بفضل الله ، فهو مؤمن بي ، كافر بالكوكب ، و أما من قال : مطرنا بنجم كذا ، فهو مؤمن بالكوكب كافر بي) .

ثم سار النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى إذا كان بِغَدِيرِ الأَشْطَاطِ ، أَتَاهُ عَيْنُهُ بِشْرُ بنُ سُفْيَان فقال له : (يا رسول الله ، هذه قريش قد سمِعَتْ بِمَسِيرك ، فخرجت معها النساء بأولادها ، و قد جمعوا لك الأحابيش : بني الْمُصْطَلِقِ و بني الهُونِ بْنِ خُزَيْمَةَ ، و بني الحارثِ بنِ عبدِ مَنَاةٍ ، قد لَبِسُوا جلود النمور ، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبدا ، و هذا خالد بن الوليد في خيلهم ، قدموا إلى كُرَاعِ الْغَمِيمِ ، و هم مقاتلوك ، و صادُّوك عن البيت ، و مانعوك) . فقال رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا ويح قريش ، لقد أَكَلَتْهُمُ الحربُ ، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني و بين سائر الناس ، فإن أصابوني ، كان الذي أرادوا ، و إن أظهرني الله عليهم ، دخلوا في الإسلام و هم وافرون ، و إن لم يفعلوا ، قاتلوا و بهم قوة ، فماذا تظن قريش ، و الله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له ، حتى يُظْهِرَه الله له ، أو تنفرد هذه السالفة) . ثم قال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أشيروا علي أيها الناس ، أترون أن أميل إلى عيالِ و ذَرارِيِّ هؤلاء الذين أعانوهم فنَسْبِيهِم ، فإن قعدوا قعدوا مَوْتُورِين مَحْرُوبين ، و إن يجيئوا تكن عُنُقًا قطعها الله ، أم ترون أن نَؤُمَّ البيتَ ، فمن صدنا قاتلناه) . فقال أبو بكر : (يا رسول الله ، خرجتَ عامدا لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ، و لا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه) . فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (امضوا على اسم الله) . و بعث النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ الْخُزَاعِيَّ إلى مكة ، ليُطَمْئِنَ قريشا حول نزول النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مكة ، و أنه لم يأت إليها مقاتلا ، و إنما جاءها معتمرا ، و حمله على جمل له يقال له : الثعلب ، فلما دخل مكة ، قطعت قريشٌ إحدى قوائم جمل خِرَاش ، و أرادوا قتله ، فمنعهم الأحابش ، و رجع إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فدعا النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عمر ليبعثه إلى مكة ، فقال : (يا رسول الله ، إني أخاف قريشا على نفسي ، و ليس بها مِنْ بَنِي عَدِيٍّ أحدٌ يَمْنَعُنِي ، و قد عرفَتْ قريشٌ عداوتي إياها ، و غِلْظَتِي عليها ، و لكنْ أدلك على رجل هو أعز مني : عثمان بن عفان) . فدعاه رسول الله

صلى الله عليه و آله و سلم ، و بعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، و أنه جاء زائرا لهذا البيت ، مُعَظِّمًا لحرمته ، فخرج عثمان و أتى مكة ، فلقيه أبانُ بن سعيد بن العاص ، فنزل في جواره ، و أتى أبا سفيان و عظماء قريش ، فبلَّغهم عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما أرسله به ، فقالوا لعثمان : (إن شئت أن تطوف بالبيت ، فطف به) . فقال : (ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) . فاحتبسته قريش عندها ، و شاع الخبر بين المسلمين أن عثمان قتل .

و سار النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حتى إذا كان ببعض الطريق ، قال : (إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعةً ، فخذوا ذات اليمين) . فسلكوا ذات اليمين ، بين ظَهْرَيِ الْحَمْضِ ، على طريقٍ تخرجهم على ثَنِيَّةِ الْمُرَار و الحديبية من أسفل مكة ، و هي طريق تقع في مرتفَع من الأرض ، تحاشى النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من خلالها مواجهة قريش ، على الرغم من صعوبتها و وُعُورَتِها ، و رغَّبَ النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صحابته في صعودها ، و قال لهم : (لا يصعد أحدٌ الليلةَ هذه الثنيةَ ثنية الْمُرَار إلا حُطَّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) . فجعل الناس يسرعون و يجوزون ، فكان أول من صعدها خيل بني الخزرج ، ثم تتامَّ النـاسُ ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (كلكم مغفور له ، إلا صاحب الجمل الأحمر) . فأتاه الصحابة فقالوا له : (تعال ، يستغفرْ لك رسولُ الله صلى الله عليه و آله و سلم) . فقال : (و الله لأن أجد ضالتي أحبُّ إلي من أن يستغفرَ لي صاحبكم) . و كان هذا الرجل يبحث عن شيء ما ، فعلم صحابة النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عند ذاك لِمَ حُرِمَ ذلك الرجلُ المغفرة ، و هو أنه جاء مع النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لغرض من أغراض الدنيا ، مع استخفافه بأمر النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و هي من صفات النفاق التي ذكرها الله تعالى بقوله : {وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَوْا رُءُوسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ

وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} .

و لما رأت طليعةُ خالدٍ غبارَ جيش المسلمين ، استقبلوهم ، و قد أَدْرَكَتْهُم صلاة الظهر بين ضَجْنَانَ و عُسْفَانَ ، فصلى النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأصحابه ، فقال المشركون بعد أن رأَوْا صلاة المسلمين : (قد كانوا على حال لو أصبنا غِرَّتَهُمْ) . فقال بعضهم : (إن لهؤلاء صلاةً ، هي أحب إليهم من أبنائهم و أنفسهم ، و هي العصر ، فأجمِعوا أمركم ، فميلوا عليهم ميلة واحدة) . فأنزل الله تعالى على النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مشروعية صلاة الخوف بين الظهر و العصر ، في قوله تعالى : {وَ إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} . فقسم النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أصحابه إلى طائفتين : طائفةٍ وقفت تجاه العدو بأسلحتها ، و طائفةٍ وقفت وراءه ، فصلى بالتي وراءه ركعة ، ثم قام إلى الركعة الثانية ، فقامت معه الطائفة التي وراءه ، و أتموا لأنفسهم الصلاة ، و بقي النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قائما ، حتى التحقت به الطائفة التي بإزاء العدو ، و قامت مقامها التي كانت وراء النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فصلى النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الركعة الثانية بالطائفة الملتحقة به ، و لما سلم أتمت هذه الطائفة الركعة الثانية ، و لما تعذر على المشركين الغدر بالمسلمين ، رجعوا سراعا إلى قريش ينذرونهم مسير النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إليهم ، و قد كفى الله تعالى المسلمين شرهم .

و لما انتهى النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى مُنْحَدَرِ الثَّنِيَّةِ ، بَرَكَتْ ناقته ، فأخذ الناسُ يزجرونها ، فأَلَحَّتْ على البُروك ، فقالوا : [عَصَتِ القصواءُ] ، و

القصواء هو اسم ناقة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقال صلى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : [ما عَصَتِ القصواء ، و ما ذاك لها بِخُلُق ، و لكن حبسها حابس الفيل عن مكة] . ثم قال صلى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و الذي نفسي بيده لا تَدْعُوني قريش اليوم إلى خُطَّةٍ يُعَظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) . ثم زجر ناقته فقامت ، و أكمل مسيره حتى وصل إلى حُفَيْرَةٍ فيها ماء قليل ، فَتَدَاكَّ الناسُ عليها ، حتى لم يبق بها شيء ، و بقي كثير من المسلمين عطْشَى ، فشَكَوْا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ العطشَ ، فدعا بماء فمضمض ، و مج في البئر ، فما هي إلا لحظات حتى امتلأ البئر ، و استقى منه الجميع حتى رووا ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ الْخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِنْ قومه من خُزَاعَةَ ، و كانوا أهل نُصْح لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من أهل تِهَامة ، فقال : (إني تركت كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ ، و عامرَ بْنَ لُؤَيٍّ نزلوا مياه الحديبية ، و هم مقاتلوك و صادوك عن البيت) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (إنا لم نجئ لقتال أحد ، و لكنا جئنا معتمرين ، و إن قريشا قد نَهَكَتْهُمُ الحربُ ، و أَضَرَّتْ بهم ، فإن شاءوا صالَحْتُهم مدةً ، و يُخَلُّوا بيني و بين الناس ، فإن أَظْهَرُ ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، و إلا فقد استراحوا من القتال ، و إن هم أبوا ، فوالذي نفسي بيده ، لأقاتلنهم على أمري هذا ، حتى تُقْطَع عنقي ، أَوْ لَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمره) . فقال بُدَيْلٌ : (سأبلغهم ما تقول) .

و لما انصرف بُدَيْلٌ بعد أن وصف للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ موقف قريش ، و بعد أن شاع في الناس مقتلُ عثمان ، استعد النبي صلى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للأسوإ ، فدعا الناس إلى بيعته ، فبايعوه تحت شجرة الرضوان على الصبر و عدم الفرار ، و بايعه بعضهم على الموت ، منهم عبد الله بن زيد ، ثم ضرب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بإحدى يديه على الأخرى لعثمان ، و قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (هذه لعثمان) . فكان الصحابة يرون يد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لعثمان خيرا من أيديهم .

و في هذه البيعة أنزل الله تعالى قوله : {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنَ اَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَنُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} .

و قال تعالى فيها أيضا : {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَاخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُومِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدَ اَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الادْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23)} .

و لما أتى بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ قريشا قال : (إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، و سمعناه يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا) . فقال سفهاؤهم : (لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء) . و قال ذَوُو الرأيِ منهم : (هات ما سمعته يقول) . فقال : (يا معشر قريش ، إنكم تعجلون على مُحَمَّد ، و إن مُحَمَّدا لم يأت لقتال ، إنما جاء زائرا لهذا البيت ، معظما لحقه) . فقال بعضهم : (و إن كان إنما جاء لذلك ، فلا و الله ، لا يدخلُها أبدا علينا عَنْوَة ، و لا تتحدث بذلك العرب) . ثم بعثوا إليه مِكْرَزَ بنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخْيَفِ ، أحدَ بني عامر بن لُؤَيٍّ ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، قال : (هذا رجل غادر) . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، كلَّمه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بمثل ما كلم به أصحابه ، ثم رجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، ثم بعثوا إليه الْحِلْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ الكِنانِي ، و هو يومئذ سيد الأحابش ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال : (هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدي في وجهه) . فبعثوا الهدي ، فلما رأى الهدي يسيل عليه مِنْ عُرْضِ الوادي في قلائده ، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله ، رجع ، و لم يصل إلى رسول الله صلى

الله عليه و آله و سلم إعظاما لما رأى ، و لما جاء قريشا قال لهم : (يا معشر قريش ، قد رأيتُ ما لا يحل صدُّه : الهديَ في قلائده ، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله) . فقالوا : (اجلس ، إنما أنت أعرابي لا علم لك) . فقام عروة بن مسعود الثقفي ، فقال : (يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى مُحَمَّد إذا جاءكم ، من التعنيف و سوء اللفظ ، و قد عرفتم أنكم والد و أني ولد ، و قد سمعتُ بالذي نابكم ، فجمعتُ من أطاعني من قومي ، ثم جئت حتى آسَيْتُكُم بنفسي) . فقالوا : (صدقت ، ما أنت عندنا بِمُتَّهَم) . فقال : (فإن هذا قد عَرَضَ لكم خُطَّةَ رُشْدٍ ، اقبلوها و دعوني آتيه) . فقالوا : (ائته) .

و في تلك الأثناء الْتَحَقَ بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو في طريقه إلى مكة مجموعة من العبيد ، بعد أن سمعوا بقدوم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فكتب إليه مواليهم فقالوا : (يا مُحَمَّد ، و الله ما خرجوا إليك رغبة في دينك ، و إنما خرجوا هربا من الرِّق) . فقال ناس ممن كان مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (صدقوا يا رسول الله ، رُدَّهُم إليهم ، فغضب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و قال : (ما أراكم تنتهون يا معشر قريش ، حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا) . فأبى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يردهم ، و قال : (هم عتقاء الله عز و جل) .

وجاء عروة بن مسعود رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فجعل يكلمه ، فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم مثل قوله لبُدَيْلٍ ، فقال عُرْوَةُ عند ذلك : (أَيْ محمدُ ، أرأيت إنِ استأصلتَ أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قَبْلَك ، و إن تكن الأخرى ، فوالله إني لأرى وجوها ، و أرى أَوْباشًا مِنَ الناس ، لكأني بهم قد انكشفوا عنك غدا) . فسبه أبو بكر ، و قال له : (أنحن نَفِرُّ عنه و نَدَعُه) ؟ فقال : (من هذا يا مُحَمَّد) ؟ قال : (هذا ابن أبي قحافة) . فقال : (و الله لولا يد كانت لك عندي لَمْ أَجْزِكَ بها لأجبتك ، و لكن هذه بها) . و استمر في الحديث مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و المغيرة بن شعبة قائم

على رأس رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و معه السيف ، و عليه المغفر ، و في أثناء الحديث ، أخذ عروةُ بلحية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فضرب المغيرة يده بحد السيف ، و قال : (أَخِرْ يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه و سلم قبل و الله أن لا ترجع إليك) . فرفع عروة رأسه ، فقال : (ويحك ما أَفَظَّك و أغلظك) . فتبسم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال له عروة : (من هذا يا مُحَمَّد) ؟ فقال : (هذا ابن أخيك ، المغيرة بن شعبة) . فقال : (أَغُدَرُ ، هل غسلتَ سوأتك إلا بالأمس) ؟ و كان المغيرة قد صحب قوما في الجاهلية ، فقتلهم و أخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أما الإسلام فقد قبلناه ، و أما المال ، فإنه مالُ غَدْرٍ ، لا حاجة لنا فيه ، و لستَ منه في شيء) .

و بعد أن قضى عروة حديثه مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، قام من عند رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و رجع إلى قريش فقال لهم : (يا معشر قريش ، و الله لقد وَفَدْتُ على الملوك ، و وفدت على قَيْصَر و كِسْرى و النجاشي ، و الله ما رأيت مَلِكًا قَطُّ يُعظمه أصحابه ما يُعَظِّمُ أصحابُ محمدٍ مُحَمَّدا ، و الله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فدلَك بها وجهه و جِلْدَه ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، و إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، و إذا تكلموا ، خفضوا أصواتهم عنده ، و ما يَحُدُّون إليه النظر تعظيما له ، فلقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، و إنه قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها) .

و بعد أن تأكدت قريش من نية النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، بعثت إليه سهيلَ بنَ عمروٍ أحدَ بني عامر بن لُؤَيٍّ ، و قالوا له : (ائت مُحَمَّدا فصالحه ، و لا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عَنْوَةً أبدا) . فأتى سهيل بن عمرو النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال : (لقد سهَّل اللهُ أمركم ، قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل) . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و

سلم ، تكلما معا ، و أطالا الكلام ، و تراجعا ، حتى جرى بينهما الصلح ، فلما الْتَأَمَ الأمرُ ، و لم يبق إلا الكتاب ، قال سهيل بن عمرو : (هاتِ اكتُبْ بيننا و بينكم كتابًا) . فدعا النبي صلى الله عليه و آله و سلم الكاتب ، و كان كاتب الكتاب يوم الحديبية علي بن أبي طالب ، فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اكتب : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمن الرحيمِ) . فقال سهيل : (أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ و لكن اكتب باسمك اللهم) . فقال المسلمون : (و الله لا نكتبها إلا : بسم الله الرحمن الرحيمِ) . فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (اكتب : باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه مُحَمَّد رسول الله سهيلَ بن عمرو) . فقال سهيل بن عمرو : (و الله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت و لا قاتلناك ، و لكن اكتب اسمك و اسم أبيك : محمدَ بْنَ عبدِ اللهِ ، امْحُهْ) . فقال سيدنا علي : (و الله لا أمحاه أبدا) . فلما أقسم سيدنا علي ، بَرَّ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قسمه ، فأمره صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يُرِيَهُ موضع كلمة : (رسول الله) ، من الكتاب ، فأراه الموضع ، فمحاه النبيُّ صلى الله عليه و آله و سلم بيده الشريفة ، ثم قال لعلي : (أما إن لَكَ مثلهَا ستأتيها ، وَ أَنت مُضْطَر) . ثم قال : (اكتب : هذا ما اصطلح عليه مُحَمَّد بن عبد الله و سهيل بن عمرو) . و اتفقوا على ما يلي :

1 . تركِ الحرب عشرَ سنين بين الطرفَين المتعاهدَين .

2 . منع الاعتداء بجميع أشكاله بينهما .

3 . منع السرقة و النهب و قطع الطريق بينهما .

4 . ترك الخيانة و الغدر بجميع أشكالهما بينهما .

5 . ترك الثأر و الانتقام و المؤاخذة بما كان بين الطرفين فيما مضى .

6 . إعطاء الحرية للقبائل المجاورة في التحالف مع أَحَدِ المتعاهدَين ، على أن القبيلة التي تنضم إلى أيِّ الفريقَين جزء من ذلك الطرف ، فأي عدوان تتعرض له من الطرف الآخر يعتبر عدواناً على حليفها .

7 . عدم دخول المسلمين إلى مكة هذا العام .

8 . عند الدخول إلى مكة بعد هذا العام ، لا يستطيع المسلمون الإقامة في مكة أكثر من ثلاثة أيام .

9 . عند الدخول إلى مكة بعد مرور عام الصلح ، لا يستطيع المسلمون الدخول إلى مكة إلا و سيوفهم مُغْمَدَة ، و ليس معها غيرها مما لا يحمله المسافر من أنواع السلاح .

10 . عند الدخول إلى مكة بعد مرور عام الصلح ، لا يحق للمسلمين أن يُخْرِجُوا معهم أحدا من أهل مكة ، و أن لا يمنعوا من أصحابه أحدا ، إن أراد أن يقيم بها .

11 . من أتى رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم من المسلمين بغير إذن وليه ، ردَّه عليهم ، و من أتى قريشا ممن كان مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يردوه عليه .

و لما كتب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هذا البَنْدَ ، دخل الناسَ مِنْ ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا أن يَهلِكُوا ، و قال بعضُ الصحابة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا رسول الله ، أنكتب هذا) ؟ قال : (نعم ، إنه مَنْ ذهب منا إليهم فأبعده الله ، و من جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا و مخرجا) . و بينما هم كذلك ، إذ دخل أبو جَنْدَلِ بنُ سهيلِ بْنِ عَمْرٍو يَجُرُّ قيوده ، و قد خرج من أسفلِ مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فلما رأى سهيلٌ ابنَه أبا جَنْدَلٍ ، قام إليه ، فضرب وجهه ، ثم قال : (هذا يا مُحَمَّد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي) . فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (إنا لم نَقْضِ الكتابَ بَعْدُ) ! فقال : (فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبدا) . فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (فأَجِزْهُ لي) . فقال : (ما أنا بِمُجِيزِهِ لك) . فقال : (بلى فافعل) . فقال : (ما أنا بفاعل) . فقام إلى ابنه سهلٍ ، و جمع ثيابه عند صدره و نَحْرِهِ ، ثم أخذ يجره ، فصرخ أبو جندل بأعلى صوته : (يا معاشر المسلمين ، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني ، و قد جئت مسلما ، ألا ترون ما قد لقيت) ؟ و كان قد عُذِّبَ عذابا شديدا في الله ، فزاد

الناسَ شرا إلى ما بهم ، و قالوا : (سبحان الله ، كيف يُرَدُّ إلى المشركين ، و قد جاء مسلما) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (يا أبا جندل اصبر و احتسب ، فإن الله عز و جل جاعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجا و مخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا و بين القوم صلحا ، فأعطيناهم على ذلك ، و أعطونا عليه عهدا ، و إنا لن نغدر بهم) . فقال عمر بن الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ألستَ نبيَّ اللهِ حقا) ؟ فقال : (بلى) . فقال : (ألسنا على الحق ، و عدوُّنا على الباطل) ؟ فقال : (بلى) . فقال : (أليس قتلانا في الجنة ، و قتلاهم في النار) ؟ قال : (بلى) . فقال : (فلِمَ نُعْطِي الذلة في ديننا إذا) ؟ فقال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إني رسول الله ، و لست أَعْصِيهِ ، و هو ناصري) . فقال له عمر : (أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به) ؟ فقال : (بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام) ؟ قال : (لا) . فقال : (فإنك آتيه و مُطَّوِّفٌ به) . فرجع متغيظا ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال له : (يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا) ؟ فقال : (بلى) . قال : (ألسنا على الحق و عدوُّنا على الباطل) ؟ قال : (بلى) . قال : (فلِمَ نعطي الذلة في ديننا إذا) ؟ قال : (أيها الرجل إنه لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، و ليس يعصي ربه ، و هو ناصره ، فاستمسك به ، فوالله إنه على الحق) . فقال : (أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت و نَطُوفُ به) ؟ قال : (بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام) ؟ قال : (لا) . قال : (فإنك آتيه و مُطَّوِّفٌ به) .

و كما كان بعض الصحابة ضد تلك البنود التي وردت في المعاهدة ، كان بعض المشركين أيضا ضد تلك المعاهدة التي كانت بين النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و بين قريش بأكملها ، و هم بدون شك أولئك الذين يعتبرون هذا الصلح خطرا على محور الشر ، الذي لا يقوم إلا على الحرب الدائمة مع أهل الحق ، و قد حاولت هذه الأطراف الخفية إفشال الصلح ، من خلال غارة نفذها جماعة من المشركين ، باغتوا فيها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و من كان حوله ، لولا سرعةُ انقضاض الصحابة عليهم ، و نهوضهم إليهم ، و لولا الحكمةُ التي أبداها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ

آلِهِ وَ سَلَّمَ معهم حيال هذا الغدر ، حيث إن النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عفا عنهم ، و أطلق سراحهم ، و لم يؤاخذهم بما فعلوه ، بغية استتمام ما أبرمه مع المشركين ، و الحفاظ على المكاسب التي سيحققها إذا نجح الصلح .

و لما فرغ النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من المعاهدة ، قال صلى الله عليه و آله و سلم لأصحابه : (قوموا فانحروا ثم احلقوا) . فحلق بعضهم ، و اكتفى البعض الآخر بالتقصير دون الحلق ، فلما رأى النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذلك قال : (يرحم الله المحلقين) . فقالوا : (و المقصرين يا رسول الله) ؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (يرحم الله المحلقين) . فقالوا : (و المقصرين يا رسول الله) ؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (يرحم الله المحلقين) . فقالوا : (و المقصرين يا رسول الله) ؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (و المقصرين) . فقالوا : (يا رسول الله ، فما بال المحلقين ظاهَرْتَ لهم الترحم) ؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (إنهم لم يَشُكُّوا) .

ثم سار النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى إذا كان بين مكة و المدينة في وسط الطريق ، نزلت سورة الفتح ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على عمر إلى آخرها ، و من ذلك قوله تعالى : {وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنَ اَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفًا اَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْلَا رِجَالٌ مُومِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُومِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُومِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّويَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} .

فقال عمر : (يا رسول الله ، أَوَفَتْحٌ هـو) ؟ فقـال : (نعـم) . و كان عمـر بعـد هذه الحادثة يقول : (و الله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، و ما زِلْتُ أصوم و أتصدق و أصلي و أُعتق مِنَ الذي صنعت ، مخافةَ كلامي الذي تكلمت به يومئذ ، حتى رجوت أن يكون خيرا) .

و مَا إن سَمِعَتْ قبيلةُ خزاعةَ بالمعاهدة التي كانت بين النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و بين قريش ، حتى قالوا : (نحن مع عقد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و عهده) . و تواثبت بنو بكر ، فقالوا : (نحن في عقد قريش و عهدهم) .[134]

العودة إلى المدينة

و بعد أن رجع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة ، التحق به مِنْ مكة مجموعة من النساء اللاتي هَرَبْنَ بدينهن من المشركين ، و كانت من بينهن : أم كُلْثُومٍ بِنْتُ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ ، حيث خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم زَمَنَ الْهُدْنَةِ ، و هي عاتق ، فجاء أهلها يسألون النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يُرْجِعها إليهم ، فلم يرجعها إليهم ، بناء على عدم شمول وثيقةِ المعاهدة لعنصر النساء ، و أنزل الله فيهن قوله : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} . فكان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إذا أتته المرأة لتسلم حَلَّفَها بالله : أنها ما خرجتْ مِنْ بُغْضِ زوجها ، أو التماسِ دنيا ، أو رغبةً عن

[134] [النساء: 102][الفتح: 10 ـ 27][المنافقون : 5 ـ 6][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 147/4 ـ 313][فتح الباري لابن حجر / دار المعرفة / 1379 هـ ـ 500/7][جامع البيان / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1420 هـ ـ 577/3][تاريخ ابن أبي خيثمة ـ السفر الثالث / الفاروق الحديثة للطباعة والنشر / ط 1 / 1427 هـ ـ 14/2 ـ 17][معرفة الصحابة لأبي نعيم / دار الوطن للنشر / ط 1 / 1419 هـ ـ 1640/3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 169/1 ـ 3/3 ـ 12 ـ 13 ـ 184 ـ 185 ـ 188 ـ 193 ـ 50/4 ـ 103 ـ 193 ـ 5/ 15 ـ 121 ـ 123 ـ 125 ـ 126 ـ 129 ـ 141 ـ 136/6][صحيح ابن خزيمة / المكتب الإسلامي / ط 3 / 1424 هـ ـ 1366/2][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 83/1 ـ 1409/3 ـ 1411 ـ 1433 ـ 1442 ـ 1483 ـ 1484 ـ 2144/4][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 288/9][مصنف عبد الرزاق الصنعاني / المكتب الإسلامي / ط 2 / 1403 هـ ـ 330/5 ـ 342][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 337/5 ـ 445/16 ـ 120/27 ـ 355 ـ 212/31 ـ 213 ـ 215 ـ 216 ـ 217 ـ 218 ـ 219 ـ 220 ـ 236 ـ 248 ـ 249 ـ 250 ـ 251][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 225/57][كشف الأستار عن زوائد البزار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1399 هـ ـ 337/2][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 265/10 ـ 482/7][أخبار مكة للفاكهي / دار خضر / ط 2 / 1414 هـ ـ 41/5][الأدب المفرد / دار البشائر الإسلامية / ط 3 / 1409 هـ ـ ص 315][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - مُحَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 337/4 ـ 393 ـ 397][تفسير القمي / مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر / ط 3 / 1404 هـ ـ 312/2][بحار الأنوار / مؤسسة الوفاء / بيروت / ط 2/ 1403 هـ ـ 367/20]

أرض إلى أرض ، و أنها ما خرجتْ إلا حبا لله و رسوله ، و أمَرَ الله تعالى من تزوج امرأة هربت بدينها من أهل الشرك ، أن يعطي لزوجها السابقِ مهره الذي أصدقها إياه فقال : {وَ آتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا} . و أمر سبحانه المسلمين أن يُطَلِّقوا نسائهم الكافرات فقال : {وَ لَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} . و لما نزلت هذه الآية ، طلق عمر يومئذ امرأتين ، كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، و الأخرى صَفْوان بن أُمَيَّة ، ثم شرع الله تعالى للمسلمين أن يطالبوا بصداق من فَرَّتْ من نسائهم إلى أهل الشرك فقال : {وَ اسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ} . و شرع للمشركين المطالبة بمهورهم التي بذلوها لنسائهم اللاتي فررن بدينهن إلى المدينة فقال : {وَ لْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا} .[135]

الزواج بأم حبيبة رملة بنت صخر أبي سفيان

و تزوج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأم حبيبة رمْلةَ بنتِ صَخْرٍ أبي سفيان ، بعد وفاة زوجها عبيد الله بن جحشٍ عنها في الحبشة ، زوجه إياها النجاشي ، و أمهرها عنه أربعة آلاف ، و تولى أمر جَهَازِهَا كله ، وبعث بها إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع شرحبيل بن حسنة .[136]

[135] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 188/3 ـ 193 ـ 197][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 394/4][بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث / مركز خدمة السنة والسيرة النبوية / ط 1/ 1413 هـ ـ 730/2][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 575/22][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 257/31]

[136] [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 385/13][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 398/45][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 445/3]

غزوة خيبر

و بعد أن أَمِنَ النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ جانب قريش ، و استوثق للمسلمين الأمان من جهتهم ، إذا به يفاجؤ في رجوعه إلى المدينة ، أن جماعة من بني فَزَارَةَ قد أغاروا على إبله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلَحِقَهم سلمة بن الأكوع ، و جعل يرميهم بالنِّبال ، إلى أنِ التحق به جماعة من صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فاسترجعوا منهم جميع إبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و حينها تأكد للنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مرة أخرى ، ضرورة العَوْدِ إلى مَا بدأه قبْل عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ بَسْطِ السَيْطَرَةِ على القبائل الغادرة ، و القرى الْمُتَمَرِّدَة ، و التي لا تلتزم بعهد ، و لا تعترف بميثاق ، و لا سيما الذين شاركوا في العدوان على المدينة المنورة من خلال الحلف الذي أنشأه كبار رؤوس اليهود آنذاك ، و كان من بين هؤلاء الرؤوس : كِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ و من أعانه من اليهود المتواجدين في خيبر ، فقرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ البدء بخيبر ، و تأديبَ مَنِ اتخذ مِنْ خيبر مركزا لعداوة دعوة الحق ، و مشى إلى خيبر بعد رجوعه من الحديبية بثلاثة أيام ، و استخلف سِبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ على المدينة ، حتى إذا وصلوا إلى خيبر ليلا ، أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المسلمين بالمبيت قريبا منها ، و في تلك الليلة قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لَأُعْطِيَنَّ الرايةَ غدا رجلا يفتح الله على يديه) . فبات الناس لَيْلَتَهُم يخوضون في أيهم يُعْطاها ، فلما أصبح الناسُ غدَوا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أين علي بن أبي طالب) ؟ فقالوا : (يشتكي عينيه يا رسول الله) . فقال : (فأرسلوا إليه ، فأتوني به) . فلما جاء نفث في عينيه و دعا له ، فَبَرَأَ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، و قال له : (امش ، و لا تلتفت ، حتى يفتحَ الله عليك ، و ادعهم إلى الإسلام ، و أخبرهم بما يجب عليهم ، فوالله لَأَن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلا ، خيرٌ لك مِنْ أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم) . فسار سيدنا علي قليلا ثم وقف ، و لم

يلتفت أدبا مع الأمر النبوي ، ثم صرخ قائلا : (يا رسول الله ، على ماذا أقاتل الناس) ؟ فقال : (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، و أن مُحَمَّدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد منعوا منك دماءهم و أموالهم ، إلا بحقها و حسابهم على الله) .
أراد سيدنا علي أن تكون نيته على الأكمل الذي ينبغي أن تكون عليه ، فانطلق سيدنا علي إلى يهود خيبر ، و أبلغهم رسالة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و دعاهم إلى الإسلام ، فرفضوا دعوته ، و أبوا إلا القتال ، و أخرجوا جيشهم ، حتى إذا تَصَافَّوْا ، خرج أحد شجعانهم ، و هو مَرْحَبُ بْنُ الحارث الْحِمْيَرِيُّ ، يتمايل في مشيته ، رافعا سيفه ، و هو يقول :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ✯ شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إِذَا الْحُـرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

ثم دعا المسلمين إلى المبارزة ، فخرج إليه عامر بن الأكوع ، فأخذ يرتجز و يقول :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِـرُ ✯ شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ

فأخذا في المبارزة ، حتى إذا اختلفا ضربتين ، وقع سيف مرحب في تُرْسِ عامر فَلَصِقَ به ، فضربه عامر بسيفه على رجليه فلم يصبه ، و رجع سيف عامر عليه ، فقطع أَكْحَلَه ، فسقط عامرُ بن الأكوع على الأرض يتشحط في دمه ، و إذا باليهود يستبشرون و يفرحون لمقتل عامر ، و هَمَدَ المسلمون ينظرون بالحزن و الأسى ؛ لمقتل أخيهم عامر ، حينها قرر سيدنا علي أن يتقدم هو بنفسه لمواجهة بطل اليهود مرحب ، فخرج إليه سيدنا علي و هو يرتجز بقوله :

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْـدَرَهْ ✯ كَلَيْـثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَـرَهْ
أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّـنْدَرَهْ

و تقدم إليه ، فما هي إلا لحظات حتى فَلَقَ رأسه ، ثم لم يلبث أنِ احتدم القتال ، و تشاكبت الصفوف بين المسلمين و اليهود ، و أخذ المسلمون يتقدمون إلى الحصن شيئا فشيئا ، حتى انهزم اليهود ، و فروا إلى حصنهم ، فدخلوه و أغلقوا

عليهم الباب ، فحاصره المسلمون ، فما كان لحصارهم من جدوى ، فلم يـزل المسلمون يعالجون سور الْحِصْن حتى ثَلَمُوا ثَلْمَةً فيه ، فـاقتحموا الحـصن منهـا ، فقـاتلهم اليهـود داخل الحصن ، و وقع داخلَه قتالٌ عنيف ، أبلى فيه المسلمون بلاء حـسنا ، و كان من المقاتلين الذين أعجب بهم المسلمون في خيبر : رجلٌ مـسلم ، ذَكَـرَ الـصحابةُ عنـد النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ شجاعته و بسالته في قتال اليهود ، فقـال لهـم النـبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) . ففزعـوا لذلك ، و كاد بعـض المسلمين أن يرتاب ، و أحب بعض الصحابة أن يتأكـد مـن الأمـر بنفسه ، فـسارع إلى الرجل يراقبه عن كثب و لا يفارقه ، و بعد أن قاتل الرجل اليهود أشـد القتـال ، إذا به يصاب بجراح أسقطته أرضا ، و أخذ يتألم على إثرها من شدتها ، و لما طالـت به آلام الجراح ، أخذ سهما من كنانته فقتل نفسه ، فاشـتد ذلك الصحابي إلى رسـول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يركض هائما على وجهه ، حتى إذا جاء النبيَّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قال له : (أشـهد أنك رسـول الله) . فقـال له النبي صـلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و ما ذاك) ؟ فأخبره ، فقال صلى اللّهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ : (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ، فيما يبدو للناس ، و إنه لمـن أهـل النـار ، و يعمـل بعمل أهل النار ، فيما يبدو للناس ، و هـو مـن أهـل الجنـة) . ثم نادى النـبي صـلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِلالا ، فقال : (يا بلال ، قم فأذن : لا يـدخل الجنـة إلا مـؤمن ، و إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) .

و هكـذا اشـتد القتـال بـين المـسلمين و اليهـود ، و أخـذ يتـساقط كل مـن تصدى للمسلمين داخلَ الحصن ، الواحدُ تلو الآخر ، حتى استـسلم اليهـود في آخـر المطاف ، و ألقوا أسلحتهم .

و بعـد انتهـاء المعركـة ، حـكم فـيهم رسـول الله صَـلَّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ بالنَّفْي و الجلاء ، على أن لهم ما أطاقت حَمْلَه مراكبُهم ، دون الذهـب و الفـضة ، و على أن لا يكتموا و لا يُغَيِّبُوا من ذلك شيئا ، فإن فعلوا ، فلا ذِمَّة لهم و لا عـصمة ، فَغَيَّبُوا كنزا فيه مال و حلي لِحُيَيِّ بن أخطب ، كان قد احتمله معه إلى خيـبر ، حـين

نُفِيَ بنو النضير ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لِسَعْيَةَ بنِ عمرو عَمِّ حُيَيٍّ : (ما فعل مَسْكُ حيي الذي جاء به من النضير) ؟ فقال : (أذهبَتْه النفقات و الحروب) . فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (العهد قريب ، و المال أكثر من ذلك) . فدفعه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى الزبير بن العوام ، فمسه بعذاب ، فقال : (قد رأيت حُيَيًّا يطوف في خَرِبَةٍ هاهنا) ، فذهبوا إليها ، و بحثوا عنه ، فوجدوه في تلك الخَرِبَة ، فأمر رسولُ الله صلى الله عليه و آله و سلم بقتل مُجْرِمَي الحرب الذَيْنِ أَخْفَياهُ : كِنَانَةَ و حُيَيّ ابنَي الرَّبِيع بنِ أبي الْحُقَيْق ، سَيِّدَيْ اليهود ، و قائِدَيْهِم ، بعد أن عفا عن المقاومة التي أَبْدَيَاهَا ضده في غزوة الأحزاب و الخندق ، و سبى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ذرارِيَّهم و نساءَهم .

الزواج بصفية بنت حيي

و خيَّر النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سيدة اليهود صفيةَ بنت حيي امرأةَ كنانةَ بين أن يُعْتِقَهَا و تكونَ زوجتَه ، أو تلحق بأهلها ، فاختارت أن يُعْتِقَهَا و تكون زوجته ، فأعتقها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و تزوجها إكراما و تشريفا لها ، و حفاظا على مكانتها ، و تأليفا لقلوب قومها ، و أولم لها في عرسها وليمة متواضعة ما فيها خبز و لا لحم ، حيث دعا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الناس قائلا : (من كان عنده فضل زاد ، فليأتنا به) . فجعل الرجل يجيء بفضل التمر ، و فضل السَّوِيق ، حتى جمعوا من ذلك شيئا كثيرا ، فخلطوه ، و جعلوا يأكلون منه ، و يشربون من حياض إلى جنبهم من ماء السماء .

و أهدت يهودية إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لحم شاة مشويةٍ فيها سم ، فلما أكل منها هو و جماعة من أصحابه ، علم أنها مسمومة ، فأمر أصحابه بالكف عن الأكل ، و أرسل إليها ، فلما جيء بها ، قال لها : (ما حَمَلَكِ على ما صنعت) ؟ فقالت : (أردت أن أعلم إن كنت نبيا ، فسيطلعك الله عليه ، و إن كنت كاذبا ، نريح الناس منك) . فقيل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أَلَا

نَقْتُلُهَا) ؟ فقالَ : (لَا) . فعفا عنها النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و لم يعاقبها ، غير أنه لما توفي بِشْرُ بْنُ البراء إِثْرَ أكله من تلك الشاة ، أمر صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بإقامة حد القتل عليها قصاصا .

و لما أراد النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يجلي سائر اليهود ، عرضوا عليه مصالحته ، على أن يقوموا بزراعة أراضيهم التي أفاء الله على المسلمين ، و الاعتناء بها و إصلاح بساتينها ، و لهم نصفُ غَلَّتِها ، و للمسلمين النصف الآخر ، فقبِل النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَرْضهم ، و قسم أرضهم و نِصْفَ غَلَّتِها على من شارك في غزوة الحديبية ، كما أمر الله في قوله تعالى : {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَاخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُومِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} . و كان الجيشُ ألفا و خمسَ مِائَةٍ ، فيهم ثلاثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، و أعطى الراجل سهما .[137]

الرجوع إلى المدينة

و لما رجع رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة ، وجد بها مجموعةً من المسلمين الجدد ، و كان من بينهم أبو هريرة ، و كذلك أبو موسى الأشعري ، في جماعة من قومه الذين هاجروا معه من اليمن إلى الحبشة ، فالتحقوا بالمدينة مع جعفر بن أبي طالب و من كان معه بالحبشة من المسلمين ، فوجدوا النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في خيبر ، فأعطاهم النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من غنائم خيبر ، و ما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئا .

[137] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1433/3 ـ 107/1 ـ 1047/2 ـ 1721/4 ـ 1871][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 15/2 ـ 107/3 ـ 24/4 ـ 36 ـ 48 ـ 60 ـ 99 ـ 18/5 ـ 130 ـ 132 ـ 133 ـ 134 ـ 124/8][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 621/4 ـ 628 ـ 567/6][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 607/11][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 179/5 ـ 226/14 ـ 19/ 391/20 ـ 401][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 412/7][سنن الدارمي / دار المغني للنشر والتوزيع / ط 1 / 1412 هـ ـ 1605/3][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 396/7][مسند الروياني / مؤسسة قرطبة / ط 1 / 1416 هـ ـ 79/1][الطبقات الكبرى / دار صادر / ط 1 / 1968 م ـ 200/2][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 122/4][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 260/4][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 70/19][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 422/7]

و لما سمع الأعراب الذين تخلفوا عن الحديبية بالغنائم التي أفاء الله بها على المسلمين ، طَمِعُوا في أن يكون لهم نصيب من غَلَّة خيبرَ ، فأقبلوا إليه يسعون ، و لم يستغنوا هذه المرة بطلب الاستغفار منه ، كما في المرة الأولى حينما قالوا له : {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} . و تحقق ما أخبر الله به عنهم ، حينما قال فيهم : {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَاخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا} . فأمر الله نبيه بقوله : {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الاعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُوتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًا} .[138]

تمرد مجموعة من المسلمين على قريش

و بعد مرور مدةٍ على صلح الحديبية ، إذا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم يُفَاجَأ بقدوم أبي بصير مِنْ مكة ، هاربا بدينه إلى دار الإسلام ، فأتبعته قريش برجلين ؛ لإرجاعه على مقتضى المعاهدة التي كانت بينهم ، فدفعه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى الرجلين ، فخرجا به حتى إذا بلغا به ذا الحليفة ، نزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : (و الله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا) . فاستله ذلك المشرك ، فقال : (أجل ، و الله إنه لجيد ، لقد جربت به ، ثم جربت) . فقال أبو بصير : (أرني أنظر إليه) . فأمكنه منه ، فضربه به ضربة أردته قتيلا ، و فر الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حين رآه : (لقد رأى هذا ذُعْراً) . فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال : (قُتِلَ و الله صاحبي ، و إني لمقتول) . فجاء أبو بصير على أثره ، فقال : (يا نبي الله ، قد و الله أوفى الله ذِمَّتَك ، قد رددتني إليهم

[138] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 226/14][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 681/2][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 90/4]

، ثم أنجاني الله منهم) . فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (وَيْ لِأُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ ، لو كان له أحد) . فلما سمع ذلك أبو بصير ، عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى ساحل البحر ، فاستقر هنالك ، و لما سمع به أبو جندل بنُ سهيل ، التحق به ، و هكذا لم يأتِ النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة ، و إن كان مسلما ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فكانوا لا يسمعون بقافلة خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوا أصحابها ، و أخذوا أموالهم ، فلما رأى ذلك كفار قريش ، ركب نفر منهم إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقالوا : (إنها لا تغني مدتك شيئا ، و نحن نُقْتَل ، و تُنْهَبُ أموالنا ، و إنا نسألك أن تُدْخِلَ هؤلاء الذين أسلموا منا في صلحك ، و تمنعهم ، و تحجز عنا قتالهم) . فأرسل النبي صلى الله عليه و آله و سلم إليهم ، فلحقوا بالمدينة .[139]

سرية فَزَارَةَ

و بعد اسْتِحْكَام صلح الحديبية مع قريش ، و القضاء على رؤوس الشر و مجرمي الحرب و مدبري المكائد ضد دولة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، بقيت أمام النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مهمةُ تأديب القبائل الهمجية هنا و هناك ، و التي لا تخضع لنظام ، و لا تنقاد لعهد و لا لمفاوضات ، و لا تعرف إلا القتل و النهب و السلب ، و قطع الطريق و الفوضى ، و إرهاب قوافل الحجيج و التجار ، فقرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بسط السيطرة عليها ، و كان على رأس سلم أولويات النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : قبيلةُ فَزَارَةَ التي أغارت على المدينة ، و نهبت إبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأرسل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ سرية إلى فَزَارَةَ ، و أَمَّرَ عليها أبا بكر ، فقاتل مقاتلتهم ، و سبى نسائهم و

[139] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 188/3 ـ 193 ـ 197][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 394/4][بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث / مركز خدمة السنة والسيرة النبوية / ط 1/ 1413 هـ ـ 730/2][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 575/22][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 257/31]

ذراريِّهم ، و جاء بهم إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فبعث ببعضهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى أهل مكة ، ففدى بهم ناسًا من المسلمين كانوا قد أسروا بمكة .[140]

سرية الْحُرَقَات أو الْحُرَقَة

و أرسل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أسامة بن زيد إلى مَوْضِعِ الْحُرَقَات ، من بلاد جهينة يدعوهم إلى الإسلام ، فأبوا إلا القتال فقاتلهم ، و في المشركين رجل أكثر القتل في المسلمين ، فقصد أسامة غفلته ، فلما رفع عليه السيف قال : (لا إله إلا الله) . فقتله ، و انهزم المشركون ، و لما رجعوا إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، أُخبِرَ النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بصنيع أسامة ، فدعاه فسأله ، فقال : (لِمَ قتلته) ؟ فقال : (يا رسول الله ، أوجع في المسلمين ، و قتل فلانا و فلانا ،، و إني حملت عليه ، فلما رأى السيف قال : (لا إله إلا الله) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أقتلته) ؟ قال : (نعم) . قال : (فكيف تصنع بـ : لا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة) ؟ فقال : (يا رسول الله ، استغفر لي) . فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و كيف تصنع بـ : لا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة) ؟ فجعل لا يزيده على أن يقول : (كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة) . فكان أسامة يقول : (تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) .[141]

---

[140] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1375/3]

[141] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 96/1 ـ 97]

غزوة ذات الرقاع سنة 629 م

و في العام السابع من الهجرة سنة 629 م ، قرر النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يقوم بعملية تمشيط واسعة في قبائل نجد المتمردة ، و كان في هذه الغزوة لكل ستةِ صحابةٍ بعيرٌ يتعاقبون على ركوبه ، حتى حَفِيَتْ نِعَالُهُم من كثرة المشي ، فكانوا يَلُفُّونَ على أقدامهم الْخِرَق ، فسميت الغزوة بذات الرقاع لأجل ذلك ، و لما وصل النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى قبيلةِ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ ، بموضع يسمى (نخلا) ، بين ضَجْنَانَ و عُسْفَانَ ، و هو موضع بين مكة و المدينة ، لَقِيَ جَمْعًا مِنْ غَطَفَانَ ، فلما رأوا النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خافوا مقاومته ، و كفوا أيديهم عن مقاتلته ، فلم يقاتلهم النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و كان أحد أهداف و غايات النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في خروجه إلى نجد : بسط هيبة الدولة الإسلامية في الأماكن المجاورة ، إلا أنه لم يأمن غدر ذلك الجمع ، فصلى بأصحابه صلاة الخوف بذلك الموضع ، و كان ذلك الجمع من غطفان وراءهم ، و ظهور الذين يحرسون المصلين إلى القبلة تجاه العدو .

و التقى النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في خروجه إلى نجد ، قوما من جهينة أبوا إلا قتال النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقاتلوا النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قتالا شديدا ، فقاتلهم النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فتفرقوا عنه و فروا ، إلا أنهم كانوا يراقبونه من بعيد ، حتى إذا صلى المسلمون الظهر قال المشركون : (إن لهم صلاةً بعد هذه هي أحب إليهم من أموالهم و أبنائهم ، لو ملنا عليهم ميلة لاقتطعناهم) . فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ذلك ، فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، و كان المشركون هذه المرة بينهم و بين القبلة .

و بعد تأديب قبائل نجد ، و فرض هيبة الدولة الإسلامية على تلك القبائل الهمجية ، قرر النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الرجوع إلى المدينة ، و لما كان في طريقه إلى المدينة راجعا ، أدركتهم القايلةُ في وادٍ كثير الأشجار الشائكة ، و كانوا إذا

أتوا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ ، تَرَكوها للنبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فنزل رسول الله صلى الله عليه و سلم تحت سَمُرَةٍ ، و علق بها سيفه ، و تفرق الناس عنه يستظلون بالشجر ، حتى إذا نام الجميع ، إذا برجل من المشركين يُقَالَ لَهُ : غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ ، يتسلل خفية إلى المكان الذي ينام فيه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلما وصل إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، أخذ سيفه و سله ، فاستيقظ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و هو في يده ، فقال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أتخافني) ؟ فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لا) . فقال له ذلك المشرك : (فمن يمنعك مني) ؟ فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (الله) . فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، ثم قال له : (من يمنعك مني) ؟ فقال : (كن كخير آخذ) . فقال له صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أتشهد أن لا إله إلا الله) . فقال : (لا ، و لكني أعاهدك أن لا أقاتلك ، و لا أكون مع قوم يقاتلونك) . فخلى سبيله ، فذهب إلى أصحابه ، فقال : (قد جئتكم من عند خير الناس) . [142]

عمرة القضاء العام السابع سنة 629 م

و في العام السابع للهجرة سنة 629 م ، حان موعد قضاء العمرة التي منعهم المشركون منها ، فانطلق النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المسلمون معتمرين إلى مكة ، و قبل وصولهم إلى مكة ، قال المشركون : [يَقْدَمُ عليكم غدا قوم قد أضعفتهم الْحُمَّى ، و لَقُوا منها شدة] . فأطلع الله تعالى نبيه على ما قاله المشركون ، فأمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صحابته أن يَرْمُلُوا ثلاثةَ أشواط ، و هو الإسراع في المشي ؛ ليرى المشركون قوتهم ، و قال لهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : [إن

---

[142] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 39/4 ـ 40 ـ 113/5 ـ 114 ـ 115 ـ 116][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 575/1 ـ 576][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 445/16 ـ 193/23][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 173/3 ـ 174 ـ 176][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 31/3 ـ 32][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 141/1 ـ 142][صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 158/2][شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن / مكتبة نزار مصطفى الباز / مكة المكرمة / الرياض / ط 1 / 1417 هـ ـ 1290/4][مسند أبي داود الطيالسي / دار هجر / ط 1 / 1419 هـ ـ 300/3]

قومكم غدا سيرونكم ،، فلا يرى القوم فيكم عيبا ،، و لْيَرَوْكُمْ أقوياء] . يريد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يعلم أمته إظهار القوة للأعداء ، و التَّعَزُّزَ عليهم ، فقال الصحابة : (يا نبي الله ، لو نحرنا من ظهرنا ، فأكلنا من لحومها و شحومها ، و حَسَوْنَا مِنَ الْمَرَقِ ، أصبحنا غدا إذَا غدونا عليهم و بنا جَمَامٌ) . فقال : (لا ، و لكن إيتوني بما فضل من أزوادكم) . فبسطوا أنطاعا ، ثم صَبُّوا عليها ما فضل من أزوادهم ، فدعا لهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالبركة ، فأكلوا حتى تَضَلَّعُوا شبَعًا ، ثم كفئوا ما فضل من أزوادهم في جُرُبِهِم ، ثم غدوا على القوم ، فلما وصلوا إلى مكة ، اضطبع النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه ، و رملوا كما أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأصيب المشركون بخيبة أمل كبيرة ، و قالوا : (هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهَنَتْهُم ؟ ما يرضون بالمشي ، إنهم ليَنْقِزُون نَقْزَ الغِزْلان) .[143]

الزواج بميمونة

و بعد أن قضى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عمرته ، تزوج ميمونة بنت الحارث ، و هي أخت زوجة العباس عم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، زوجها إياه عمه العباس بن عبد المطلب ، و قد أقام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثلاثة أيام في عمرة القضاء ، فلما كان يوم الثالث ، قالوا لِعَلِيٍّ : (إن هذا آخر يوم من شرط صاحبك ، فمره فليخرج) . فحدثه بذلك ، فقال : (نعم) . ثم أتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش ، فقالوا له : (إنه قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و ما عليكم لو تركتموني فأَعْرَسْتُ بين أظهركم ، فصنعت لكم طعاما فحضرتموه) ؟ فقالوا : (لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا) ، فخرج بميمونة بنت الحارث ، حتى أعرس بها بِمكان يدعى سَرِفا .

[143] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 923/2][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 270/3 ـ 272][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 498/4 ـ 58/5][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 466/14]

و لما هَمَّ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بمغادرة مكة ، لحقت به ابنةُ عمه حمزةَ ، و هي تنادي : (يا عم ، يا عم) . فتناولها علي فأخذ بيدها ، و قال لفاطمة : (دونك ابنةَ عَمِّكِ احمليها) . فاختصم فيها علي و جعفر ابنا أبي طالب و زيد بن حارثة ، فقال علي : (أنا أخذتها ، و هي بنت عمي) . و قال جعفر : (ابنة عمي ، و خالتها تحتي) . و قال زيد : (ابنة أخي) . فقضى بها النبي صلى الله عليه و آله و سلم لخالتها ، و قال : (الخالة بمنزلة الأم) . و قال لعلي : (أنت مني ، و أنا منك) . و قال لجعفر : (أشبهت خَلْقِي و خُلُقِي) . و قال لزيد : (أنت أخونا و مولانا) . [144]

موت أصحمة النجاشي

و في يوم من أيام المدينة الهادئة ، نَعَى النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لصحابته أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيَّ ، صاحبَ الحبشة ، في اليوم الذي مات فيه ، و قال لهم : (مات اليوم عبدٌ لله صالح : أصحمة النجاشي) . فأمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المسلمين أن يصلوا عليه صلاة الغائب ، و خرج بهم إلى المصلى ، فصف بهم ، و قال : (استغفروا لأخيكم) . و كبر عليه أربع تكبيرات . فقال بعض الناس من الذين لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم ، بتحقيق التسليم التام للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يأمرنا أن نستغفر له ، و قد مات بأرض الحبشة) ؟ فنزلت : {وَ إِنَّ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُومِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} .

و من خلال هذا ، يعلمنا الله كيف يكون موقفنا من عظماء الأمة و رموزها ، و أكابر الإنسانية و نماذجها المعروفين بالعدل و الاستقامة و التقوى و الصلاح ، و كيف لا يكون النجاشي من عظماء الدنيا ، و هو الذي عُرِفَتْ عدالته ، و سَطَّر التاريخ

[144] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 184/3 ـ 141/5 ـ 142][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1032/2][مستخرج أبي عوانة / دار المعرفة / ط 1 / 1419 هـ ـ 295/4][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 33/4]

شهادته للنبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بقوله : (إنه و الله لعلى الحق ، و لَيَظْهَرَنَّ على مَنْ خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون و جنوده) .[145]

مكاتبة الملوك

و لما كانت دعوة النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دعوةً عالمية ، كان لبد على النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من إقامة الحجة على جميع الإنسانية ، بما جاء به من عند الله ، و إيصال دعوته إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، فليس الإسلام حكرا على قبيلة دون قبيلة أو منطقة دون أخرى أو جنس دون آخر .

و بعد أن أَمَّنَ النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ طُرَقَ الناس من غدر القبائل الهمجية ، كانت هذه الفترة هي الأنسب لإرسال الرسل إلى الملوك و قادة الدول المجاورة لجزيرة العرب .

و على الرغم من أن الإسلام قد ينتشر عن طريق احتكاك المسلمين بغيرهم ، من خلال العلاقات الاقتصادية و التجارية أو الاجتماعية أو ما إلى ذلك من العلاقات الكثيرة ، إلا أن بعضَ النماذج الطيبة من قادة دول العالم كمثل أَصْحَمَةَ النَّجَاشي ، من الذين قد يُسْلِمُ بإسلامهم الجم الغفير من أقوامهم ، جعل النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يراسل قادة و ملوك الدول و الإمبراطوريات المجاورة لجزيرة العرب ، عسى أن يستجيب لرسالته من كتب الله عليه سعادة الدارين .

و لما أراد النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يكتب إلى كسرى و قيصر و النجاشي الذي خلف أصحمة ، قيل له : (إنهم لا يقبلون كتابا إلا بخاتم) . فصاغ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خاتما من فضة ، و كان نقش الخاتم ثلاثة

[145] [آل عمران : 199][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 89/2 ـ 51/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 656/2 ـ 657][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 429/23 ـ 314/29][المعجم الأوسط / دار الحرمين ـ 120/3][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 58/10]

أسطر : (مُحَمَّد) في أسفل سطر ، و (رسول) في وسط السطر ، و (الله) في أعلى السطر .[146]

و بعث النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى كِسْرَى بكتابه مع عبد الله بن حُذَافَةَ السَّهْمِي ، و أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كِسْرَى ، فلما قرأه مزقه ، و بعث إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يهدده ، فلما جاء رسول كسرى إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، أخبره النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن كسرى قد مات .[147]

و كاتب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْمُقَوْقِسَ أميرَ القِبْطِ بمصر ، فاكتفى بإرسال جاريتين و بغلة ، هديةً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فكان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يركب البغلة بالمدينة ، و أخذ إحدى الجاريتين لنفسه ، و وهب الأخرى لحسان بن ثابت .[148]

و كتب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، و بعث بكتابه إليه مع دِحْيَةَ الكَلْبي ، و أمره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يدفعه إلى عظيم بُصْرَى ؛ ليدفعه إلى قيصر ، و كان قيصر بعد أن كشف الله عنه جنود فارس ، نذر أن يمشي من حمص إلى إيلياء ؛ شكرا لما أبلاه الله ، فسار إليها ماشيا على الزرابي التي كانت تبسط له ، و كان ابن الناطور صاحب إيلياء و هرقل رئيسَا نصارى الشام ، و أصبح هرقل يوما حين قدم إيلياء خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته : (قد استنكرنا هيئتك) ! فقال لهم : (إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم مَلِكَ الختان قد ظهر) . و كان هرقل حَزَّاءً ينظر في النجوم ، ثم قال لهم : (من يختتن من هذه الأمة) ؟ فقالوا : (ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يَهُمَّنَّكَ شأنُهم ، و اكتب إلى مدائن ملكك ، فَلْيَقْتُلوا من فيهم من

[146] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 82/4][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1397/3 ـ 1657]

[147] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 8/6][الطبقات الكبرى / دار صادر / ط 1 / 1968 م ـ 258/1][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 85/34]

[148] [الآحاد والمثاني / دار الراية / ط 1 / 1411 هـ ـ 447/5]

اليهود) . فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال حين قرأه : (اذهبوا ، فانظروا أَمُخْتَتِنٌ هو أم لا) ؟ فنظروا إليه ، فحدثوه أنه مختتن ، و سأله عن العرب فقال : (هم يختتنون) . فقال هرقل : (هذا مُلْكُ هذه الأمة قد ظهر ،، التمسوا لي ها هنا أحدا من قومه ؛ لأسألهم عن هذا الرجل) . و كان أبو سفيان صخر بن حرب حينئذ بالشام في رجال من قريش ، قدموا تجارا في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و بين كفار قريش ، فوجدهم رسولُ قيصرَ ببعض الشام ، فانطلق بهم ، حتى قدموا إيلياء ، فأدخلهم عليه ، فإذا هو جالس في مجلس ملكه و عليه التاج ، و إذا حوله عظماء الروم ، فقال لِتَرجُمانه : (سلهم أيهم أقرب نسبا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي) ؟ فقال أبو سفيان : (أنا أقربهم إليه نسبا) . فقال : (ما قرابة ما بينك و بينه) ؟ فقال : (هو ابن عمي) . و ليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيره ، فقال قيصر : (أدنوه) . و أمر بأصحابه فَجُعِلُوا خلف ظهره ، ثم قال لِتَرجُمانه : (قل لأصحابه : (إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبي ، فإن كذَبَني فكذبوه) . فكان يقول أبو سفيان فيما بعد : (فوالله لولا الحياء يومئذ من أن يَأْثُرَ أصحابي عني الكذب ، لكذَبته حين سألني عنه ، و لكني استحييت أن يأثُروا الكذب عني فصدَقته) . ثم قال هرقل لتَرجُمانه : (قل له : كيف نسبُ هذا الرجل فيكم) ؟ فقال أبو سفيان : (هو فينا ذو نسب) . قال : (فهل قال هذا القولَ أحد منكم قبله) ؟ فقال : (لا) . فقال : (كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال) ؟ فقال : (لا) . قال : (فهل كان من آبائه مِنْ مَلك) ؟ فقال : (لا) . قال : (فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم) ؟ فقال : (بل ضعفاؤهم) . قال : (فيزيدون أم ينقصون) ؟ فقال : (بل يزيدون) . قال : (فهل يرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه) ؟ فقال : (لا) . قال : (فهل يغدر) ؟ فقال : (لا ، و نحن الآن منه في مدة ، و نحن نخاف أن يغدر) . و كان أبو سفيان يقول : (و لم تُمْكِنِّي كلمةٌ أُدْخِلُ فيها شيئا أنتقصه به ، لا أخاف أن تُؤْثِرَ عني غيرها) . ثم قال هرقل : (فهل قاتلتموه أو قاتلكم) ؟ فقال : (نعم) . قال : (فكيف كانت حربه و

حربكم) ؟ فقال : (كانت دُوَلا و سِجالا ، يُدال علينا المرة ، و نُدال عليه الأخرى) . قال : (فماذا يأمركم به) ؟ فقال : (يأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، و ينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، و يأمرنا بالصلاة ، و الصدقة ، و العفاف ، و الوفاء بالعهد ، و أداء الأمانة) . فقال هرقل لِتَرجُمانه حين قال ذلك له : (قل له : إني سألتك عن نسبه فيكم ، فزعمت أنه ذو نسب ، و كذلك الرسل ، تبعث في نسب قومها ، و سألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فزعمت أن لا ، فقلتُ : لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتم بقولٍ قد قيل قبله ، و سألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمتَ أن لا ، فعرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، و يكذب على الله ، و سألتك هل كان من آبائه مِنْ مَلِكٍ ؟ فزعمتَ أن لا ، فقلتُ : لو كان مِن آبائه مَلِك ، لقلت : يطلب مُلْكَ آبائه ، و سألتك : أشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فزعمتَ أن ضعفاءهم اتبعوه ، و هم أتباع الرسل ، و سألتك : هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمتَ أنهم يزيدون ، و كذلك الإيمان حتى يتم ، و سألتك : هل يرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه ، فزعمت أن لا ، فكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوبَ ، لا يَسخَطُه أحد ، و سألتك : هل يغدر ؟ فزعمتَ أن لا ، و كذلك الرسل لا يغدرون ، و سألتك : هل قاتلتموه و قاتلكم ؟ فزعمتَ أن قد فعل ، و أن حربكم و حربه تكون دُوَلا ، يُدال عليكم المرة ، و تُدالون عليه الأخرى ، و كذلك الرسل ، تبتلى ، ثم تكون لها العاقبة ، و سألتك : بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا ، و ينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، و يأمركم بالصلاة ، و الصدقة ، و العفاف ، و الوفاء بالعهد ، و أداء الأمانة ، و هذه صفة النبي ، و قد كنتُ أعلم أنه خارج ، و لكن لم أظن أنه منكم ، و إن يك ما قلت حقا ، فيوشك أن يملك موضع قدميَّ هاتين ، و لو أرجو أن أخلص إليه ، لتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ ، و لو كنت عنده ، لغسَّلْتُ قدميه) . ثم دعا هرقل بكتاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقرئ ، فإذا فيه : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، من محمدٍ عبدِ الله و رسوله ، إلى هرقل عظيم

الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدِعَايَةِ الإسلام ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أَسْلِمْ يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فعليك إثم الأريسيين ، {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ، ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون} . فلما أن قضى مقالته ، عَلَتْ أصوات الذين حوله من عظماء الروم ، و كثر لغطهم ، و أمر بأبي سفيان و أصحابه فأُخرِجوا ، فلما أن خرج أبو سفيان مع أصحابه و خلا بهم ، قال لهم : (لقد عظم أمر ابن أبي كبشة ، هذا مَلِكُ بني الأصفر يخافه) . و كان أبو سفيان يقول فيما بعد : (فوالله ما زلت مستيقنا بأن أمره سيظهر ، حتى أدخل الله علي الإسلام و أنا كاره) . ثم كتب هرقل إلى صاحبٍ له برومية ، و كان نظيرَه في العلم ، و سار هرقل إلى حمص ، فلم يفارق حمصَ حتى أتاه كتابٌ من صاحبه ، يوافق رأيَ هرقل على أنه نبي ، فأمر هرقل عظماء الروم بالدخول إلى قصر له بحمص ، ثم أمر بأبوابه فغلقت ، ثم اطَّلَع عليهم من شُرْفَتِه فقال : (يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح و الرشد ، و أن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبي) ؟ فحاصوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نَفْرَتَهم ، و أيس من الإيمان قال : (رُدُّوهم علي) . ثم قال لهم : (إني قلت مقالتي آنفا ، أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت) . فسجدوا له و رضوا عنه ، فكان ذلك آخرَ شأن هرقل مع قومه ، إلا أنه كتب إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم كتابا يخبره فيه أنه مسلم ، و بعث إليه بدنانير ، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم حين قرأ الكتاب : (كذب عدوُّ الله ، ليس بمسلم ، و هو على النصرانية) . و قسم الدنانير التي بعثها إليه بين المسلمين ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يقول بعد ذلك : (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، و إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، و الذي نفسي بيده لتُنْفِقُنَّ كنوزهما في سبيل الله) . [149]

[149] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 8/1 ـ 45/4 ـ 85][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 198/4][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 357/10][مسند الشاميين / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1405 هـ ـ 216/4][الإيمان لابن منده / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط 2 / 1406 هـ ـ 288/1]

سرية ذات السلاسل

و بعد أن اختار نصارى الشام الغيَّ على الرشد ، و قد تقرر في الإسلام أنه لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي ، كما قال تعالى : {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُومِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} . وجب عند ذاك الانتقالُ إلى الخطوة التالية التي أوجبها الله تعالى فيهم بقوله : {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ} . و في هذه الآية إشارة إلى ضرورة بسط النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لنفوذ دولة الإسلام على جميع المعمورة ، بناء على أن الإسلام زيادةً على المعتقدات و العبادات التي يستوجبها على من أسلم ، هو مجموعة من الأنظمة و القوانين التي لا تتحقق سعادة الإنسانية إلا بها ، فبدأ بتمهيد الطريق إلى غزو الروم ، من خلال القضاء على كل من يَحُول دون وصول جيش المسلمين إلى الروم من الموالين للروم ، و مَنْ كان يخضع لحكمها ، فقرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ غزو قبيلَتَيْ لَخْمٍ و جُذَامٍ ، و هي إلى جهة طريق الشام شمالَ المدينة ، و بعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى عمرو بن العاص فقال له : (خذ عليك ثيابك و سلاحك ، ثم ائتني) . فأتاه عمرو و هو يتوضأ ، فَصَعَّدَ فيه النظرَ ثم طأطأه ، فقال : (إني أريد أن أبعثَك على جيش فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَ يُغْنِمَكَ ، و أرغب لك من المال رغبة صالحة) . فقال له عمرو : (يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال ، و لكني أسلمت رغبة في الإسلام ، و أن أكون مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) . فقال : (يا عمرو ، نِعِمَّا بالمال الصالح ، للرجل الصالح) . ثم جمع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الناس في المسجد ، و عيَّن من سيكون تحت إمارة عمرو بن العاص ، فكان فيهم أبو بكر ، و عمر ، و أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح ، و عوف بن مالك ، و أمرهم أن ينطلقوا ، فانطلقوا حتى نزلوا جبل

طي ، فقال عمرو : (انظروا إلى رجل دليل بالطريق) . فقالوا : (ما نعلمه إلا رافع بن عمرو ، فإنه كان في الجاهلية يغزو القوم وحده فيسرقهم) . فلما انتهوا إلى مكان المعركة ، أمرهم عمرو أن لا يُنَوِّروا نارا ، فغضب عمر ، و هَمَّ أن ينال منه ، فنهاه أبو بكر ، فقال عمر لأبي بكر : (لِمَ لَمْ يدَعْ عمروٌ الناسَ أن يوقدوا نارا ، ألا ترى إلى هذا الذي منع الناس منافعهم) . و كلم الناسُ أبا بكر ليكلمه في ذلك ، فذهب إليه و كلمه ، فقال له عمرو : (قد أرسلوك إلي ؟ لا يوقد أحد منهم نارا إلا ألقيته فيها) . فرجع أبو بكر إلى الناس ، و أخبرهم أنه لم يستعمله رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليهم إلا لعلمه بالحرب ، فهدأ عنه عمر .

و كان عمرو بن العاص هو الذي يصلي بالناس في تلك السرية ، فاحتلم بها في ليلة باردة ، فأشفق أن يغتسل فيهلك ، فتيمم ، ثم صلى بأصحابه الصبح .

و لقي المسلمون العدوَّ فهزموهم ، فأرادوا أن يتبعوهم ، فمنعهم عمرو ، فازداد نكير الناس عليه ، حتى إذا رجعوا إلى المدينة ، ذُكِرَ للنبي صلى الله عليه و آله و سلم ما قام به عمرو ، و شكوه إليه ، فقال عمرو : (يا رسول الله ، إني كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارا ، فيرى عدوهم قلتهم ، و كرهت أن يتبعوهم ، فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم) . و لما سأله النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن تَيَمُّمِه ، قال له : (إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إنِ اغتسلت أن أهلك ، و ذكرت قول الله عز و جل : {وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} . فتيممت ثم صليت) . فضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و حمد أمره .[150]

[150] [النساء: 29][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 442/4 ـ 304/25 ـ 307 ـ 298/29 ـ 299 ـ 347][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 257/2 ـ 45/3][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 57/1 ـ 21/5 ـ 71/18][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 199/6][الآحاد والمثاني / دار الراية / ط 1 / 1411 هـ ـ 103/2 ـ 442/4][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 539/6][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 27/2][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 249/1]

معركة مؤتة بالأردن مع البيزنطيين

و بعد أن أمَّن النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الطريق إلى الروم ، بعث جيشا إليهم ، و استعمل عليه زيد بن حارثة ، و قال : (عليكم زيدَ بن حارثة ، فإن قتل زيد ، فأميركم جعفر ، فإن قتل جعفر ، فأميركم عبد الله بن رواحة) . و كما هي عادة المنافقين في كل ما لا يتماشى مع حظوظهم ، طعنوا في إمارة زيد بن حارثة ، فكان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يقول بعد ذلك : (و ايْمُ اللهِ إن كان لخليقا لها ، و ايْمُ اللهِ إن كان لأحبَّ الناس إلي) . و انطلق الجيش ، حتى إذا جاوزوا حدود الأردن ، و تقدَّموا إلى مدينة الكَرَك ، وجدوا أنفسهم أمام جيش عظيم من جيوش البيزنطيين ، فأخذ الراية زيد ، فقاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية جعفر ، فقاتل حتى قتل ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ، ففتح الله عليه بما أنقذ به المسلمين من مجزرة كانت وشيكة ، حيث انحاز بهم ، فانحاز عنهم العدو ، حتى انصرف بالناس ، و أتى خبرُهم النبيَّ صلى الله عليه و آله و سلم قبل أن يصل الناس ، فخرج إلى الناس ، و صعد المنبر ، و أمر أن يُنَادَى : (الصلاة جامعة) . فحمد الله و أثنى عليه ، و قال : (إن إخوانكم لقُوا العدو ، و إن زيدا أخذ الراية ، فقاتل حتى قتل شهيدا ، فاستغفِروا له) . فاستغفر له الناس ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبي طالب ، فقاتل حتى قتل شهيدا ، أشهد له بالشهادة ، فاستغفروا له) . فاستغفر له الناس ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له) . فاستغفر له الناس ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ثم أخذ الراية عن غير إمرة سيفٌ مِنْ سيوف الله : خالدُ بن الوليد ، ففتح الله عليه) . فَمِنْ يومئذ سمي خالد سيف الله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (ما يسرنا و ما يسرهم أنهم عندنا) . و

عيناه تذرفان ، ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم : (انفروا فأمدوا إخوانكم ، و لا يتخلفن أحد) . فنفر الناس في حر شديد ، مشاةً و ركبانا .

و لما جاء نعيُ جعفر ، رجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى أهله ، فقال : (إن آل جعفر قد شُغلوا بشأن ميتهم ، فاصنعوا لهم طعاما) . ثم أمهل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم آلَ جعفر ثلاثا أن يأتيهم ، ثم أتاهم ، فقال : (لا تَبْكُوا على أخي بعد اليوم) . ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ادعوا لي بني أخي) . فجيء بهم كأنهم أَفْرُخٌ ، فقال : (ادعوا إلي الحلاق) . فجيء بالحلاق ، فحلق رءوسهم ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أمَّا مُحمَّد ، فشبيه عمنا أبي طالب ، و أما عبد الله ، فشبيه خَلْقِي و خُلُقِي) . ثم أخذ بيدي عبد الله فأشالها فقال : (اللهم اخلُفْ جعفرا في أهله ، و بارك لعبد الله في صَفْقة يمينه) . أعادها ثلاثا ، و جاءت أمهم فذكرت له يُتْمَهُم ، و الحزنُ و الأسى لائح على وجهها ، فقال لها رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (العَيْلَةَ تخافين عليهم ، و أنا وليهم في الدنيا و الآخرة) ؟

و لم يكن الصحابة أحسنَ حالا من امرأة جعفر ، فلقد اشتد جزعهم على من قتل يوم مؤتة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (لَيُدْرِكَنَّ الدجالُ قوما مثلَكم أو خيرا منكم ، و لن يخزي الله أمة ، أنا أولها ، و عيسى ابن مريم آخرها) . كأن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يريد أن يخبرهم بأن لكل صادق أجلَه و حقبته التي يتيحها الله له في الدنيا من أجل نصرة دعوة الحق ، و لن تخلو الأرض من أهل الصدق ممن هم على مثل ما كان عليه الصحابة أو أفضل إلى قيام الساعة . [151]

[151] [البقرة : 256][التوبة : 29][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 17/4 ـ 27/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1884/4][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 329/1 ـ 220/4 ـ 259/6][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 314/7 ـ 315 ـ 348 ـ 361 ـ 18/8][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 279/3 ـ 280 ـ 245/37 ـ 246 ـ 257 ـ 278 ـ 424/39 ـ 363/40][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 537/2][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 380/2][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 43/3]

إسلام سيد أهل اليمامة ثمامة

و بعد المقاومة العنيفة التي واجهت بها جيوشُ الروم العظيمة الضخمة جيش المسلمين في غزوة مؤتة ، لم يجد النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بُدا من البحث فيمن بقي من قبائل أقاصي جزيرة العرب البعيدة ، عن المزيد من الطاقات البشرية الضائعة ، و التي هي بحاجة فقط إلى من يزيح عنها سحابة التلبيس و التمويه الذي ألصقه أعداء الحق بدعوة النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .

و في يوم من الأيام ، بعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خيلا قِبَلَ نجد ، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له : ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ ، سيدُ أهل اليمامة ، هذا الرجل الذي حاول في مرة من المرات قَتْلَ رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فدعا النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ربه أن يمكنه منه ، و ها هو ذا قد أمكن الله تعالى منه رسوله صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه و آله سلم ، فقال : (ماذا عندك يا ثمامة) ؟ فقال : (عندي يا مُحَمَّد خير ، إن تقتل تقتل ذا دم ، و إن تنعم تنعم على شاكر ، و إن كنت تريد المال ، فسل تعط منه ما شئت) . فتركه رسول الله صلى الله عليه و آله سلم ، حتى إذا كان الغد ، جاءه رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقال له : (ما عندك يا ثمامة) ؟ فقال : (ما قلت لك ، إن تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكر ، و إن تقتل تقتل ذا دم ، و إن كنت تريد المال ، فسل تعط منه ما شئت) . فتركه رسول الله صلى الله عليه و آله سلم ، حتى إذا كان الغد ، جاءه رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقال له : (ما عندك يا ثمامة) ؟ فقال : (ما قلت لك ، إن تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكر ، و إن تقتل تقتل ذا دم ، و إن كنت تريد المال ، فسل تعط منه ما شئت) . فقال رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أطلقوا ثمامة) . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم دخل المسجد ، فقال : (أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أن مُحَمَّدا عبده و رسوله ، يا مُحَمَّد ، و الله

، ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي ، و الله ، ما كان من دين أبغض إلي من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين كله إلي ، و الله ، ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي ، و إن خيلك أخذتني و أنا أريد العمرة فماذا ترى) ؟ فبشره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و أمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : (أصبوت) . فقال : (لا ، و لكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لا و الله ، لا يأتيكم من اليمامة حبة حِنْطة ، حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم) . و انصرف إلى بلده ، و منع حنطة اليمامة عن مكة ، حتى جَهَدت قريش ، فكتبوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، يسألونه بأرحامهم ، أن يكتب إلى ثمامة أن يُخلي حمل الطعام ، ففعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .[152]

نقض قريش للهدنة

كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خلال الهدنة التي كانت بينه و بين المشركين ، يتعامل مع قريش بمنتهى الإنسانية و الأخلاق الفاضلة ، عسى الأيام أن يرجعن قريشا إلى رشدها ، غير أن اللئيم إذا أحسنت إليه تمرد ، و ظن التواضع ضعفا و قصورا ؛ يستحق الاستغلال ؛ لأنه لم يعرف من التواضع إلا اسمه ، و لا مكان للأخلاق الفاضلة في قاموس أخلاقه ، و لذلك فقد أقبلت قريش بعد مرور ثمانيةَ عشرَ شهرا من الهدنة على أكبر خطإ ارتكبته في سياستها الخارجية ، حين أعانت حليفتها بني بكر على خُزاعةَ حليفةِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و كان ذلك الغدر ليلا بماء يقال له : الوتير ، قريبٍ من مكة ، فقالت قريش : (ما يعلم بنا مُحَمَّد ، و هذا الليل ، و ما يرانا أحد) . فأعانوهم عليهم بالخيل و السلاح ، فقاتلوهم معهم للضَّغَنِ على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فركب عمرو بن

[152] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1386/3][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 79/4 ـ 80 ـ 81]

سالم إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يخبره الخبر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم) .

فتح مكة العام الثامن سنة 630 م

و بعد مرور أيام أو أسابيع قلائل من نقض قريش للعهد الذي كان بينهما و بين النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المهاجرين و الأنصار جميعًا بالاستعداد ، و بعث إلى بني سليم و مزينة أن يأتوه ، فتطوع من بني سليم ما يقارب سبعَمائة نفس ، و من مزينة ما يقارب ألفَ مقاتل ، و تداعت القوات من كل مكان في الجزيرة ، حتى توافرت لدى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قوةٌ قوامها عشرة آلاف مقاتل ، كل ذلك ، و هم لا يدرون إلى أين سيتوجه بهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقد كانت العملية في غاية السرية ، حتى من أقرب الناس إليه ، كأبي بكر الذي دخل على ابنته و هي تغربل حنطة لها ، فقال : (ما هذا) ؟ (أمركم رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بالجِهَاز) ؟ فقالت : (نعم فتجهز) . فقال : (و إلى أين) ؟ قالت : (ما سمى لنا شيئا ، غير أنه قد أمرنا بالجِهاز) .

و المدهش في الأمر هو أن شهر رمضان قد دخل على الأمة ، فلم يتزحزح النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن قراره بغزو مكة .

و في أجواء الاستعداد ، أدرك بعض الصحابة الذين طالت تجربتهم العسكرية مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في حروبه ، أن هذا العدد الكبير من المقاتلين ، و الجموعَ العظيمة من الجنود ، لا يمكن أن يكون إلا لغزو أعظم قبيلة على أرض الجزيرة ، و لا يمكن أن تكون إلا أقدس أرض على سطح الأرض ، و هي مكة ، خصوصا بعد الغدر الذي كان من قريش .

و كان من هؤلاء الذين أدركوا الأمر : حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ ، الذي أخذ يفكر في كيفية إنقاذ أهله المتواجدين بمكة في حال وقوع الأسوإ ، فقرر أن يرسل

رسالة مع امرأة ، إلى أناس من مشركي أهل مكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأعلم الله تعالى نبيه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأمر حاطب ، فدعا صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عليا و الزبير و المقداد ، و قال لهم : (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن فيها امرأةً من المشركين ، معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين ، فأتوني بها) . فانطلقوا مسرعين تعادى بهم خيلهم ، حتى انتهوا إلى الروضة ، فإذا هم بالمرأة ، تسير على بعير لها ، فقالوا لها : (أَخرِجي الكتاب) . فقالت : (ما معي من كتاب) . فنزلوا ، و أخذوا يبحثون عن الصحيفة في رحلها ، فما وجدوا شيئا ، فقال الزبير و المقداد : (ما نرى كتابا) . فقال لهم علي : (لقد علمت ما كذب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و الذي يُحْلَفُ به ، لتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لَأُجَرِّدَنَّكِ) . فلما رأت الْجِدَّ منه ، أخرجته من شعرها الذي كان مضفورا عليه ، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة ، يخبرهم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يريد غزوهم ، فاستدعى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حاطبا فقال : (ما هذا يا حاطب) ؟ فقال : (لا تعجل علي يا رسول الله ، إني كنت امْرَأً مُلْصَقًا في قريش ، و لم أكن مِنْ أَنْفَسِها ، و كان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة ، يَحْمُون بها أهليهم و أموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يدا يَحمون بها قرابتي ، و ما فعلت ذلك كفرا ، و لا ارتدادا ، و لا نفاقا ، و لا رضا بالكفر بعد الإسلام ، و لا غِشًّا لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، قد علمت أن الله مظهرٌ رسولَه ، و مُتِمٌّ له أمرَه) . فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لقد صدقكم ، لا تقولوا له إلا خيرا) . فقال عمر بن الخطاب : (دعني أضربْ عنق هذا المنافق ، إنه قد خان الله و رسوله و المؤمنين) . فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (أتقتل رجلا من أهل بدر ، ما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) . فدمعت عينا عمر ، و قال : (الله و رسوله أعلم) .

و في هذه الحادثة أنزل الله تعالى قوله : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُومِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} .

و لما جاء اليوم العاشر من رمضان ، و احتشدت الجموع ، نادى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رجلًا من أصحابه اسمه أبو رُهْمٍ كُلْثُومُ بن عتبة بن خلف الغفاري ، و لما جاء عينه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أميرًا على المدينة حتى يعود ، ثم انطلق النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من المدينة صائمًا ، و الناس معه صائمون ، حتى بلغ الكَدِيدَ ، و هو ما بين عُسْفَان و قُدَيْدٍ ، فأفطر و أفطر المسلمون معه ، و في طريقه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى مكة ، لقيه عمه العباس بن عبد المطلب ، فأخذت العباسَ الدهشةُ مِنْ عِظَمِ جيش النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و قال : (واصباح قريش ، و الله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة عَنْوَةً قبل أن يستأمنوه ، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر) . ثم ركب بغلة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ البيضاء ، و خرج لعله يلقى بعض الْحَطَّابة ، أو صاحبَ لبن ، أو ذا حاجة يأتي مكة ، فيخبره بمكان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ليخرجوا إليه ، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

و جاء النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ابنُ ابنِ عمه : أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب ، في صحبة ابنه و ابن عمته : عبدِ الله بن أَمَيَّة بن المغيرة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت : (يا رسول الله ابن عمك و ابن عمتك و صهرك) . فقال : (لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي ، فهتك عرضي ، و أما ابن عمتي و صهري ، فهو الذي قال لي بمكة ما قال) . فلما سمع بذلك المغيرة بن الحارث قال : (و الله ليأذنَنَّ لي ، أو لآخذن بيد ابني هذا ، ثم لنَذْهَبَنَّ في الأرض

حتى نموت عطشا و جوعا) . فلما بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم رَقَّ لهما ، ثم أَذِن لهما فدخلا و أسلما و اعتذرا إليه .

و لما نزل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مكانا يُدعى : مَرُّ الظَّهْرَانِ ، خرج أبو سفيانَ صَخْرُ بن حَرْبٍ و حَكِيم بن حِزَام و بُدَيْلُ بن وَرْقَاءَ يتحسسون و ينتظرون هل يجدون خبرًا أو يسمعون به ، فلما أبصروا سواد جيش المسلمين ، قال أبو سفيان : (ما رأيت كاليوم قط نيرانا و لا عسكرا ، لكأنها نيران عرفة) ؟ فقال بُدَيْلُ بن وَرْقَاءَ : (هذه و الله نيران خزاعة هيَّجَتْها الحرب) . فقال أبو سفيان : (خزاعة و الله أذل و أَلْأَم من أن تكون هذه نيرانها و عسكرها) . و بينما هم يتجاذبون أطراف الحديث ، إذا بهم يسمعون العباس ينادي : (ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم في الناس ، واصباح قريش و الله) . فقال أبو سفيان : (فما الحيلة فداك أبي و أمي) ؟ فقال : (و الله لئن ظَفِرَ بك ليضربن عنقك ، فاركب معي هذه البغلة ، حتى آتيَ بك رسول الله صلى الله عليه و سلم ، أستأمنه لك) . فركب خلفه ، و رجع صاحباه ، فلما بلغا معسكرَ المسلمين ، جعلا لا يَمُرَّان بنارٍ من نيران المسلمين ، إلا قال من حول النار : (من هذا) ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه و سلم قالوا : (عم رسول الله صلى الله عليه و سلم على بغلته) . حتى مرا بنار عمر بن الخطاب ، فقال : (من هذا) ؟ و قام إليهما ، فلما رأى أبا سفيان على عَجُزِ البغلة ، قال : (أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد و لا عهد) . ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه و سلم و رَكَضت البغلة ، فَسَبِقَتْه بما تَسْبِقُ الدابةُ البطيءُ الرجلَ البطيءَ ، فاقتحم العباس عن البغلة ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه و سلم و دخل عمر ، فقال عمر : (يا رسول الله ، هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عقد و لا عهد ، فدعني فَلْأَضْرِبْ عنقه) . فقال العباس : (يا رسول الله ، إني أجَرْتُه) . ثم جلس إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخذ برأسه ، فقال : (لا و الله لا يناجيه الليلة رجل دوني) . فلما أكثر عمر في شأنه قال له العباس : (مهلا يا عمر ، أما و

الله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا ، و لكنك عرفتَ أنه رجل من رجال بني عبد مناف) . فقال عمر : (مهلا يا عباس ، فوالله لَإِسْلَامُك يوم أسلمت ، كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، و ما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم من إسلام الخطاب) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (اذهب به إلى رَحْلك يا عباس ، فإذا أصبح فائتني به) . فذهب به إلى رحله فبات عنده ، فلما أصبح غدا به إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : (ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله) ؟ فقال أبو سفيان : (بأبي أنت و أمي ، ما أكرمك و أوصلك ، و الله لقد ظننتُ أنْ لو كان مع الله غيرُه ، لقد أغنى عني شيئا) . ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله) ؟ فقال أبو سفيان : (بأبي أنت و أمي ، ما أحلمك و أكرمك و أوصلك ، هذه و الله كان في نفسي منها شيء حتى الآن) . فقال له العباس : (ويحك يا أبا سفيان ، أسلم و اشهد أن لا إله إلا الله ، و أن مُحَمَّدا رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك) . فتشهد بشهادة الحق و أسلم ، فقال العباس : (يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئا) . فقال : (نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، و من دخل دارا فهو آمن ، و من دخل المسجد فهو آمن ، و من ألقى السلاح فهو آمن) . و أَمَّنَ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الناسَ إلا أربعةً ، قال فيهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اقتلوهم و إن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة) . و هم : عكرمة بن أبي جهل ، و عبد الله بن خَطَلٍ ، و مِقْيَس بن صُبَابَةَ ، و عبد الله بن سعد بن أبي سَرْحٍ .

و لما أَمَّنَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الناس سوى الستة ، قالت الأنصار بعضهم لبعض : (أمَّا الرجل فأدركته رغبة في قريته ، و رأفة بعشيرته) . فجاء الوحي النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و كان إذا جاءه الوحي ، لا يخفى على صحابته ، فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى

ينقضي الوحي ، فلما انقضى الوحي قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (يا معشر الأنصار) . قالوا : (لبيك يا رسول الله) . فقال : (قلتم : أمَّا الرجل فأدركته رغبة في قريته) ؟ قالوا : (قد كان ذاك يا رسول الله) . فقال : (ألا فما اسمي إذا ؟ ألا فما اسمي إذا ؟ ألا فما اسمي إذا ؟ أنا مُحَمَّد عبد الله و رسوله ، هاجرت إلى الله و إليكم ، فالمحيا محياكم ، و الممات مماتكم) . فأقبلوا إليه يبكون و يقولون : (و الله ما قلنا الذي قلنا إلا ضنا بالله و رسوله) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (إن الله و رسوله يُصَدِّقَانِكم و يَعْذِرَانِكُم) .

و لما ذهب أبو سفيان لينصرف ، قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (يا عباس ، احبسه بمضيق الوادي عند طرف الجبل) . فخرج به حتى حبسه حيث أمره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يحبسه ، و مرت به القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : (من هؤلاء) ؟ فيقول : (سليم) . فيقول : (مالي و لسليم) ؟ ثم تمر القبيلة ، فيقول : (من هؤلاء) ؟ فيقول : (مزينة) . فيقول : (ما لي و لمزينة) ؟ حتى تَعَدَّت القبائل ، لا تمر قبيلة إلا قال : (من هؤلاء) ؟ فيقول : (بنو فلان) . فيقول : (مالي و لبني فلان) . حتى أقبلت كتيبة فيها المهاجرون و الأنصار ، لا يرى منهم إلا سواد أعينهم في الحديد ، فقال : (سبحان الله ، من هؤلاء يا عباس) ؟ فقال : (هذا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في المهاجرين و الأنصار) . فقال : (ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ و لا طاقة ، و الله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْكُ ابْنِ أخيك الغداةَ عظيما) . فقال له : (يا أبا سفيان ، إنها النبوة) . قال : (فنعمْ إذن) . فقال له العباس : (النجاءَ إلى قومك) . فأسرع أبو سفيان إلى قريش ، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : (يا معشر قريش ، هذا مُحَمَّد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن) . فقامت إليه امرأته هندٌ بِنْتُ عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت : (اقتلوا الأسود الدنيء ، فبئس مِنْ طليعةِ قوم) . فقال أبو سفيان : (ويحكم ، لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاء ما لا قِبَلَ لكم به ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) . قالوا : (ويلك ، و ما تغني عنا

دارك) ؟ قال : (و من أغلق بابه فهو آمن ، و من دخل المسجد فهو آمن) . فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان ، و أغلق الناس أبوابهم ، و جمعت صناديد قريش للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ جموعًا مِنْ مرتزقةِ قبائلَ شتى ، فقالوا : (نُقَدِّمُ هؤلاء ، فإن كان لهم شيء ، كنا معهم ، و إن أصيبوا ، أَعطَينا الذي سُئِلْنا) . ثم عَمَدوا إلى المسجد ، فدخلوا الكعبة ، فغصَّت بهم ، و قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حين أراد دخول مكة : (منزلنا غدا إن شاء الله إذا فتح الله ، بِخَيْفِ بني كِنَانَة ، حيث تقاسموا على الكفر) . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الزبير على إحدى الْمُجَنِّبَتَيْنِ ، و هي قِطْعَة من العسكر تسير فِي أحد جَانِبي الْعَسْكَر ، و بعث خالدا على الْمُجَنِّبَةِ الأخرى ، و بعث أبا عبيدة على الْحُسَّرِ، و هم المشاة ، فأخذوا بطن الوادي ، و نادى رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أبا هريرة ، فقال : (لبيك يا رسول الله) . قال : (اهتف لي بالأنصار ، و لا يأتيني إلا أنصاري) . فدعاهم ، فجاءوا يُهَرْوِلُون ، فقال : (يا معشر الأنصار ، هل ترون أوباش قريش) ؟ قالوا : (نعم) . قال : (انظروا إذا لقيتموهم غدا أن تحصدوهم حصدا) . ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى : (حتى توافوني بالصفا) . فانطلقوا ، فما شاء أحد منهم أن يقتل أحدا إلا قتله ، و ما أحد منهم يوجِّهُ إليهم شيئا ، و أمر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة مِنْ كَدَاء ، و دخل النبي صلى الله عليه و آله و سلم من كُدَا ، فَقُتِلَ مِن خيل خالد بن الوليد يومئذ رجلان .

و لما سمع الأربعة الذين هَدَرَ النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دماءهم ، بأنهم في قائمة المطلوبين أمواتا ، فروا سراعا ، فأما مِقْيَس بن صُبابة ، فأدركه الناس في السوق فقتلوه ، و أما عبد الله بن خطل ، فأُدْرِكَ و هو متعلق بأستار الكعبة ، فاستبق إليه سعيد بن حريث و عمار ، فسبق سعيد عمارا ، و كان أشبَّ الرجلين فقتله ، و أما عكرمة بن أبي جهل ، فركب البحر إلى جهة اليمن ، و أما عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان .

و دخل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مكة في الثالث عشر من رمضان ، و ذقنه على رحله متخشعا ، و هو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّعُ بها صوته ، حتى أقبل إلى الكعبة ، و جاء الْحَجَر فاستلمه ، ثم طاف بالبيت على بعير ، يستلم الركن بِمِحْجَنٍ في يده ، و أسامة بن زيد رديف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و معه بلال و عثمان بن طلحة ، و كان حول البيت ثلاثمائة و ستون صنما ، فجعل يطعنها بعود كان بيده ، و يقول : {جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} . {جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ} . فلما فرغ من طوافه ، نزل عند البيت ، و صلى ركعتين خلف المقام ، ثم قال لعثمان بن طلحة بن عبد الدار : (ائتنا بمفتاح البيت) . فذهب إلى أمه ، فأبت أن تعطيه ، فقال : (و الله لَتُعْطِيَنِّهِ ، أو لَيَخْرُجَنَّ هذا السيف من صُلْبِي) . فأعطته إياه ، فجاء به إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فدفعه إليه ، ففتح الباب ثم أخذ بِعِضَادَتَي الباب و قال : (يا معشر قريش ، ما تقولون) ؟ فقالوا : (نقول ابن أخ و ابن عم رحيم كريم) . ثم أعاد عليهم ذلك ثلاثا ، و هم يجيبونه بمثل ما أجابوه به ، فقال لهم صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد ما أجابوه في المرة الثالثة : (فإني أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم و هو أرحم الراحمين) . فخرجوا كأنما نشروا من القبور ، و بايعوا النبيَّ صلَّى الله عليه و آله و سلم على الإسلام ، و أبى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يدخل البيت و فيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، و أخرجوا صورة مريم ، و صورة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام ، و في أيديهما الأزلام ، فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (هذا إبراهيم مصور ، فماله يستقسم ، قاتلهم الله ، أما و الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط) . و أمر عمرَ بن الخطاب أن يمحو كل صورة في الكعبة ، فلم يدخلها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى محيت كل صورة كانت فيها ، فدخل النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أسامة و بلال و عثمان بن طلحة ، ثم أغلقوا عليهم الباب ، فجعل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يكبر في نواحي البيت ، ثم جعل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ

عمودا عن يساره ، و عمودين عن يمينه ، و صلى ركعتين ، و كان بينه و بين الجدار ثلاثة أذرع ، و باب البيت خلفه ، ثم دعا الله عز و جل ساعة ، ثم خرج ، فصلى ركعتين في وجه الكعبة ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الصفا ، فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ، و رفع يديه ، فجعل يحمد الله و يدعو بما شاء أن يدعو ، ثم قال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لأصحابه : (كفوا السلاح ، إلا خزاعةَ من بني بكر) . فأذن لهم حتى صلوا العصر ، ثم قال لهم : (كفوا السلاح) .

ثم دعا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الناس إلى البيعة ، فأقبلوا عليه يبايعونه على الإسلام ، و أتاه أبو بكر بأبيه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، قال : (هلا تركت الشيخ في بيته ، حتى أكون أنا آتيه فيه) . فقال أبو بكر : (يا رسول الله ، هو أحق أن يمشي إليك ، مِنْ أن تمشي أنت إليه) . فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ، و قال له : (أسلم) . فأسلم ، و جاء عثمان بن عفان بعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان يكتب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فارتد ، و لحق بالمشركين ، حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قال : (يا رسول الله بايع عبد الله) . فرفع رأسه ، فنظر إليه ثلاثا ، كل ذلك يأبى ، فبايعه بعد ثلاث ، ثم أقبل على أصحابه بعد انصرافه فقال : (ما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله) ؟ قالوا : (ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ، هلا أومأت إلينا بعينك) ؟ فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) .

و أقبل أتباع قريش و أوباشها بعد الفتح إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يبايعونه على الإسلام ، بعد أن كانوا لفترة طويلة ينتظرون مصيره ، و يترقبون مآل دعوته ، و يقولون فيما بينهم : (اتركوه و قومَه ، فإنه إن ظهر عليهم ، فهو نبي صادق) .

و أنزل الله تعالى قوله : {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (1) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} .

فقرأها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى ختمها ، و قال : (الناس حيز ، و أنا و أصحابي حيز ، و لا هجرة بعد الفتح ، و لكن جهاد ونية) .

و انصرف النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى بيت ابنةِ عمه أمّ هانئ عند الضحى ، في صحبة ابنته فاطمة ، فاغتسل في بيتها ، و فاطمة ابنته تستره بثوب ، فلما فرغ من غسله ، قام فصلى ثمانيَ ركعات خفيفات ، ملتحفا في ثوب واحد .

و لما جاء الليل سأل أسامة بن زيد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقال له : (يا رسول الله ، أين تنزل غدًا) ؟ فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و هل ترك لنا عَقِيل من منزل) ؟ و كان عقيل ورث أبا طالب هو و طالب ، و لم يرثه جعفر و لا علي شيئا ؛ لأنهما كانا مسلمين ، و كان عقيل و طالب كافرين .

و لما كان من الغد ، بادر رجل من خزاعة رجلًا كان قد ظلمه في الجاهلية ، و كان يطلبه فقتله ، قبل أن يخلُص إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيأمن ، فلما بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه و سلم غضب غضبا شديدا ، فسعت خزاعة إلى أبي بكر و عمر و علي يستشفعونهم ، و خشوا أن يكونوا قد هلكوا ، فقام النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على دَرَج الكعبة ، فحمد الله و أثنى عليه بما هو أهله ، و كبر ثلاثا ، ثم قال : (الحمد لله الذي صدق وعده ، و نصر عبده ، و هزم الأحزاب وحده ،، أما بعد ، أيها الناس ، إن الله عز و جل حرم مكة يوم خلق السماوات و الأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، و إنما أحلها لي ساعة من النهار أمسِ ؛ غضبا على أهلها ، فلا يُنَفَّرُ صيدُها ، و لا يُخْتَلى شوكها ، و لا يختلى خلاها ، و لا يُعْضَدُ شجرها) . فقال العباس : (إلا الإذْخِر يا رسول الله ، فإنا نجعله في قبورنا ، و لصاغتنا ، و سقوف بيوتنا) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (إلا الإذْخِرَ ، فإنه حلال ، و لا تُلْتَقط لُقَطَتُها إلا لِمُعَرِّفٍ ، و من قُتِلَ له قتيل ، فهو بخير النظرين : إما أن يعفو ، و إما أن يَقتُل ، إِمَّا أَنْ يَفْدِيَ ، وَ إِمَّا أَنْ يَقْتُلَ ، ألا إن كل مأْثُرَةٍ كانت في الجاهلية ، تُذكر و تُدَّعَى ، من دم أو مال تحت قدمَيَّ ، إلا ما كان من سِقَاية الحاج ، و سِدَانة البيت ، فإني

قد أمضيتهما لأهلهما كما كانا ،، لا دِعْوَةَ في الإسلام ، ذهب أمر الجاهلية ،، و أوفوا بحلف الجاهلية ، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة ، و لا تُحْدِثُوا حِلْفا في الإسلام ،، و إن أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحدٌ في الحرم ، و مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ، وَ مُطَّلِبُ دمِ امْرِئٍ بغير حق لِيُهَرِيقَ دَمَهُ ، ألا فَلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ) . فقام رجل من أهل اليمن يقال له : أبو شاه فقال : (اكتب لي يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (اكتبوا لأبي شاه) . ثم أعطى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الدية لأولياء الرجل الذي قتله الخزاعي .

و أقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم بمكة تسعة عشر يوما ، يصلي الظهر و العصر و العشاء ركعتين .[153]

غزوة حُنَيَن

و بينما كان المسلمون يستعدون في مكة للرجوع إلى المدينة ، إذا بهم يفاجؤون بأن هَوَازِنَ و غَطَفَانَ في حشود هائلة من بني نصْرٍ و جُشَمٍ و سَعْدِ بن بكر ، و أوزاع من بني هلال ، و ناس من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر ، و حلفاءهم من ثَقِيف و بني مالك ، يتوجهون إلى مكة من أجل غزو المسلمين ، بقيادة مالك بن عوف النصري ، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، بعث عبد الرحمن بن أبي حَدْرَدٍ الأسْلَمِيَّ ، فقال : (اذهب فادخل بالقوم ؛ حتى تَعْلَمَ لنا مِنْ عِلْمِهِمْ) . فدخل فمكث فيهم يوما أو يومين ، ثم أقبل فأخبره أن هوازن

[153] [الإسراء: 81][سبأ: 49][الممتحنة : 1][النصر : 1 ـ 3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 88/1 ـ 57/2 ـ 92 ـ 147 ـ 149 ـ 150 ـ 59/4 ـ 139 ـ 77/5 ـ 145 ـ 146 ـ 147 ـ 148 ـ 149 ـ 150 ـ 153 ـ 176 ـ 149/6 ـ 6/9 ـ 18 ـ 157][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 498/1 ـ 926/2 ـ 952 ـ 966 ـ 988 ـ 989 ـ 1405/3 ـ 1407 ـ 1408 ـ 1487 ـ 1923/4 ـ 1941][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 164/5 ـ 319 ـ 356/8 ـ 199/9 ـ 390][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 12/5 ـ 27 ـ 82 ـ 94][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 46/3 ـ 49][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 222/4 ـ 525/11 ـ 183/12 ـ 535/16 ـ 554 ـ 91/23 ـ 108/24 ـ 133 ـ 294/26 ـ 298 ـ 300 ـ 301 ـ 495/35 ـ 328/39 ـ 333 ـ 457/44 ـ 518 ـ 137/45][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 182/4][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 345/1 ـ 9/8 ـ 611/13][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 371/3 ـ 636/4 ـ 234/6 ـ 414][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 403/7][شرح معاني الآثار / عالم الكتب / ط 1 / 1414 هـ ـ 325/3][الزهد والرقائق لابن المبارك / دار الكتب العلمية ـ 53/2][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 443/3 ـ 154/10][مصنف عبد الرزاق الصنعاني / المكتب الإسلامي / ط 2 / 1403 هـ ـ 374/5][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 648/3][السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصوياني/ مكتبة العبيكان / ط 1 / 1424 هـ ـ 13/4][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 538/2]

على بكرة أبيها بِظُعُنِها و نَعَمِها و شائها و نساءها و أبناءها في وادي حنين ، فقال صلى الله عليه و آله و سلم لعمر بن الخطاب : (ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد) ؟ فقال عمر : (كذب ابن أبي حدرد) . فقال ابن أبي حدرد : (إن كذَّبْتَنِي فربما كذَّبْتَ من هو خير مني) . فقال عمر : (يا رسول الله ، ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (قد كنتَ يا عمر ضالا فهداك الله عز و جل) . ثم قرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يخرج إلى المشركين قبل أن يداهموا مكة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى صَفْوان بن أمَيَّةَ فسأله مائة درع ، و ما يصلحها من عُدَّتها ، فقال : (أَغَصْبًا يا مُحَمَّد) ؟ فقال : (بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك) .

و بعد أن جَهَّزَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ جيشه ، انطلق به ، و كان مؤلفا من عشرة آلاف مقاتل من المقاتلين الذين خرجوا معه إلى مكة ، بالإضافة إلى جمع غفير من الطُلَقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة ، مع أوباش الأعراب الذين أسلموا بإسلام قريش ، و خرج مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كثير من الشُّبَّان حديثِي العهد بالإسلام حُسَّرا ، ليس عليهم سلاح ، مطمئنين في ذلك إلى كثرة المقاتلين الذين خرجوا مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حينئذ ، مما يعني هذا أن الجيش يتشكل إلى حد كبير من جزء عظيم من الذين لم يتغلغل الإيمان بعدُ في قلوبهم ، و يؤكد هذا : حَنِينُ بعض أفراد هذا الجيش ، إلى بعض العادت الشركية التي كانت سائدة في الجاهلية ، عندما مروا بشجرة عظيمة كانت في طريقهم إلى حنين ، ذَكَّرتْهم بشجرةِ ذاتِ أنواطٍ التي كان الكفار يأتونها كل سنة ، و يعكفون عندها يوما ، و يعلقون بها أسلحتهم ، و يذبحون عندها ، فقالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (الله أكبر ، قلتم ، و الذي نفسُ مُحَمَّد بيده ، كما قال قوم موسى لموسى : {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} . إنها السُّنَن ، لَتَرْكَبُنَّ سنن من كان قبلكم سُنَّةً سُنَّةً) .

و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالرغم من كثرة من كان معه من المقاتلين ، لا يبرح في صلواته تلك الأيام ، أن يقول دبر صلواته ، على غير عادته ، كلماتٍ أثارت انتباه أصحابه ، حيث لم يكونوا يرونه يقولها من قبل ، فسئلوه عنها ، فقال لهم صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إن نبيا فيمن كان قبلكم ، أعجبته كثرة أمته ، فقال : (لن يروم هؤلاء شيء) . فأوحى الله إليه : (أن خَيِّرْ أمتك بين إحدى ثلاث : إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحَهم ، أو الجوعَ ، و إما أن أرسل عليهم الموت) . فشاورهم ، فقالوا : (أما العدو ، فلا طاقة لنا بهم ، و أما الجوع فلا صبر لنا عليه ، و لكن الموت) . فأرسل عليهم الموت ، فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا) . قال صلى الله عليه و آله سلم : (فأنا أقول الآن ، حيث أرى كثرتكم : (اللهم بك أحاول ، و بك أصاول ، و بك أقاتل و لا حول و لا قوة إلا بك) .

ثم سار الناس مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فأطنبوا السير حتى إذا كانوا بالعشي ، و حضرت صلاة العصر ، جاء رجل فارس فقال : (يا رسول الله ، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعتُ جبل كذا و كذا ، فإذا أنا بِهَوازِن على بكرة أبيهم ، بظُعُنِهِم ، و نَعَمِهِمْ ، و شائهم ، فاجتمعوا إلى حنين) . فتبسم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال : (تلك غنيمة المسلمين غدا ، إن شاء الله) . ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (من يحرسنا الليلة) ؟ فقال أنس بن مَرْثَدٍ الغَنَوِي : (أنا يا رسول الله) . فقال : (اركب) . فركب فرسا له ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (استقبل هذا الشِّعْبَ ، حتى تكون في أعلاه ، و لا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلَكَ الليلةَ) . فلما أصبحوا خرج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى مُصَلّاه ، فركع ركعتين ، ثم قال : (هل أحسستم فارسكم) ؟ فقال رجل : (ما أحسسنا) . فثوَّبَ بالصلاة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يلتفت إلى الشِّعْبِ حتى قضى صلاته ، فقال : (أبشروا فقد جاء فارسُكم) . فجعلوا ينظرون إلى ظل الشجر في الشِّعْب ، فإذا هو جاءٍ حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فسلم فقال :

(إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشِّعْب ، حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فلما أصبحت ، اطَّلَعْتُ على الشعبين ، فنظرت ، فلم أر أحدا) . فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (نزلت الليلة) ؟ فقال : (لا ، إلا مصليا أو قاضيَ حاجة) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (قد أوجبت ، فلا عليك أن لا تعمل بعدها) .

و لما استقبل المسلمون واديَ حنين في عماية الصبح ، انحدروا في وادٍ من أودية تِهامَة مُتَّسِع ، فأخذوا ينحدرون فيه انحدارا ، و كان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي ، فَكَمَنُوا لهم في شِعابه و جوانبه و مَضايِقه ، و قد أجمعوا و تهيئوا و أعدوا ، فما راعهم و هم منحطون إلا الكتائبُ قد شدوا عليهم شدة رجل واحد ، فالتحمت الصفوف ، و اشتد القتال ، و تَشَابَكَتِ السُّيُوفُ ، و كانت للمسلمين جولة في بداية المعركة ، انكشف المشركون على إثرها و فروا ، فأكب الطلقاء و ضعاف الإيمان على جمع الغنائم ، و جعل الباقون يطاردون فلول العدو ، في فوضى أحدثها من تخلل صفوفهم لينكب على جمع الغنائم ، حتى إذا بلغوا كمينا أعده لهم المشركون ، إذا بهم يفاجؤون بوابل من السهام ينهمر عليهم من مضايق الجبل و تجاويفه ، فما تكاد تخطئ هدفا ، فهرب الطلقاء و الأعراب و ضعاف الإيمان راجعين ، لا يلوي أحد على أحد ، و انحاز رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ذات اليمين ، ثم قال : (أين أيها الناس ؟ هلموا إلي ، أنا رسول الله ، أنا مُحَمَّد بن عبد الله ، أنا النبي لا كذب ، أنا بن عبد المطلب) . فما التفت إليه منهم أحد ، و لم يبق مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلا نفر قليل من المهاجرين و الأنصار و أهل بيته ، و تكلم ضعاف الإيمان و الطلقاء ، و كان من بينهم أبو سفيان صخر بن حرب بما في أنفسهم من الضِّغْنِ ، و قال أبو سفيان بن حرب : (لا تنتهي هزيمتهم دون البحور) . و كانت الأزلام لا تزال معه في كنانته ، و نادى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأعلى صوته : (يا لَلْمهاجرين ، يا لَلمهاجرين) . ثم نادى : (يا لَلْأَنصار ، يا لَلْأَنصار) . فقالوا : (لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك) . و أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ

آلِهِ وَ سَلَّمَ العباس بن عبد المطلب أن ينادي الناس معه ، فما هي إلا لحظات حتى اجتمع إليه منهم مائة ، فأعاد صفَّهُمْ ، و استقبل بهم المشركين ، ثم أرسلهم ، فقاتلوا قتالا عنيفا ، و أقبل المسلمون على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فاقتتلوا هم و الكفار ، فنظر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى قتالهم و هو على بغلته كالمتطاول عليها ثم قال : (الآن حَمِيَ الوَطِيسُ) . ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حَصَيَات ، فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : (شاهَتِ الوجوه ، انهزَمُوا و ربِّ الكعبة ، انهزَموا و ربِّ الكعبة) . فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة ، فأخذوا يتراجعون شيئا فشيئا ، حتى هزمهم الله ، و إذا بجزء كبير من أجزاء جيش المشركين ، أسرى مكَتَّفِين عند رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .

و بعد انتهاء المعركة ، قالت أم سليم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اقتل مَنْ بَعْدَنا مِنَ الطُلَقَاءِ ، انهزموا بك) . فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا أم سليم ، إن الله قد كفى و أحسن) .

و أنزل الله تعالى بسبب هذه المعركة قوله جل في علاه : {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُومِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} .[154]

سرية أوطاس

و بعد أن فَرَّ جماعة كبيرة من المشركين الذين شاركوا في غزوة حنين إلى جهة أوطاس ، بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خلفهم أبا عامر على جيشٍ

[154] [التوبة : 25 ، 26][الأعراف: 138][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 32/4 ـ 43 ـ 153/5 ـ 159 ـ 160][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 736/2 ـ 1398/3 ـ 1400 ـ 1402 ـ 1442][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 442/2 ـ 443 ـ 445][الآحاد والمثاني / دار الراية / ط 1 / 1411 هـ ـ 106/4][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 93/2 ـ 51/3][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 296/3 ـ 274/23 ـ 275 ـ 268/31 ـ 269 ـ 270 ـ 225/36][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 257/9][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 128/5]

فيه ابن أخيه : أبو موسى الأشعري ، و كان في المشركين دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ ، فَقُتِلَ دُرَيْدُ و هَـزَم الله أصحابـه ، و رمى جُشَمِيٌّ أبا عـامر في ركبتـه بـسهم فأثبتـه فيهـا ، فَلَاحَقَ أبو موسى راميَه ، فاختلفا ضربتين بالسيف ، فقتله أبو موسى ، و لما رجع إلى عمه أبي عامر ، و نزع السهم مـن ركبتـه ، ازداد حـاله سـوءا ، فأوصـاه أن يقـرئ النـبي صـلى الله عليـه و آله و سـلم الـسلام ، و أن يـستغفر له ، و اسـتخلف أبـو عامر قبل أن يلفظ آخر أنفاسه أبا موسى على الناس ، فمكث يسيرا ثم مات ، و لما رجع إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فدخل عليه في بيته ، وجده على سريـر مرمل ، عليه فراش ، قد أثرت رمال السرير عـلى ظهـره و جنبيـه ، فـأخبره بخـبره و خبر أبي عامر ، فدعا رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ بمـاء فتوضـأ ، ثم رفـع يديه فقال : (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر) . حتى بدا بيـاض إِبْطَيْهِ ، ثم قـال : (اللهـم اجعله يـوم القيامـة فـوق كثـير مـن خلقـك مـن النـاس) . فقـال أبـو مـوسى : (و لي فاسـتغفر) . فقـال : (اللهـم اغفـر لعبـد الله بـن قـيس ذنبـه ، و أدخلـه يـوم القيامـة مدخلا كريما) . [155]

غـزوة الطائف

و لما فرغ النبي صلى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ مـن معركـة حنـين ، توجـه مـن حينها إلى الطائف الذي شارك زعماؤه و رجاله في معركة حنين ، ثم لجأوا بعـد الهزيمـة إلى حصن فيه ، حيث الفُلولُ المنهزمـة مـن هـوازن و غطفـان و مـن معهـم ، و أمـر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بُدَيْل بـن وَرْقَـاء أن يحـبس سـبايا و أمـوال حُنَـيْنٍ بالْجِعِرَّانَةِ حتى يَقْدَمَ عليـه ، ثم انطلـق النـبي صـلى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ بجيـشه ، فوجدهم قد تحصنوا داخل الحصن ، فأمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المسلمين أن يَرموهم بالسهام ، و أخبرهم أن من بلغ بسهمه في سبيل الله كافرا ، فهو له درجـة في الجنة ، فاشـتدت السهام على أهـل الـشرك ، و تهاطلـت علـيهم تهاطـل المطـر ،

[155] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 5/155]

فنزل إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم أبو بكرة ثالثَ ثلاثةٍ و عشرين من عَبِيدِ الحصن ، و صمد الباقون ، فأعتق النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أولئك العبيد جميعا ، فحاصرهم النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أربعين ليلة ، فلما لم ينل منهم شيئا قال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إنا قافلون غدا إن شاء الله) . فقال ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (نرجع و لم نفتتحه ؟ لا نبرح أو نفتحها) . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (فاغدوا على القتال) . فغدوا ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، و كثرت فيهم الجراحات ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (إنا قافلون غدا إن شاء الله) . فكأن ذلك أعجبهم ، و سكتوا ، فضحك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم . [156]

قسمة غنائم حنين

و لما رجع النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى الْجِعِرَّانة ، استوفى جميع الغنائم ، و كانت كثيرة جدا ، و حذَّر الناس قبل القسمة من الغلول و قال : (أدوا الخيط و الْمِخْيَطَ ، فما فوقهما ، و إياكم و الغُلول ، فإن الغُلول يكون على أهله يوم القيامة عارا و نارا و شَنَارا) . فقام إليه رجل بِكُبَّةٍ من شعر فنبذها ، و قال : (يا رسول الله ، إني أخذت هذه لأصلح بها بَرْدَعَةَ بعير لي) . ثم أخذ النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يقسم تلك الغنائم بين الناس ، بما أراه الله تعالى من المصالح التي يقتضيها ظرف دولة الإسلام آنذاك ، فأكثر العطاء للطُلَقاء ، و كان ممن أكثر له النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ العطاء من الطلقاء : أبو سفيان بن حرب ، و عُيَيْنَةُ بن حِصْنٍ الفَزَاري ، و الأقرعُ بن حابس ، و سُهَيْلُ بن عمرو ، حيث أعطى النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كل واحد منهم مائةً من الإبل ، فلما سمع الناس بذلك ، هجموا على رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، يسألونه فَيْءَ الغنائم ، حتى اضطروه

---

156 [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 156/5 ـ 23/8 ـ 140/9][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 736/2 ـ 1402/3][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 30/2][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 95/6][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 428/3 ـ 71/29]

إلى سَمُرَةٍ ، فخطفت رداءه ، فوقف النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقال : (أَعْطُونِي رِدَائِي ، فوالله لو كان لي عدد هذه العِضَاهِ نعمًا لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلًا و لا كذوبًا و لا جبانًا) . ثم أتى بعيرا فأخذ من سَنَامِه وَبَرَةً ، ثم قال : (إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدرُ هذه ، إلا الْخُمُسَ ، و الْخُمُسُ مردود عليكم) . فقام رجل من بني تميم ، غائرُ العينين ، مشرف الوَجْنَتَيْن ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، مشمر الإزار ، فقال : (يا مُحَمَّد ، اعدل ، فوالله ما عدلت منذ اليوم) . فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ويلك ، و من يعدل إذا لم أعدل ؟ لقد شَقِيتُ و خِبْتُ و خسرت إن لم أكن أعدل) . ثم ولى الرجل ، فقال خالد بن الوليد : (يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه) ؟ قال : (لا ، معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ،، و لعله يصلي) . فقال خالد : (و كم مِنْ مُصَلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (إني لم أُومَرْ أن أُنَقِّبَ عن قلوب الناس ، و لا أشقَّ بطونهم) . ثم نظر إليه و هو مُقَفٍّ ، فقال : (إنه سيكون له شيعة من قِبَلِ المشرق ، و يخرج في عَقِبِ هذا ، قوم أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، أَحِدَّاءُ أَشِدَّاءُ ، يقولون مِنْ خير قول البرية ، يعبدون و يدأبون ، حتى يُعْجَبَ بهم الناس ، و تُعْجِبَهُم نفوسُهم ، يَحْقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم ، و صيامه مع صيامهم ، و عملكم مع عملهم ، يَقْرَءُونَ القُرْآنَ ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يحسبون أنه لهم و هو عليهم ، يقولون الحق بألسنتهم ، لا يجوز هذا منهم) . و أشار إلى حلقه ، (يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه ، ثم لا يعودون فيه ، يقتلون أهل الإسلام ، و يدعون أهل الأوثان ، هم شر الخلق و الخليقة ، طوبى لمن قتلهم و قتلوه ، يدعون إلى كتاب الله ، و ليسوا منه في شيء ، يخرجون على حين فُرْقَةٍ من الناس ، آيَتُهُم رجل أسود ، إحدى عَضُدَيْهِ مثلُ ثَدْيِ المرأة ، فيلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق ، لئن أنا أدركتهم ، لأقتلنهم قتل عاد ، فإذا رأيتموهم فأنيموهم ، ثم إذا لقيتموهم فاقتلوهم ، لا يزالون يخرجون ، كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال) .

و أنـزل الله فيـه و في أمثاله مـن المنـافقين قـوله : {وَ مِنْهُمْ مَـنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَـمْ يُعْطَـوْا مِنْهَـا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَ لَـوَ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤتِينَا اللَّهُ مِنْ فَـضْلِهِ وَ رَسُـولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} .

و كان بعض الأنصار في تلك الأثناء يلوم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على قسمته تـلك ، حيـث قـالوا : (إذا كانـت شـديدةٌ فنحن نُدْعَى ، و يُعْطَى الغَنِيمَةَ غيرُنا ، يَغْفِرُ اللهُ لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، يعطي قريشا و يتركنا ، و الله إن هذا لهو العجب ، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش ، و غنائمنا ترد عليهم) ؟ فكثرت القالة و فشت حتى قال قائلهم : (أمَّا رسول الله فقد لقي قومـه) . و كان أحدهم أسوأَ مقالا ، و أقبح لسانا منهم حيث قال كما قال ذو الخويصرة : (و الله إن هذه القسمة ما عدل فيها ، و ما أراد مُحَمَّد بها وجه الله ، و لا الدار الآخرة ، كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء) . فسمعه عبد الله بن مسعود فقال : (و الله لأخبرن رسـول الله صلى الله عليه و سلم) . فأتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هـو في ملإٍ من أصحابه ، فسارَّهُ بما قاله ذلك الأنـصاري ، فـشق ذلك عـلى النبـي صـلى الله عليه و آله و سلم ، و تغير وجهه و احمر و غـضب مـن ذلك غـضبا شـديدا ، حـتى تمنى ابن مسعود أنه لم يكن أخبره ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فمن يعـدل إذا لم يعـدل اللهُ و رسـوله ،، ألا تـأمنوني و أنا أمـين مـن في الـسماء ،، رحم الله موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر) . ثم أرسل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى سعد بن عبادة ، فلما دخل عليـه ، قـال له رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما مقالةٌ بلغتني عن قومك أكثروا فيها) ؟ فقال له سـعد : (فقـد كان مـا بلغك ، يا رسول الله ، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم ؛ لِمَا صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ ، قَسَمْتَ في قومـك ، و أعطيـت عطـايا عظامـا في قبائـل العرب ، و لم يكن في هذا الحي مـن الأنـصار شيء) . فقـال صـلى الله عليـه و آله و سلم : (فأين أنت من ذلك يا سعد) ؟ فقـال : (يا رسـول الله ، مـا أنا إلا امـرؤ مـن

قومي ، و ما أنا) ؟ فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة) . فلما اجتمعوا ، أتاه سعد فقال : (قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار) . فأتاهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال : (هل فيكم أحد من غيركم) ؟ فقالوا : (لا ، إلا ابن أخت لنا) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (ابن أخت القوم منهم) . ثم حمد الله ، و أثنى عليه بالذي هو له أهل ، ثم قال : (يا معشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وَجْدَةٌ وجدتموها في أنفسكم) ؟ فقال فقهاء الأنصار : (أما رؤساؤنا يا رسول الله ، فلم يقولوا شيئا ، و أما ناس منا حديثة أسنانهم ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه و سلم يعطي قريشا و يتركنا ، و سيوفنا تقطر من دمائهم) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي) ؟ فقالوا : (صدق الله و رسوله) . ثم قال : (ألم تكونوا ضُلَّالا فهداكم الله بي) ؟ قالوا : (الله و رسوله أَمَنُّ) . ثم قال : (و كنتم متفرقين فألفكم الله بي) ؟ فقالوا : (الله و رسوله أَمَنُّ) . ثم قال : (و عالة فأغناكم الله بي) ؟ فقالوا : (الله و رسوله أَمَنُّ) . ثم قال : (ألا تجيبونني يا معشر الأنصار) ؟ فقالوا : (و بماذا نجيبك يا رسول الله ، و لله و لرسوله المنُّ و الفضل) . فقال : (أما و الله لو شئتم لقلتم ، فَلَصَدَقْتُم و صُدِّقْتُم : أتيتنا مُكَذَّبا فصدقناك ، و مخذولا فنصرناك ، و طريدا فآويناك ، و عائلا فأغنيناك) . فقالوا : (بل لله المن علينا و لرسوله) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (إن قريشا حديثٌ عهدُهم بجاهليةٍ و مصيبةٍ ، و إني أردت أن أَجْبُرَهم و أتألَفَهم ، و إني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر ، أتألفهم ، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعَاعَةٍ من الدنيا ، تألفت بها قوما ليُسْلِموا ، و وكلتكم إلى إسلامكم ؟ أَوَلَا ترضون أن يرجع الناس بالشاة و البعير إلى بيوتهم ، و ترجعون برسول الله صلى الله عليه و سلم إلى بيوتكم) ؟ ثم قال : (و الذي نَفْسُ مُحَمَّد بيده ، لو سلك الناس واديا ، و سَلَكَتِ

الأنصارُ شِعْبًا ، لسلكت شِعْبَ الأنصار) . فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُم ، و قالوا : (رضِينا برسول الله قِسْمًا و حَظا) . [157]

إسلام هوازن

و ما كاد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يفارق الْجِعِرَّانة ، حتى جاءه وفد من هوازن معلنين إسلامهم و إسلامِ قومهم ، و سألوه أن يرد إليهم أموالهم و سبيهم ، فخيرهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بين السبي أو المال ، فاختاروا السبي ، فأمرهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يقوموا في المسجد بعد انتهاء النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من صلاة الظهر ، و يستشفعوا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى المسلمين في استرجاع نسائهم و أولادهم ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به ، فقام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : (أما بعد ، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين ، و إني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، أمَّا ما كان لي و لبني عبد المطلب فهو لكم) . فقال المهاجرون : (و ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه و سلم) . و قالت الأنصار : (ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه و سلم) . فقال الأقرع بن حابس : (أمَّا أنا و بنو تميم فلا) . و قال عيينة بن حصن : (أمَّا أنا و بنو فَزَارة فلا) . و قال العباس بن مِرْداس : (أما أنا و بنو سليم فلا) . فقامت بنو سليم ، فقالوا : (كذبت ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه و سلم) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (يا أيها الناس ، رُدُّوا عليهم نساءهم و أبناءهم ، فمن تمسك بشيء من هذا

[157] [التوبة : 58 ، 59][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 22/4 ـ 91 ـ 95 ـ 185 ـ 200 ـ 137 ـ 30/5 ـ 157 ـ 158 ـ 159 ـ 160 ـ 163 ـ 197/6 ـ 25/8 ـ 65 ـ 16/9 ـ 17 ـ 162][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 735/2 ـ 736 ـ 737 ـ 739 ـ 740 ـ 741 ـ 742 ـ 746 ـ 748 ـ 749 ـ 750 ـ 1277/3][صحيح وضعيف تاريخ الطبري / دار ابن كثير / دمشق / بيروت / ط 1 / 1428 هـ ـ 308/2][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 274/9 ـ 398 ـ 340/11 ـ 341 ـ 456 ـ 542 ـ 613 ـ 614 ـ 105/18 ـ 254 ـ 255 ـ 164 ـ 243/20 ـ 336 ـ 365 ـ 51/21 ـ 240 ـ 385/28 ـ 19/34 ـ 391/37][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 262/6 ـ 119/7][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 712/5][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 543/11 ـ 499/20][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 418/7]

الفيء ، فله ست فرائض من أول شيء يُفِيئه الله عز و جل علينا) . فرضي الناس جميعا بذلك ، و ردوا على هوازن سبيها ، و رد من غاب عن الصلاة مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، ما كان معه من سبي ، بعد أن بلغه كلامُ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، كعمر الذي أهدى جارية من السبي لابنه عبد الله ، فردها عبد الله بعد أن سمع هو و أبوه ما قاله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .[158]

أبو محذورة و الأذان

و بعد أن غادر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الجعرانة ، و كان في طريقه إلى مكة ، لقيه في طريقه عشرة فتية من شباب مكة ، كان من بينهم أبو محذورة ، و كان يومئذ متنكبا طريق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و لما حان وقت الصلاة ، و أخذ المؤذن يؤذن للصلاة ، جعل أبو محذورة و رفاقه يرددون كلمات المؤذن على سبيل السخرية و الاستهزاء ، و يحكون صوته ، مقلدين له بصراخهم الذي لفت انتباه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقال : (في هؤلاء تأذينُ إنسانٍ حسن الصوت) . فأرسل إليهم قوما ، فجاؤوا بهم ، و أقعدوهم بين يديه فقال : (أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع) ؟ فأشاروا جميعا إلى أبي محذورة ، فأرسلهم ، و حبس أبا محذورة عنده ، فقال : (قم فأذن بالصلاة) . يقول أبو محذورة : (فقمت ، و لا شيء أكره إلي من رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و لا مما يأمرني به) . فقام بين يديه ، فألقى عليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم التأذين ، ثم أمره أن يؤذن ، فأعاد ما كان يلقنه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إياه ، فكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يقول له : (ارجع فامدد صوتك ، و ارفع من صوتك) . و لقنه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ طريقة الأذان ، حتى أتقنها ، فأجلسه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بين يديه ، فمسح على ناصيته ، و برَّكَ عليه ثلاث

[158] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 99/3][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 519/9 ـ 274/9 ـ 612/11 ـ 613][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 262/6]

مرات ، و قال له : (بارك الله لك ، و بارك عليك) . و أعطاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صُرَّةً فيها شيء من فضة ، يقول أبو محذورة : (فذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه و سلم من كراهية ، و عاد ذلك كله محبة لرسول الله صلى الله عليه و سلم) . ثم قال لرسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا رسول الله ، مرني بالتأذين بمكة) . فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (قد أمرتك به) . فكان من ذلك الحين يؤذن مع عَتَّابِ بن أَسِيدٍ عاملِ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بمكة .

و أكمل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مسيره إلى مكة معتمرا من الجعرانة ، حتى إذا وصل إلى مكة ، أدى عمرته الثالثة بعد عمرة الحديبية و عمرةِ القضاء ، ثم قال لأصحابه : (اجمعوا أدراع صفوان) ، ففقدوا من دروعه أدراعا ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لصفوان : (إن شئت غرمناها لك) . فقال : (يا رسول الله ، إن في قلبي اليوم من الإيمان ما لم يكن يومئذ) . [159]

حَجَّة أبي بكر

و لما اقترب موسم الحج بعد فتح مكة ، أراد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يعلن للعرب كافة براءة ذمة الله و ذمة رسوله من كل مشرك كان بينه و بين النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عهد ، أن العهد الذي كان بينه و بين المشركين لم يبق منه إلا أربعة أشهر ، و أنْ لَّا عهد لله مع مشرك ، و أنَّ من أراد أن يَحْقِنَ دمه من المشركين ، فليس أمامه إلا الإسلام ، فبعث النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أبا بكر بذلك ، و أَمَرَه أن يُبَلِّغَ عنه كتابا يحتوي أوائل سورة براءة ، مما يتضمن جملة من الأحكام الجديدة المتعلقة بالحج بعد فتح مكة ، و أكد له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فيما بعثه به على أنْ لَّا يحج بعد العام مشرك ، و أنْ لَّا يطوف بالبيت

---

[159] [المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 5/2 ـ 7][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 454/1 ـ 455][صحيح ابن خزيمة / المكتب الإسلامي / ط 3 / 1424 هـ ـ 1440/2][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 147/6]

عريان ، و أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ثم بعث النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خلفه عليا على ذلك ، و كلفه بتبليغ ذلك بدلا من أبي بكر ، حتى إذا كان أبو بكر ببعض الطريق أدركه علي ، و أبلغه ما كلفه به النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأعطاه أبو بكر الكتاب ، و انطلقا إلى مكة ، و أَدَّيَا الحج الأكبر معا ، كُلٌّ في مهمته التي كُلِّفَ بها ، و كان علي إذا بَحَّ صوته ، كلف أبا هريرة أن ينادي بذلك مكانه ، و لما رجعا إلى النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، خشي أبو بكر أن يكون نزل فيه شيء ، بعد أن أرسل عليا بالكتاب بدله ، فسأل النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن ذلك ، فقال له النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إنما أُمِرْتُ أَنْ لَا يُبَلِّغَهُ عني إلا رَجُلٌ مِن أهل بيتي) .[160]

سرية بني جَذِيمة

و في أعقاب الإنجاز المهم ، الذي استطاع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من خلاله السيطرة على أم القرى قلبِ جزيرة العرب ، تَسَنَّى للنبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ التحرك جنوب الجزيرة العربية بكل سهولة ، من أجل نشر الإسلام في باقي ربوع الجزيرة العربية ، بعد أن كانت قريش و ما جاورها عائقا قويا عن انتشار الدعوة جهة الجنوب ، و لما كانت بنو جَذِيمة التي تقع جنوب مكة ، إحدى القبائل التي لا يزال موقفها غامضا من الإسلام ، أرسل إليها النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فلما جاءهم دعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : (أسلمنا) . فجعلوا يقولون : (صَبَأْنَا ، صَبَأْنَا) . فجعل خالد يقتل منهم و يأسر ، و دفع إلى كل رجل من سريته أسيره ، حتى إذا كان يوم ، أمر خالد

[160] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 64/6][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 982/2][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 275/5][أنساب الأشراف / دار الفكر / ط 1 / 1417 هـ ـ 383/1 ـ 155/2][خصائص علي / مكتبة المعلا / ط 1 / 1406 هـ ـ ص 92][التفسير من سنن سعيد بن منصور / دار الصميعي / ط 1 / 1417 هـ ـ 233/5][الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام / دار الفكر ـ ص 215][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 306/11 ـ 314][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 295/15][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 183/1 ـ 427/2 ـ 179/5 ـ 420/21] [صحيح ابن خزيمة / المكتب الإسلامي / ط 3 / 1424 هـ ـ 1440/2][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 21/9][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 545/2 ـ 546][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 216/30] [تعظيم قدر الصلاة / مكتبة الدار / ط 1 / 1406 هـ ـ 622/2]

أن يقتل كلُّ رجل أسيره ، فقال له عبد الله بن عمر : (و الله لا أقتل أسيري ، و لا يقتل رجل من أصحابي أسيره) . و كان ابن عمر يرى بأن القوم لا يستحقون القتل ؛ لأنهم عَبَّرُوا عن إسلامهم بما يعرفون ، و لعدم اتِّضاح المصطلحات الشرعية آنذاك ، فامتنع هو و جماعة معه من قتل الأسرى ، و نفَّذ البعض الآخر ما أَمَرَ به قائد الجيش خالد ، و كان من بين من نفَّذ أمرَ خالدِ بْنِ الولدِ : ابنُ أبي حدرد ، و الذي كان بين يديه أسيرٌ لَحِقَ امرأةً في جماعة من النسوة أَسِيراتٍ ، فقيل له : (أسلم) . فقال ذلك الأسير : (و ما الإسلام) ؟ فأخبروه به ، فإذا هو لا يعرفه ، فقال : (أفرأيت إن أنا لم أفعل ، فما أنت صانع) ؟ فقال له : (نقتلك) . فقال : [فهل أنت مُنْظِرِي حتى أدرك هذه النسوة ، أنظر إلى امرأة لحقتها ، ثم تردني بعدُ ، فتصنعوا ما بدا لكم] ؟ فقال له : (و الله إنه ليسير ما طلبت ، و نحن مدركوك) . فَقِيدَ إلى تلك النسوة ، حتى إذا أدركهن ، قال لإحداهن : (اسلَمِي حُبَيْش ، قبل نفاد العيش) . فقالت له : (اِسْلَمْ عشرًا و سبعًا وَتْرًا وَ تسعًا تترا) . فقال :

أَرَيتِكِ إذ طالبتكم فوجدتكم بِحَلْيَةَ أو ألفيتكم بالخوانق
ألم يك أهْلًا أن يُنَوَّلَ عاشق تَكَلَّفَ إدلاج السُّرَى و الودائق
فلا ذنب لي قد قلت إذ أَهْلُنَا معا أثيبي بِوُدٍّ قبل إحدى الصفائق
أثيبي بِوُدٍّ قبل أن يَشْحَطَ النَّوَى و ينأى الأمير بالحبيب المفارق

فلما قضى شعره قال لهم : (شأنكم) . فقدموه و ضربوا عنقه ، فانحدرت المرأة من هودجها ، فجثت عليه ، فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فلما قدموا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، أخبروه بما فعله خالد ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أما كان فيكم رجل رحيم) . ثم رفع النبي صلى الله عليه و آله سلم يديه فقال : (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) . مرتين .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم علي بن أبي طالب ، فقال : (يا علي ، اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر في أمرهم ، و اجعل أمر الجاهلية تحت قدميك) . فخرج علي حتى جاءهم ، و معه مال قد بعث به معه رسول الله صلى

الله عليه و آله و سلم ، فودى لهم الدماء ، و ما أصيب لهم من الأموال ، حتى إنه لَيَدِي لهم مِيلَغَةَ الكلب ، و هو شَيْءٌ يُحْفَر من خشب ، وَ يُجْعَل لِيَلَغَ فِيهِ الْكَلْب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم و لا مال إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم علي حين فرغ منهم : (هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم) ؟ فقالوا : (لا) . فقال : (فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال ، احتياطا لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، مما يعلم و لا تعلمون) . ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأخبره الخبر ، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أصبت و أحسنت) . [161]

وفود العربِ تُعْلِنُ إسلامَ قومِها أفواجا

و على إثر انتشار خبر إسلام قريش و القبائل المجاورة و الحليفة لها ، و ما حَلَّ بِمَن رَفَضَ الإسلام ، أقبلت القبائل العربية على الإسلام أفواجا ، و جعل الرجل يأتيه ، فيقول : (يا رسول الله ، أنا وافد بني فلان ، و جئتك بإسلامهم) . و ربما جاءه الرهط العظيم من القبيلة معلنين إسلامهم .

وفد ثقيف

و كانت قبيلةُ ثقيفَ من القبائل التي أرسلت وفدا عنها من أجل إعلان إسلامها ، فضرب لهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قُبَّةً ، و قبل أن يدخلوا على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، لبسوا حللهم ، و تشاوروا فيمن يمسك لهم رواحلهم ، فأبى الجميع إلا الدخول على النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و كرهوا التخلف عنه ، فقال لهم عثمان بن أبي العاص ، و كان أصغر القوم : (إن شئتم أمسكت لكم ، على أنَّ عليكم عهدَ الله لَتُمْسِكُنَّ لي إذا خرجتم) . فقالوا : (فذلك

---

[161] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 160/5 ـ 73/9][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 430/2 ـ 433][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 411/5 ـ 46/8][مسند الحميدي / دار السقا / دمشق / ط 1 / 1996 مـ ـ 65/2][البداية والنهاية / دار إحياء التراث العربي / ط 1 / 1408 هـ ـ 360/4]

لك ، فدخلوا على النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و كان في وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (إنا قد بايعناك فارجع) . و اشترطوا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا صدقة عليهم ولا جهاد ، فقبل النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذلك منهم ، و كان يقول فيما بعد : (سيتصدقون و يجاهدون إذا أسلموا) . و اشترط أحدهم أن يُسْلِم على أن يصلي صلاتين فقط ، فقبل منه ذلك النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و قال آخر : (إن أرضنا أرض باردة فكيف بالغسل) ؟ فقال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أمَّا أنا فأفرغ على رأسي ثلاثا) . و لم يرخص له النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في ترك الاغتسال ، و بينما هو مع الوفد ، إذ جاءه رجل فسارَّه ، فقال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اذهب فاقتله) . ثم قال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أليس يشهد أن لا إله إلا الله) ؟ فقال : (بلى ، و لكنه يقولها تعوذا) . فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، محمَّد رسول الله ، فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم ، و أموالهم ، إلا بحقها) .

و كان في وفد ثقيف وحشيٌّ بنُ حَرْب قاتل حمزة ، حيث إنه أُعْتِقَ ، ثم أقام في مكة ، حتى إذا فتح رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مكة ، هرب إلى الطائف ، فمكث بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ليسلموا ، تعيت عليه المذاهبُ ، و فكر في اللحاق بالشام أو اليمن أو بعض البلاد ، فأخبره رجل بأن النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ما يقتل أحدا من الناس دخل في دينه ، فلما قال له ذلك ، خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم المدينة ، فلم يَرُعْهُ إلا به قائما على رأسه يتشهد بشهادة الحق ، فلما رآه قال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أوحشي) ؟ فقال : (نعم يا رسول الله) . فقال : (اقعد ، فحَدِّثْني كيف قتلت حمزة) . فحدثه ، حتى إذا فرغ من حديثه قال له صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ويحك ! غَيِّبْ عني وجهك ، فلا أَرَيَنَّك) . ثم خرج وفد ثقيف ، فقالوا لعثمان بن أبي العاص : (انطلق بنا) . فقال : (أين) ؟ فقالوا :

(إلى أهلك) . فقال : (ضَرَبْتُ مِنْ أهلي ، حتى إذا حَلَلْتُ بباب النبي صلى الله عليه و سلم أرجع و لا أدخل عليه ؟ و قد أعطيتموني من العهد ما قد عَلِمْتُم) ؟ قالوا : (فأَعْجِلْ ، فإنا قد كفيناك المسألَةَ ، لم نَدَعْ شيئا إلا سألناه عنه) . فدخل فقال : (يا رسول الله ، ادع الله أن يفقهني في الدين و يعلمَني) . فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ماذا قلت) ؟ فأعاد عليه القول ، فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (لقد سألتني شيئا ما سألني عنه أحد من أصحابك ، اذهب فأنت إمامهم ، و أُمَّ الناسَ بِأَضْعَفِهِمْ ، فمن أمَّ قوما فليخفف ، فإن فيهم الكبير و المريض و الضعيف و ذا الحاجة ، و إذا صلى أحدكم وحده ، فليصل كيف شاء ، و اتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا) . فقال عثمان بن أبي العاص : (يا رسول الله ، إني أجد في نفسي شيئا) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ادنه) . فأجلسه بين يديه ، ثم وضع كفه في صدره بين ثدييه ، ثم قال : (تحول) . فوضعها في ظهره بين كتفيه ، ثم قال : (أُمَّ قومك) . و هكذا انصرف القوم إلى ديارهم ، و قد بايعوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على الإسلام .[162]

وفد عبد القيس من البحرين

و بينما كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يحدث أصحابه ذات يوم ، إذ قال لهم : (سَيَطْلُع عليكم من هذا الوجه رَكْبٌ هُم من خير أهل المشرق) . فقام عمر بن الخطاب ، فتوجه في ذلك الوجه ، فلقي ثلاثة عشر راكبا ، فرحب و قرب ، و قال : (مَنِ القوم) ؟ فقالوا : (نفر من عبد القيس) . فقال : (ما أقدمكم هذه البلاد ، التجارة) ؟ فقالوا : (لا) . فقال : (فلعلكم إنما قدمتم في طلب هذا الرجل) ؟ قالوا : (أجل) . فقال : (أما إن النبي صلى الله عليه و سلم قد ذكركم آنفا ، فقال

[162] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 259/1 ـ 341 ـ 1752/4][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 14/1 ـ 20][صحيح ابن خزيمة / المكتب الإسلامي / ط 3 / 1424 هـ ـ 731/1][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 72/2][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 50/9][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 637/4][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 81/26 ـ 201 ـ 173/38]

خيرا) . فمشى معهم يحدثهم ، حتى إذا نظر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال : (هذا صاحبكم الذي تطلبون) . فرمى القوم بأنفسهم عن رحالهم ، فمنهم من سعى ، و منهم من هرول ، و منهم من مشى ، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فأخذوا بيده يقبلونها ، و قعدوا إليه ، و بقي الأشج المنذر بن عائذ ، و هو أصغر القوم ، فأناخ الإبل و عقلها ، و جمع متاع القوم ، و لبس ثوبيه ، ثم أقبل يمشي على تؤدة ، و شَجُّه بوجهه ، حتى أتى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فأخذ بيد النبي صلى الله عليه و سلم فقبلها ، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (مَن القوم) ؟ فقالوا : (ربيعة) . فقال : (مرحبا بالوفد ، غيرَ خزايا و لا ندامى ؛ إذ أسلموا طائعين غير كارهين ، غير خزايا ، و لا موتورين ، إذ بعض قومنا لا يسلمون حتى يُخْزَوا ، و يُوتَرُوا) . فقالوا : (يا رسول الله ، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام ، و بيننا و بينك هذا الحي من كفار مضر ، فَمُرْنا بأمر فصل ، نخبر به من وراءنا ، و ندخل به الجنة) . فأمرهم بالإيمان بالله وحده ، ثم قال : (أتدرون ما الإيمان بالله وحده) ؟ قالوا : (الله و رسوله أعلم) . فقال : (شهادة أن لا إله إلا الله ، و أن مُحَمَّدا رسول الله ، و إقامُ الصلاة ، و إيتاءُ الزكاة ، و صيام رمضان ، و حج البيت ، و أن تُعطوا من المغنم الخمس) .

و نهاهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن الخمر ، و قال : (لعل أحدَكم يشرب الإناء ، ثم يزداد إليها أخرى ، حتى يأخذ فيه الشراب ، فيقوم إلى ابن عمه ، فيضرب ساقه بالسيف) . و كان في القوم رجل يدعى جَهْم بن قُثَم ، كان قد شرب قبل ذلك بالبحرين مع ابن عم له ، فقام إليه ابن عمه ، فضرب ساقه بالسيف ، فكانت تلك الضربة في ساقه ، فجعل يغطي جَهْمُ بن قُثَم ساقه ، ثم قال لهم بعد أن فرغ من تعليمهم جملة من الأحكام : (احفظوهن ، و أخبروا بهن من وراءكم) .

و التفت النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى أشج عبد القيس و هو المنذر بن عائذ ، فقال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا أشج ، إن فيك لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهما الله و رسوله) . فقال : (ما هما يا رسول الله) ؟ فقال : (الْحِلْمُ و الأناة) .

فقال : (يا نبي الله ، أشيء استفدتُه ، أم شيء جُبِلْتُ عليه) ؟ فقال : (بل شيء جبلتَ عليه) . فقال : (الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله عز و جل و رسوله صلى الله عليه و سلم) . ثم قال : (يا نبي الله ، بأبي أنت و أمي ، إني جئت معي بخالٍ لي مصابٍ ، تدعو له أن يعافيه الله ، و هو في الركاب) . فذهب إليه ليحضره ، و فتح عيبته فأخرج ثوبين حسنين ، و ألقى عنه ثياب السفر ، و ألبسه إياهما ، ثم أخذ بيده فجاء به إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و هو ينظر نظر المجنون ، فقال نبي الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اجعل ظهره من قِبَلي) . و أخذ من مؤخره بمجامع ردائه ، فرفع رداءه ، ثم ضرب بيده ظهره ، و قال : (اخرج عدو الله) . فالتفت ينظر نظر الصحيح ، ثم أقعده بين يديه ، و دعا له ، و مسح وجهه ، فلم تزل تلك المسحة في وجهه ، و هو شيخ كبير ، كأن وجهه وجهُ عذراء شبابا ، فما كان في القوم بعدُ رجلٌ يفضل عليه بعقل ، بعد دعوة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، ثم لما أراد القوم أن يرتحلو أمر لهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأراك و قال : (استاكوا بهذا) .

ثم انصرفوا راجعين ، فرفع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يديه ، و استقبل القبلة ، ثم أخذ يدعوا لوفد عبد القيس ، و جعل يقول : (اللهم اغفر لعبد القيس ، اللهم اغفر لعبد القيس ، اللهم اغفر لعبد القيس) .

و كان قد استغرق لقاءُ عبد القيس مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ما بين صلاة الظهر إلى صلاة العصر ، حتى إذا انصرفوا صلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ العصر بالناس ، ثم قضى راتبة الظهر بعد صلاة العصر ، فقالت له أم سلمة و هو في الصلاة : (يا رسول الله إني أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين ، و أراك تصليهما) ؟ فأشار بيده ، فاستأخرت عنه ، فلما انصرف ، قال : (يا بنتَ أبي

أمية ، سألتِ عن الركعتين بعد العصر ، إنه أتاني ناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم ، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر ، فهما هاتان) . [163]

وفد مزينة

و قدم على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وفدٌ مِنْ أَرْبَعِ مائةِ فَرْدٍ من قبيلة مزينة ، فلما أمرهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بأمره ، قال بعض القوم منهم : (يا رسول الله ، ما لنا طعام نتزوده) . فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم لعمر : (زودهم) . فقال : (ما عندي إلا فاضلة من تمر ، و ما أراها تغني عنهم شيئا) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (انطلق ، فزودهم) . فانطلق بهم إلى عِلِّية له ، فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق فقال : (خذوا) . فأخذ القوم حاجتهم ، و لا يزال التمر وافرا ببركة إذن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ . [164]

قدوم وفد تميم و وَفْدٍ من اليمن

و قدم رَكْبٌ من بني تميم على النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال لهم : (اقبلوا البشرى يا بني تميم) . فقالوا : (يا رسول الله ، قد بشرتنا فأعطنا) . ثم قال لهم : (اقبلوا البشرى يا بني تميم) . فقالوا : (يا رسول الله ، قد بشرتنا فأعطنا) . فرئي ذلك في وجهه ، و دخل عليه ناس من أهل اليمن ، فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (أتاكم أهل اليمن ، هم ألين قلوبا و أرق أفئدة ، الإيمان يمان ، و الحكمة يمانية ، رأس الكفر قِبَلَ المشرق) . و قال لهم صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم) . فقالوا : (قد قبلنا يا رسول الله ،

[163] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 48/1 ـ 571][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 363/29 ـ 365][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 327/5][شعب الإيمان / مكتبة الرشد / ط 1/ 1423 هـ ـ 5/11][الآحاد والمثاني / دار الراية / ط 1 / 1411 هـ ـ 314/3][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 245/12][الرخصة في تقبيل اليد لابن المقرئ / دار العاصمة / الرياض / ط 1 / 1408 هـ ـ ص 66][الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة / مكتبة الخانجي / القاهرة / ط 3 / 1417 هـ ـ 444/6][كشف الأستار عن زوائد البزار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1399 هـ ـ 279/3][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 232/12][الإيمان لابن منده / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط 2 / 1406 هـ ـ 307/1]

[164] [مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 155/39]

جئناك نسألك عن هذا الأمر) ؟ فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (كان الله ، و لم يكن شيء غيره ، و كان عرشه على الماء ، و كتب في الذكر كل شيء ، و خلق السموات و الأرض) .

و قال الطفيل بن عمرو الدوسي و أصحابه ، و كانوا من خيرة أهل اليمن للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا رسول الله ، إن دوسا عصت و أبت ، فادع الله عليها) . فقيل : (هلكت دوس) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اللهم اهد دوسا ، و أت بهم) .

و لما كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يُؤَمِّرُ على كل وَفْدٍ أحدهم قبل أن يفارقوه ، سأل رجلان من أهل اليمن العمل ، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم يستاك ، فقال لأبي موسى الأشعري و كانا من قومه : (ما تقول يا أبا موسى) ؟ فقال : (و الذي بعثك بالحق ، ما أطلعاني على ما في أنفسهما ، و ما شعرت أنهما يطلبان العمل) ؟ فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إنا و الله لا نُوَلي على هذا العمل أحدا سأله ، و لا أحدا حرص عليه ، و لكن اذهب أنت يا أبا موسى) . ثم ثم أتبعه معاذ بن جبل ، و قال لمعاذ بن جبل : (يسرا و لا تعسرا ، و بشرا و لا تنفرا و تطاوعا ، إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، و أن مُحَمَّدا رسول الله ، فإن هم طاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم و ليلة ، فإن هم طاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم طاعوا لك بذلك ، فإياك و كرائم أموالهم ، و اتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه و بين الله حجاب) .

و أما فيما يتعلق بأمير وفد تميم ، فقد قال أبو بكر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أَمِّرِ القعقاع بنَ مَعْبَد بن زرارة) . فقال عمر : (بل أَمِّر الأقرع بن حابس) . فقال أبو بكر : (ما أردت إلا خلافي) . فقال عمر : (ما أردت خلافك) . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فأنزل الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ

اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ} .

و كان الأقرع بن حابس التميمي حريصا على رياسة قومه على الرغم من وضوح الآية السابقة ، حيث إنه أتى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فناداه ، فقال : (يا محمّد إن مدحي زين ، و إن شتمي شين) . فخرج إليه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال : (ويلك ، ذلك الله) . و قال له الأقرع : (إنما بايعك سُرَّاقُ الحجيج ، مِنْ أسلم و غِفَار و مزينة و جهينة) . كأنه ينوه بفضله و عُلُوِّ قدره ، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (أرأيت إن كان أَسْلَمُ و غِفَارُ و مُزَيْنَةُ و جُهَيْنَةُ ، خيرا من بني تميم و بني عامر و أسد و غطفان ، خابوا و خسروا) ؟ فقال : (نعم) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و الذي نفسي بيده إنهم لخير منهم) . و أنزل الله : {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

و كان الأقرع بن حابس يتحرج أمام الوفود القادمة على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ أن يجلس النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع ضعفاء المومنين ، فجاء هو و عُيَيْنَة بْن حِصْن الفَزَاري إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقالا : (إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا ، تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا ، فاقعد معهم إن شئت) . فقال : (نعم) . قالوا : (فاكتب لنا عليك كتابا) . فدعا بصحيفة ، و دعا عليا ليكتب ، فنزل جبريل بقوله تعالى : {وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} . ثم ذكر الأقرعَ بنَ حابس و عيينة بن حصن ، فقال : {وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} . ثم قال : {وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُومِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} . فكان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يجلس معهم ، فإذا أراد أن يقوم قام و تركهم ، فأنزل الله : {وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَا تُطِعْ مَنَ اَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} . فكانوا يقعدون مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فإذا بلغوا الساعة التي يقوم فيها ، قاموا و تركوه حتى يقوم .

و وفد جرير بن عبد الله اليمني إلى المدينة مسلما ، و لما دنا من المدينة أناخ راحلته ، ثم حلَّ عيبته ، فلبس حلته ، و دخل المدينة ، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد قال للناس و هو في خطبته قبل أن يدخل جرير : (يدخل عليكم من هذا الباب مِنْ خير ذي يَمَنٍ ، ألا و إن على وجهه مَسْحَةُ مَلَكٍ) . و لما دخل جريرٌ المسجد ، إذا رسول الله صلى الله عليه و سلم يخطب ، فرماه الناس بالحدَق ، فقال لجليسه : (يا عبد الله ، ذكرني رسول الله صلى الله عليه و سلم) ؟ قال : (نعم ، ذكرك آنفا بأحسن ذكر) . فحمد الله ، حتى إذا قضى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خطبته ، و التقى به ، بايعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على الإسلام ، ثم قال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ألا تريحني من ذي الْخَلَصَةِ) ؟ فقال : (بلى) . ثم قال : (يا رسول الله ، إني رجل لا أثبت على الخيل) . فوضع يده على صدره ، و قال : (اللهم ثبته ، و اجعله هاديا مهديا) . فانطلق جرير في خمسين و مائة فارس من أَحْمَسَ ، فما وقع عن فرس بعد ، و كان ذو الْخَلَصَةِ بيتا باليمن لِخَثْعَمَ وَ بَجِيلَةَ ، فيه نُصُبٌ تُعْبَد ، و كان يقال لهذا البيت : الكعبة اليمانية ، فكسرها و حرَّقها بالنار ، فأرسل إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم يبشره ، فقال رسولُ جريرٍ لرسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا رسول

الله ، و الذي بعثك بالحق ، ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب) . فبارك النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على خيل أحمَس و رجالِها خمس مرات .[165]

وفد بني أسد

و قدم على النبي صلى الله عليه و آله و سلم وفد بني أسد ، فأخذوا يَعُدُّون مناقبهم على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقالوا : (يا رسول الله قاتلَتْك مضر كلها و لم نقاتلك ، و لسنا بأقلهم عددا ، و لا أقلِّهم شوكة ،،، وصلنا رحمك ،،،) . إلى آخر ما ذكروه ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأبي بكر و عمر حيث سمع كلامهم : (أيتكلمون هكذا) ؟ فقال أحدهما : (يا رسول الله ، إن فقههم لقليل ، و إن الشيطان لينطق على لسانهم) .[166]

وفد بني محارب

و خرج وفد بني محارب من الرَبَذَة ، حتى إذا أتوا أدنى حيطان المدينة ، نزلوا يلبسون ثيابا غير ثيابهم ، فبينما هم قعود ، إذ أتاهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عليه ثوبان ، و هم لا يعرفونه ، فسلم عليهم فقال : (من أين القوم) ؟ فقالوا : (من الربذة) . و كان معهم جمل أحمر ، فقال لهم : (تبيعوني هذا الجمل) ؟ فقالوا : (نعم) . فقال : (بكَم) ؟ فقالوا : (بكذا و كذا صاعا من تمر) . فقال : (أَخَذْتُهُ) . و ما استقصى ، و لا استنقصهم ثمنه ، فأخذ بِخِطَام الجمل ، ثم ذهب به ، حتى توارى في حيطان المدينة ، فقال بعضهم لبعض : (تعرفون الرجل) ؟ فلم يكن من أحد يعرفه ، فلام القوم بعضهم بعضا ، فقالوا : (تُعْطُونَ جملكم من لا

---

[165] [الأنعام : 52 ـ 53 ـ 54][الكهف: 28][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 21/1 ـ 44/4 ـ 65 ـ 75 ـ 105 ـ 182 ـ 128/2 ـ 165/5 ـ 168 ـ 73/8 ـ 15/9][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 73/1 ـ 1456/3 ـ 1878/4 ـ 1926 ـ 1955][صحيح ابن خزيمة / المكتب الإسلامي / ط 3 / 1424 هـ ـ 870/2][مسند أبي داود الطيالسي / دار هجر / ط 1 / 1419 هـ ـ 49/2][الطبقات الكبرى ـ الطبقة الرابعة من الصحابة / مكتبة الصديق / 1416 هـ ـ ص 799][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 516/31][الطبقات الكبرى ـ الطبقة الرابعة من الصحابة / مكتبة الصديق / 1416 هـ ـ ص 809][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 4/9][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 346/21][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 242/5 ـ 243]

[166] [مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 250/4]

تعرفون) ؟ فقالت امرأة كانت ظعينةً معهم : (لا تلاوموا ، فلقد رأينا رجلا لا يغدر بكم ، ما رأيت شيئا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه) . فلما كان العشي أتاهم رجل فقال : (السلام عليكم و رحمة الله و بركاته ، أأنتم الذين جئتم من الربذة) ؟ فقالوا : (نعم) . قال : (أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه و سلم إليكم ، و هو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا ، و تكتالوا حتى تستوفُوا) . فأكلوا من التمر حتى شبعوا ، و اكتالوا حتى استوفَوا ، ثم قدموا المدينة من الغد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قائم يخطب الناس على المنبر يقول : (يد المعطي العُلْيا ، و ابْدأ بمن تعول : أمك ، و أباك ، و أختك ، و أخاك ، و أدناك ، أدناك) . و ثَمَّ رجل من الأنصار فقال : (يا رسول الله ، هؤلاء بنو ثعلبة بن يَرْبُوع ، الذين قتلوا فلانا في الجاهلية ، فخذ لنا بثأرنا) . فرفع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يديه حتى بدا بياض إبْطَيْهِ فقال : (لا تجني أم على ولد ، لا تجني أم على ولد) . [167]

وافد بني سعد بن بكر

و بينما كان الصحابة جلوسا مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم في المسجد ، إذ دخل رجل من أهل البادية على جمل ، فأناخه في المسجد ، و عقله ، ثم قال لهم : (أيكم مُحَمَّد) ؟ و النبي صلى الله عليه و آله و سلم متكئ بين ظهرانَيْهِم ، فقالوا : (هذا الرجل الأبيض المتكئ) . فقال له الرجل : (ابن عبد المطلب) ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (قد أجبتك) . فقال الرجل للنبي صلى الله عليه و آله و سلم : (إني سائلك ، فمشدد عليك في المسألة ، فلا تَجِدْ علي في نفسك) . فقال : (لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك) . فقال : (يا مُحَمَّد ، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك) ؟ قال : (صدق) . قال : (فمن خلق السماء) ؟ قال : (الله) . قال : (فمن خلق الأرض) ؟ قال : (الله) . قال : (فمن نصب هذه الجبال ،

[167] [المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 668/2][الطبقات الكبرى / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1410 هـ ـ 115/6][جزء فيه حديث المصيصي لوين / أضواء السلف / ط 1 / 1418 هـ ـ ص 50]

و جعل فيها ما جعل) ؟ قال : (الله) . قال : (فبالذي خلق السماء ، و خلق الأرض ، و نصب هذه الجبال ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (اللهم نعم) . قال : (فَأَنْشُدُكَ بالله إلهِك ، و إله من كان قبلك ، و إله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نعبده وحده ، لا نشرك به شيئا ، و أن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا تعبدها من دونه) ؟ قال : (اللهم نعم) . قال : (فأَنْشُدُك بالله إلهك ، و إله من كان قبلك ، و إله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس) ؟ قال : (اللهم نعم) . قال : (أنشدك بالله ، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة) ؟ فقال : (اللهم نعم) . قال : (أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تاخذ هذه الصدقة من أغنيائنا ، فتقسمها على فقرائنا) ؟ فقال : (اللهم نعم) . قال : (فأنشدك به ، آلله أمرك أن يَحُجَّ هذا البيتَ من استطاع إليه سبيلا) ؟ فقال : (اللهم نعم) . ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، و شرائع الإسلام كلَّها ، و يناشده عند كل فريضة ، كما ناشده في التي قبلها ، ثم أعلمه ما حرم الله عليه ، فلما فرغ ، قال : (أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أنك رسول الله ، آمنت و صدقت بما جئت به ، و سأؤدي هذه الفرائض ، و أجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد و لا أنقص ، و أنا رسولُ مَنْ ورائي مِن قومي ، و أنا ضِمَام بن ثعلبة ، أخو بني سعد بن بكر) . ثم انصرف راجعا إلى بعيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حين ولَّى : (إن يَصْدُقْ ذو العَقِيصَتَيْنِ ، يَدْخُلِ الجنةَ) . فأتى إلى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أولُ ما تكلم به أن قال : (بِئْسَتِ اللات و العزى) . فقالوا : (مَهْ يا ضِمام ، اتق البرص و الجذام ، اتق الجنون) . قال : (ويلكم ، إنهما و الله لا يضران و لا ينفعان ، إن الله عز و جل قد بعث رسولا ، و أنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، و إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أن

مُحَمَّدًا عبده و رسوله ، إني قد جئتكم من عنده ، بما أمركم به و نهاكم عنه) . فما أمسى من ذلك اليوم و في حاضره رجل و لا امرأة إلا مسلما .[168]

وفد اليمامة

و قدِم مُسَيْلِمَة الكذاب المدينة على عهد النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، في بشر كثير من قومه ، فجعل يقول : (إنْ جعل لي مُحَمَّد الأمر من بعده تبعته) . فأتاه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و معه ثابت بن قيسِ بن شَمَّاس ، و هو الذي يقال له : خطيب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و في يد النبي صلى الله عليه و آله و سلم قطعة جريد ، فوقف على مسيلمة في أصحابه ، فقال له مسيلمة : (إن شئتَ خَلَّيْتَ بيننا و بين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، و لن تَعْدُوَ أمرَ الله فيك ، و لئن أدبرتَ ، لَيَعْقِرَنَّكَ الله ، و إني لأراك الذي أُرِيتُ فيه ما أُرِيت) . و قد كان النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رأى في منامه في يديه سِوَارَيْنِ من ذهب فكَرِهَهُمَا ، و أهمه شأنهما ، فأُوحِيَ إليه في المنام أنِ انْفُخْهُما ، فنفخهما ، فطارا ، و قد أولهما النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالكذابَيْنِ الذَيْنِ هو بينهما : العَنْسِيّ صاحب صنعاء ، و مسيلمة صاحب اليمامة ، ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لمسيلمة : (و هذا ثابت بن قيس يجيبك عني) . ثم انصرف عنه .[169]

وفود عدي بن حاتم

و وفد عدي بن حاتم على النبي صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد أنِ انطلق قبل ذلك ، حتى كان في أقصى الأرض مما يلي الروم عند قيصر ، إثر بِعْثَةِ النبي

---

[168] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 23/1][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 41/1][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 121/4 ـ 124][سنن الدارمي / دار المغني للنشر والتوزيع / ط 1 / 1412 هـ ـ 516/1][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 118/4 ـ 210]

[169] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 203/4 ـ 170/5 ـ 171][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1780/4 ـ 1781][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 336/18]

صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ؛ بسبب كراهته للنبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فكره مكانه الآخِرَ أشد من مكانه الأول ، ثم قال في نفسه : (رجلٌ مِنَ العرب يقول إني رسول الله ، فوالله لو أتيته فطالعته فنظرت ، فإن كان ما يقول حقا اتبعته ، و إن كان غير ذلك لم يَخْفَ علي ، و لم يضرني شيئا) . فأقبل حتى إذا قدم المدينة استشرفه الناس ، و قالوا : (جاء عدي بن حاتم ، جاء عدي بن حاتم) . و كان في عنق عَدِي صليب من ذهب ، فقال له النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا عدي اطرح عنك هذا الوثن) . ثم تلا النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قوله تعالى : {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} . فقال له عدي : (إنا لسنا نعبدهم) . فقال له النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، و لكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، و إذا حرموا عليهم شيئا حرموه) . و قال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم : (يا عدي بن حاتم ، أسلم تسلم) . فقال له عدي : (إن لي دِينا) . فقال له رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أنا أعلم بدينك منك) . قالها له النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مرتين أو ثلاثا ، ثم قال له صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ألستَ ترأس قومك) ؟ فقال : (بلى) . فقال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ألست تأكل الْمِرْبَاع) ؟ فقال : (بلى) . فقال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فإن ذلك لا يحل لك في دينك) . فتضعضع لذلك عدي و تواضع ، ثم قال له النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا عدي بن حاتم ، أسلم تسلم ، فإني قد أظن أنه يمنعك أن تسلم خصاصةٌ تراها مِنْ حولي ، فإنك ترى الناس علينا إِلْبًا واحدا ، و تقول إنما تَبِعَهُ ضعفة الناس و من لا قوة له ، هل أتيت الْحِيرة) ؟ فقال : (لم آتها ، و قد علمت مكانها) . فقال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (توشك الظعينة من ظعائن المسلمين ، أن ترحل من الْحِيرَة بغير جِوار ، حتى تطوف بالبيت ، لا تخاف أحدا إلا الله) . فقال عدي فيما بينه و بين نفسه : (فأين دُعَّارُ طَيِّئٍ الذين قد سَعَّروا البلاد) ؟ ثم قال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و لئن طالت بك حياة لتُفْتَحَن علينا كنوز كِسْرَى بن هُرْمُزَ) . فقال عدي : (كسرى بن

هرمز) ؟ قال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (كسرى بن هرمز) . مرتين ، قال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و لَيَفِيضَنَّ المال ، حتى يُهِمَّ الرجلَ مَنْ يَقْبَل منه مالَه صدقةً ، و لَيَلْقَيَنَّ اللّٰهُ أحدَكم يوم يلقاه ، و ليس بينه و بينه تَرْجُمان يترجم له ، فليقولن له : (ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك) ؟ فيقول : (بلى) . فيقول : (ألم أُعْطِكَ مالا و أُفْضِلْ عليك) ؟ فيقول : (بلى) . فينظر عن يمينه ، فلا يرى إلا جهنم ، و ينظر عن يساره ، فلا يرى إلا جهنم) . فكان عدي بن حاتم يقول بعد موت النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لقد رأيت الظَّعِينَةَ ، تَرْحَلُ من الْحِيرة بغير جوار ، حتى تطوف بالبيت ، و كنت في أول خيل أغارت على المدائن ، على كنوز كسرى بن هرمز ، و أحلف بالله ، لتجيئن الثالثة إنه لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم لي) .[170]

وفد نجران

و وفد على النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ العاقب و السيد صاحبا نصارى نجران ، و اختارا غير ما اختاره عدي بن حاتم ، من أجل معرفة صدق النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حيث أرادا أن يلاعنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال أحدهما لصاحبه : (لا تلاعنه ، فوالله لئن كان نبيا فلاعنَّا ، لا نفلح نحن و لا عقبنا أبدا) . فأتياه فقالا : (لا نلاعنك ، و لكنا نعطيك ما سألت ، فابعث معنا رجلا أمينا ، يعلمنا السنة و الإسلام ، و لا تبعث معنا إلا أمينا) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (لأبعثن معكم رجلا أمينا حَقَّ أَمِينٍ) . فاستشرف لها أصحاب النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقال رسول الله صلى

---

[170] [التوبة : 31][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 197/4][التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع / دائرة المعارف العثمانية / حيدر آباد ـ 106/7][الطبقات الكبرى ـ الطبقة الرابعة من الصحابة / مكتبة الصديق / 1416 هـ ـ ص 646][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 120/32][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 71/15][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 278/5]

الله عليه و آله و سلم : (قم يا أبا عبيدة بن الجراح) . فلما قام ، قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (هذا أمين هذه الأمة) .[171]

غزوة تبوك العام التاسع سنة 631 م

و بعد أنِ امْتَدَّتْ أنوارُ النبوة جنوبا و شرقا و غربا ، و أخذ عرب الجزيرة العربية يدخلون في دين الله أفوجا ، كان من المهم جدا تحقيقُ الامتداد ذاته جهة الشمال ؛ من أجل تحقيق التوازن الإقليمي إزاء عاصمة الإسلام ، و لا سيما بعد المقاومة العنيفة التي أبدتها الإمبراطورية البيزنطية أمام التقدم الإسلامي جهةَ الشمال في غزوة مؤتة ، فأمرهم الله تعالى بقتال نصارى الشام الذين أبوا إلا العناد ، و قرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ السير بجيشه إلى تبوك ، حيث ينتهي الامتداد الروماني بقيادة هرقل ، و كان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة ، الموافق لسنة : 631 من الميلاد ، و الناس آنذاك في حر شديد ، مُجْهِدين مُعْسِرين ، قد طابت الثمار و الظلال ، غير أن الوقت لا ينتظر ، و الفرصة لا تعوض ، فبيَّنَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أُهْبَة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، و المسلمون حينئذ كثير ، يزيدون على عشرة آلاف ، و لا يجمعهم ديوانٌ حافظٌ ، فما رجل يريد أن يتغيب ، إلا ظن أنْ سَيَخْفَى ، ما لم يَنْزِل فيه وحيُ اللهِ ، و حَثَّ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صحابته على تجهيز جيش تبوك ، فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (من جَهَّزَ جيش العسرة ، فله الجنة) . فجاء عثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم بألف دينار في ثوبه ، فوضعها في حَجْرِ النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و كان المسلمون يحملون على ظهورهم بأجرة ، فيجيئون بها إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ؛ من أجل تجهيز الجيش ، فكان يجيء أحدهم بالمد ، و الآخر بالصاع و الصاعين ، و هكذا ، كلٌّ بما يستطيع

[171] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 171/5][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1685/3 ـ 1881/4][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 439/21]

، و كان المنافقون يلمزون كل متصدق بمقال يناسبه ، فإذا تصدق الرجل بالشيء الكثير ، قالوا عنه مراءٍ ، كما هو شأن عبد الرحمن بن عوف ، الذي جاء إلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بنصف ماله الذي يعادل أربعين أُوقِيَّةً من ذهب ، فدعا له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بقوله : (بارك الله لك فيما أعطيت ، و بارك لك فيما أمسكت) . و أما من تصدق باليسير ، فقد قال عنه المنافقون : (إن الله لغني عن هذا) . كما هو شأنُ أبي خيثمة الأنصاري الذي تصدق بنصف ماله الذي كان يعدل صاعا ، فأنزل الله تعالى في المنافقين قوله : {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُومِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ} . و أخذ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المسلمون يتجهزون للخروج ، و كان فيمن امتلأ قلبه شوقا إلى الخروج مع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، على الرغم من عدم امتلاكهم لمركب يبلغهم وِجْهَتَهم ، جماعةٌ من الأشعريين الفقراء ، الذي أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أبا موسى الأشعريَّ يسأله لهم الْحُمْلانَ ، فلما جاءه قال : (يا نبي الله ، إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم) . فقال : (و الله لا أحملكم على شيء ، ما عندي ما أحملكم عليه) . فرجع حزينا من منع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و من مخافة أن يكون رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قد وجد في نفسه عليه ، فرجع إلى أصحابه ، فأخبرهم الذي قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فلم يلبث إلا سُوَيْعَة ، إذ سمع بلالا ينادي : (أَيْ عبدَ اللهِ بنَ قيس) . فأجابه ، فقال : (أجب ، رسولُ الله صلى الله عليه و آله و سلم يدعوك ، فلما أتى رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم ، قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : [خذ هذين البعيرين ، و هذين البعيرين ، و هذين البعيرين ، فانطلِقْ بهن إلى أصحابك ، فقل : إن الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن] . و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قد اشترى ستةَ أَبْعِرَة مِنْ سعد ، فانطلق أبو موسى إلى أصحابه بهن ، فلبثوا غير بعيد ، فقال أبو موسى لأصحابه : (أتينا النبي صلى الله عليه و سلم نستحمله ، فحلف أن لا يحملنا ، ثم

حَمَلنا ، نَسِيَ رسول الله صلى الله عليه و سلم يمينه ، فوالله لئن تَغَفَّلْنا رسولَ الله صلى الله عليه و سلم يمينه ، لا نفلح أبدا ، فارجعوا بنا إلى النبي صلى الله عليه و سلم نُذكِّرْه) . فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا : (يا رسول الله إنا استحملناك ، فحلفتَ أن لا تحملنا ، فعرفنا أنك نسيت يمينك ، أَفَنَسِيتَ يا رسول الله) ؟ فقال لهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و الله ما أنا حملتكم ، و لكن الله حملكم ، و إني و الله إن شاء الله لا أحلف على يمين ، فأرى غيرها خيرا منها ، إلا كفرت عن يميني ، و أتيت الذي هو خير ، فانطلقوا ، فإنما حملكم الله عز و جل) .

و استخلف النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عليا على المدينة قبل مسيره ، حتى إذا انطلق إلى تبوك ، أتاه علي بالْجُرُفِ يحمل سلاحه ، فقال : (يا رسول الله ، أَتُخَلِّفُني بعدك في الصبيان و النساء ، و لم أتخلف عنك قط) ؟ فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (يا علي ارجع) . فولى مدبرا ، و اغرورقت عيناه ، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال : (يا رسول الله ، إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلَّفْتَني استثقالا لي) . فقال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدي) .

و خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المسلمون يوم الخميس ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يحب أن يخرج يوم الخميس ، و لم يتخلف آنذاك عن الغزوة إلا رجلا معروفا بالنفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ، سوى الثلاثة من السابقين الأولين الذين شهدوا بدرا ، و هم : كَعْبُ بن مالك ، و مُرَارَةُ بن الرَّبيع العُمَرِي ، و هِلَال بن أُمَيَّةَ الواقِفِيُّ ، و كان أبو خيثمة الأنصاري من الذي تخلفوا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، إلا أنه تدارك تسويفه و تماطله ، ساعاتٍ بعد خروج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، عندما رجع ذات يوم إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما عند حائط ، قد رشَّتْ كل واحدة منهما عريشها ، و بَرَّدت له فيها ماء ، و هيأت له طعامًا ، فلما دخل قال

: (رسولُ الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في الضِّحِ و الريح و الْحَرِّ ، و أبو خيثمة في ظلٍ بارد ، و ماء بارد ، و طعام مُهَيَّىء ، و امرأة حسناء ، في ماله مقيم ، ما هذا بالنَّصَفِ ، و الله لا أدخل عَرِيشَ واحدة منكما ، حتى أَلْحَق برسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، فهَيِّئا لي زادًا) . ففعلتا ، ثم قَدَّمَ ناضِحَةً فارتحل ، ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، حتى أدركه حين نزل تبوك ، فسار حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فلما طلع قال الناس : (هذا راكب) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (كن أبا خيثمة) . فلما تأمله القوم قالوا : (يا رسول الله ، هذا أبو خيثمة) . فلما أناخ ، سلم على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أولى لك أبا خيثمة) . فقص عليه خبره ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بخير ، و قال له خيرا .

و أصاب الجيشَ في تلك الغزوة قَيْظٌ و عطش شديد ، حتى كادت رقابهم أن تنقطع من شدة العطش ، حتى إن الرجل لَيَنْحَرُ بعيره ، فيَعْصِرُ فَرْثَه ، فيشربه ، و يجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر : (يا رسول الله ، قد عَوَّدَك اللهُ في الدعاء خيرا ، فادع لنا) . فقال : (أتحب ذلك) ؟ قال : (نعم) . فرفع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يديه ، فلم يُرْجِعْهُما حتى أظلت سحابة ، فسكبت ماءها ، فملأوا ما معهم ، و بعد أن أكرمهم الله بهذه الكرامة ، أقبل بعض الصحابة على رجل من ضعاف الإيمان الذين لم يتخلصوا من النفاق ، فقالوا له : (ويحك هل بعد هذا شيء) ؟ فقال : (سحابة مارة) . و هذا هو شأن كل من فَسَدَ طبعه بالمعاصي و الذنوب ، لا يستطيع رؤية الحق ، و العياذ بالله .

و ليس هذا الموقف من هذا المنافق في هذه الغزوة هو الأخير ، فقد كان للمنافقين في هذه الغزوة مواقف كثيرة من هذا القبيل ، تستدعي ضرورة اليقظة الدائمة ، و الحذر التام من هذه الفئة الخطيرة .

فقد سار النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه في طلبها ، و عند رسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رجل من أصحابه يقال له عُمَارة بن حزم ، و كان عَقَبِيًّا بَدْرِيًّا ، و هو عم بني عمرو بن حزم ، و كان في رحله رجل اسمه : زيد بن اللُّصَيْتِ القَيْنُقَاعِي ، أحد المنافقين ، حيث قال في غياب عُمارة الذي كان عند رسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أليس محمَّد يزعم أنه نبي ، و يخبركم عن خبر السماء ، و هو لا يدري أين ناقته) ؟ و في تلك الأثناء ، قال رسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و عُمارة عنده : (إن رجلًا قال : هذا محمَّد يخبركم أنه نبي ، و يزعم أنه يخبركم بأمر السماء ، و هو لا يدري أين ناقته ، و إني و اللهِ ما أعلم إلا ما علمني الله ، و قد دلني الله عليها ، و هي في الوادي ، في شِعْبِ كذا و كذا ، و قد حَبَسَتْها شجرة بزمامها ، فانطلِقوا حتى تأتوني بها) . فذهبوا ، فجاءوا بها ، فرجع عُمَارة بن حزم إلى رَحْله فقال : (و الله لَعَجَبٌ ، مِنْ شيء حدثناه رسول الله صلى الله عليه و سلم آنفا ، عن مقالةِ قائلٍ ، أخبره الله عنه بكذا و كذا) . و حدثهم عمارة بما قاله زيد بن اللُّصيت ، فقال رجل ممّن كان في رحل عمارة : (زيدٌ و اللهِ قال هذه المقالةَ قبل أن تأتي) . فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه و يقول : (إلَيَّ عِبَادَ الله ، إن في رحلي لداهيةً و ما أشعر ، اخرج أَيْ عدوَّ اللهِ مِنْ رَحْلِي ، فلا تصحبني) .

و نزل النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بهم الْحِجْرَ ، عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناسُ من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجَنوا منها ، و نصبوا القدور باللحم ، فأمرهم النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن لا يشربوا من بئرها ، و لا يستقوا منها ، فقالوا : (قد عجنا منها ، و استقينا) . فأمرهم أن يُـهَرِيقوا ما استَقَوْا من بئرها ، و أن يَعلفوا الإبل العجين ، فأهراقوا القدور ، و علفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، فأمرهم أن يستقُوا منها ، و نهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبُوا ، و قال : (إني أخشى أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم ، و لا

تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا ، إلا أن تكونوا باكين ؛ أن يصيبكم ما أصابهم ، و لا تسألوا الآيات ، و قد سألها قوم صالح ، فكانت تَرِدُ مِن هذا الفَجّ ، و تَصْدُرُ من هذا الفج ، و كانت تشرب ماءهم يوما ، و يشربون لبنها يوما ، فعقروها ، فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم صيحةٌ ، أهمد الله مَنْ تحت أَديمِ السماء منهم ، إلا رجلا واحدا كان في حرم الله) . فقيل : (من هو يا رسول الله) ؟ فقال : (هو أبو رِغال ، فلما خرج من الحرم ، أصابه ما أصاب قومه) . ثم تقنع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بردائه و هو على الرحل ، و زجر ناقته ، فأسرع حتى خَلَّفَها .

و لما اشتد السير بالجيش ، قال النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إنكم ستأتون غدا ، إن شاء الله ، عينَ تبوك ، و إنكم لن تأتوها حتى يُضْحِيَ النهار ، فمن جاءها منكم ، فلا يَمَسَّ مِنْ مائها شيئا ، حتى آتِيَ) . فجاءها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و قد سبقه إليها رجلان ، و العين مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بشيء من ماء ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (هل مَسَسْتُمَا من مائها شيئا) ؟ فقالا : (نعم) . فغضب النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و غلظ عليهما القول ، و قال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غَرَفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا ، حتى اجتمع في شيء ، و غسل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيه يديه و وجهه ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء منهمر غزير ، فاستقى الناس ، و شربوا ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لمعاذ : (يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة ، أن ترى ما هاهنا قد ملئ جِنانا) .

و لما انتهى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى أرض تبوك ، و اخترق حدود دولة الروم التي لم يكن يحوم بحماها أحد آنذاك ، لم يجد بها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أحدا ، فقرر المقام بها ، و قال لأصحابه : (إنه سيأتيكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقومن فيها أحد ، و من كان له بعير فَلْيُوثِقْ عِقَاله) . فهبت ريح شديدة ، و لم يقم فيها إلا رجل ، فألقته الريح في جبل طيء .

و عسكر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بتبوك مدةً ، يَسْتَفِزُّ من خلالها قادة الروم و شجعانها ، و كبرياء الروم و جبروتها ، فلم يلق استجابة ، إلا أنه أتاه رسولُ مَلِكِ أَيْلَةَ يوحنا بنِ العَلْمَاءِ مسالما ، يطلب من النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الصلح و الوَلَاء ، و أهدى للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بغلة بيضاء ؛ يستعطفه بها ، فصالحه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على دفع الجزية ، و كساه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم رداءه .

و في تلك الأثناء سأل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن كعب بن مالك ، فقال : (ما فعل كعب) ؟ فقال رجل من بني سلمة : (يا رسول الله ، حبسه بُرْدَاهُ ، و نَظَرُهُ في عِطْفِهِ) . فقال معاذ بن جبل : (بئس ما قلت ، و الله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا) . فسكت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم .

و في إحدى ليالي تبوك ، قام النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يصلي من الليل ، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه ، حتى إذا صلى و انصرف إليهم ، قال لهم : (لقد أُعْطِيت الليلةَ خمسا ، ما أعطيهن أحد قبلي : أمَّا أنا فأرسِلت إلى الناس كلهم عامة ، و كان مَنْ قبلي إنما يُرسَل إلى قومه ، و نُصِرْتُ على العدو بالرعب ، و لو كان بيني و بينهم مسيرةُ شهر ، لملئ منه رعبا ، و أُحِلَّتْ لِيَ الغنائم كلها ، و كان من قبلي يعظمون أكلها ، كانوا يحرقونها ، و جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مساجدَ و طهورا ، أينما أدركتني الصلاة تمسحت و صليت ، و كان من قبلي يعظمون ذلك ، إنما كانوا يصلون في كنائسهم و بيعهم ، و الخامسة هي ما هي ، قيل لي : سل ، فإن كل نبي قد سأل ، فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم و لمن شهد أن لا إله إلا الله) .

و أصاب الناسَ جوع ، فقالوا : (يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضِحَنا ، فأكلنا و ادَّهنا) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (افعلوا) . فجاء عمر ، فقال : (يا رسول الله ، إن فعلتَ قَلَّ الظَهْرُ ، و لكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله أن يجعل في ذلك) . فقال رسول

الله صلى الله عليه و آله و سلم : (نعم) . فدعا بِنِطْع ، فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجيء بكف ذُرَةٍ ، و يجيء الآخر بكف تمر ، و يجيء الآخر بكِسْرَةٍ ، حتى اجتمع على النِّطْع من ذلك شيء يسير ، فدعا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليه بالبركة ، ثم قال : (خذوا في أوعيتكم) . فأخذوا في أوعيتهم ، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملئوه ، فأكلوا حتى شبعوا ، و فَضَلَتْ فَضْلَةٌ ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أشهد أن لا إله إلا الله ، و أني رسول الله ، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ ، فيُحْجَبُ عن الجنة) .

و مرَّ عوف بن مالك الأشجعي في ليلة من ليالي تبوك بخيمة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ آخِرَ السَّحَرِ ، فسلم عليه ، فرد عليه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ السلام ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (عوف) ؟ فقال : (نعم) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ادخل) . فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يتوضأ وضوءا مكينا ، فقال : (يا رسول الله ، أَدخُل كُلِّي أو بعضي) ؟ فقال : (بل كلُّك) . فلما جلس ، قال له النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اعدد يا عوف ستا بين يدي الساعة ، أولهن موتي) . فبكى عوف حتى جعل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يُسْكِتُه ، ثم قال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (و الثانية : فتح بيت المقدس ، و الثالثة : داء يظهر فيكم ، مثل قُعَاصِ الغنم ، يَسْتَشْهِدُ اللهُ به ذراريَّكُم و أنفسكم ، و يزكي به أعمالكم ، و الرابعة : يَفِيض المال فيكم ، حتى إن الرجل لَيُعْطَى المائةَ دينار فيتسخطها ، و الخامسة : فتنة تكون في أمتي ، لا يبقى بيت مسلم إلا دخلته ، و السادسة : هدنة تكون بينكم و بين بني الأصفر ، فيسيرون إليكم على ثمانين راية ، تحت كل راية اثنا عشر ألفا ، فُسْطاطُ المسلمين يومئذ في أرض يقال لها : الغُوطة ، في مدينة يقال لها : دمشق) .

و في ثنايا هذه النبوءة التي أخبر بها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عوفَ بنَ مالك ، و ما أخبر به صحابته من أن الله تعالى نصره بالرعب ، إشارة إلى قرب

فتح بيت المقدس ، بعد أن جَبُنَ الرومُ عن مواجهة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و عن حماية من كان على حدود مملكته .

و لما أتم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عشرين يوما منذ نزوله بأرض تبوك ، قام في الناس خطيبا ، فحمد الله تعالى و أثنى عليه ثم قال : (إن الله أذن لكم بهذا المسير ، و قد أذن لكم بالرجوع) .

و هكذا انطلق الجيش راجعا إلى المدينة ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، ضرب غلام لَعَّابٌ من المهاجرين غلاما من الأنصار على دبره ، فغضب الأنصاري غضبا شديدا ، حتى تداعَوْا ، فقال الأنصاري : (يا لَلْأَنصار) . و قال المهاجري : (يا لَلْمهاجرين) . فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فخرج فقال : (ما بال دعوى الجاهلية ، دعوها فإنها منتنة) . فقالوا : (يا رسول الله كَسَعَ رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (لا بأس ، لينصرِ الرجل أخاه ظالما أو مظلوما ، فإن كان مظلوما فلينصره ، و إن كان ظالما فلينهه ، فإنه له نصر) . فسمع بذلك عبد الله بن أُبَيّ ابنِ سَلُول ، فقال : (أقد تداعوا علينا ؟ أمَا و الله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز منها الأذل) . فبلغ النبيَّ صلى الله عليه و آله و سلم قوله ، فقام عمر فقال : (يا رسول الله ، دعني أضربْ عنق هذا المنافق) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (دعه يا عمر ، لا يتحدث الناس أن مُحَمَّدا يقتل أصحابه ، و إني لأكره أن يغضَب في ذاك من لا أحب أن يغضَب) .

و على الرغم من إخماد النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لنار هذه الفتنة ، التي كادت أن تعصف بجهود النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ؛ من أجل توحيد الأمة ، إلا أن عبد الله بن أبي بن سلول لم يتوقف عند هذا الحد ، بل راح يحرض أصحابه على ترك الإنفاق على مَنْ عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ؛ حتى يَنْفَضُّوا ، فسمِعَه زيدُ بن أرقم ، فأخبر عمَّه ثابتَ بن قيس بذلك ، فأخبر ثابت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه و آله و

سلم إلى عبد الله بن أُبَيٍّ و أصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و كذَّب زيدا ، فأصاب زيدا هَمٌّ لم يصبه مثله قط ، فجلس في البيت ، فقال له عمه : (ما أردت إلى أن كذَّبك رسول الله صلى الله عليه و سلم و مقتك) ؟ فأنزل الله تعالى : {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) وَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُوفَكُونَ (4) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَوْا رُءُوسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُومِنِينَ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} .

فبعث النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى زيد بن أرقم ، فقرأ عليه الآيات السابقة ، ثم قال له : (إن الله قد صدَّقك يا زيد) . و أما المنافقون ، فقد نزلت الآيات السابقة كالصواعق المحرقة على أفئدتهم ، و هذا هو الجهاد الذي أوجبه الله تعالى في هذا الصنف الخطير من الناس ، بعد أن أمر الله نبيه بجهادهم في قوله سبحانه و تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِيسَ الْمَصِيرُ} .

و لكن يا ترى ، هل كَفَّ المنافقون عن عنادهم و مكرهم ، بعد نزول تلك الآيات الزاجرات فيهم ؟

لقد كانت تلك الآيات البينات كافيةً لمن كان له قلب سليم ، غير أن من كانت طبيعته معجونةً بالعناد و الهوى و حب العاجلة ، لا ينفع فيه الوعظ و

التذكير ، و لذلك ما كادت تنتهي تلك المؤامرة حتى برزت مؤامرة أخرى في نفس الغزوة قبل الوصول إلى المدينة ، حيث إن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عند اقترابه من العقبة أمر مناديا فنادى : (إن رسول الله أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد) . و بينما رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقوده حذيفة ، و يسوق به عمار ، إذ أقبل خمسةَ عشرَ رهطا متلثمون على الرواحل ، غَشَوْا عمارا و هو يسوق برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و أقبل عمار يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لحذيفة : (قد ، قد) . حتى هبط رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فلما هبط رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم نزل ، و رجع عمار ، فقال : (يا عمار ، هل عرفت القوم) ؟ فقال : (قد عرفت عامة الرواحل ، و القومُ متلثمون) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (هل تدري ما أرادوا) ؟ فقال : (الله و رسوله أعلم) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أرادوا أن يُنَفِّرُوا برسول الله صلى الله عليه و سلم فيطرحوه) . فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال : (نَشَدْتُكَ بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة) ؟ فقال : (أربعةَ عشر) . فقال : (إن كنتَ فيهم ، فقد كانوا خمسة عشر ، عذر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم منهم ثلاثة لم يسمعوا مناديَ رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و ما علموا ما أراد القوم ، و أشهد أن الاثني عشر الباقين حَرْبٌ لله و لرسوله في الحياة الدنيا ، و يوم يقوم الأشهاد) .

و واصل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مسيره ، حتى إذا بلغ ثَنِيَّةَ الوداع ، خرج إليه الرجال و النساء و الصبيان يتلقونه .

و لما بلغ كعبَ بنَ مالك أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قد توجه قافلا من تبوك ، حضره همه ، و طفق يتذكر الكذب و يقول : (بماذا أخرج من سخطه) ؟ و استعان على ذلك بكل ذي رأي من أهله ، فلما قيل : (إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أظل قادما) . زاح عنه الباطل ، و عرف أنه لن يخرج منه أبدا بشيء فيه كذب ، فأجمع صدقه ، و أصبح رسول الله صلى الله عليه و آله

و سلم قادما ، و لما دخل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المدينة ، توجه إلى المسجد ، و كان إذا قدم من سفر ، بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك ، جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، و يحلفون له ، و كانوا بضعة و ثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم علانيتهم و بايعهم ، و استغفر لهم ، و وكل سرائرهم إلى الله ، و جاءه كعب ، فلما سلم عليه ، تبسم تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثم قال : (تعال) . فجاء يمشي ، حتى جلس بين يديه ، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابْتَعْتَ ظهرك) ؟ فقال : (بلى ، إني و الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أنْ سأخرج من سَخَطِهِ بِعُذْر ، و لقد أُعْطِيتُ جدلا ، و لكني و الله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يُسْخِطَك علي ، و لئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله ، لا و الله ما كان لي من عذر ، و الله ما كنت قط أقوى و لا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك) . فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك) . فقام ، و ثار رجال من بني سلمة فاتبعوه ، فقالوا له : (و الله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، و لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه و سلم لك) . فما زالوا يؤنبونه ، حتى أراد أن يرجع فيُكَذِّبَ نفسه ، ثم قال لهم : (هل لقي هذا معي أحد) ؟ قالوا : (نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك) . فقال : (من هما) ؟ قالوا : (مُرَارَة بن الربيع العمري ، و هلال بن أمية الواقفي) . و هما رجلان صالحان ، كانا قد شهدا بدرا ، فكان له فيهما أسوة ، و مضى حين ذكروهما له ، و أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بهجره و هجر صاحبيه ، و لم يأمر بهجر أحد من المتخلفين غيرهم ، فاجتنبهم الناس ، و تغيروا لهم ، يقول كعب : (حتى تنكَّرَتْ في نفسي الأرض ، فما هي التي أعرف) . فلبثوا على ذلك خمسين ليلة ، فأما مُرارةُ و هلال ،

فاستكانا ، و قعدا في بيوتهما يبكيان ، و أما كعب ، فكان أشب القوم و أجلدهم ، فكان يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ، و يطوف في الأسواق ، و لا يكلمه أحد ، و يأتي رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم فيسلم عليه ، و هو في مجلسه بعد الصلاة ، فيقول كعب في نفسه : (هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا) ؟ و كان يصلي قريبا منه ، فيسارقه النظر ، فإذا أقبل كعب على صلاته ، أقبل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إليه ، و إذا التفت نحوه ، أعرض عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فلبثوا كذلك ، حتى طالت عليهم جفوة الناس ، و كان كعب يقول : (ما من شيء أَهَمُّ إلي مِنْ أن أموت ، فلا يصلي عليَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم ، أو يموتَ رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فأكونَ من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ، و لا يُصَلَّى و لا يُسَلَّم علي) . و في تلك الأيام العصيبة و بينما كان يمشي في سوق المدينة ، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : (من يدل على كعب بن مالك) . فطفق الناس يشيرون له إليه ، حتى إذا جاءه ، دفع إليه كتابا من ملك غَسَّانَ ، فقرأه ، فإذا فيه : (أما بعد ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، و لم يجعلك الله بدار هوان و لا مَضْيَعَة ، فالحقْ بنا نواسك) . فقال حين قرأها : (و هذا أيضا من البلاء) . فقصد بها التَّنُّور ، فسجره بها ، و لما مضت أربعون ليلة من الخمسين ، أتى رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه و آله و سلم كعبا فقال له : (إن رسول الله صلى الله عليه و سلم يأمرك أن تعتزل امرأتك) . فقال : (أُطَلِّقُها أم ماذا أفعل) ؟ قال : (لا ، بل اعتزلها و لا تقربها) . و أرسل إلى صاحبيه مثل ذلك ، فقال لامرأته : (الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله عز و جل في هذا الأمر) . فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالت : (يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه) ؟ فقال : (لا ، و لكن لا يقربك) . فقالت : (إنه و الله ما به حركة إلى شيء ، و الله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا) . فقال لكعب بعضُ أهله : (لو استأذنت رسول الله

صلى الله عليه و سلم في امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه) . فقال كعب : (و الله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و ما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا استأذنته فيها ، و أنا رجل شاب) . فلبثوا بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لهم خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن كلامهم ، و بعد أن صلَّوا صلاة الفجر ، صُبْحَ خمسين ليلةً ، و بينما كان كعبٌ جالسا على ظهر بيت من بيوته ، على الحال التي ذكر الله ، قد ضاقت عليه نفسه ، و ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَت ، إذ سمع صوت صارخ علا على جبلِ سِلَع بأعلى صوته : (يا كعبَ بن مالك ، أبشر) . فخر ساجدا ، و عرف أنْ قد جاء فرج ، و كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قد آذن بتوبة الله عليهم حين صلى صلاة الفجر ، بعد أن أنزل الله عليه قوله : {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيءِ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ اِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا اِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

فذهب الناس يبشرونهم ، و لما جاء كعبا الذي سمع صوته يبشره نزع له ثوبَيْهِ ، فكساه إياهما بِبُشْرَاه ، و ما يملك غيرهما يومئذ ، و استعار ثوبين فلبسهما ، و انطلق كعب إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، فتلقاه الناس فوجا فوجا ، يُهَنُّونَه بالتوبة ، يقولون : (لِتَهْنِك توبة الله عليك) . حتى إذا دخل كعب

المسجد ، إذا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم جالس ، و الناس حوله ، فقام إليه طلحةُ بن عبيد الله يهرول حتى صافحه و هنَّأه ، فلما أقبل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، إذا وجهه يبرُق من السرور ، و كان صلى الله عليه و آله و سلم إذا سُرَّ ، استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بعد أن سلم عليه : (أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك) . فلما جلس بين يديه قال : (يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي ، صدقةً إلى الله و إلى رسوله) . فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك ، يجزئ عنك الثلث) . فقال كعب : (فإني أمسك سهمي الذي بخيبر يا رسول الله ، إن الله إنما نجاني بالصدق ، و إن مِنْ توبتي أن لا أحَدِّثَ إلا صدقا ما بَقِيت) .

و أنزل الله تعالى في الذين كذَبوا رسولَ الله صلى الله عليه و آله و سلم من المتخلفين و اعتذروا بالباطل ، قوله سبحانه : {يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُومِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنَ اَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} .[172]

[172] [التوبة : 73 ـ 79 ـ 94 – 96 ـ 117 - 121][المنافقون : 1 - 8][التحريم : 9][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 109/2 ـ 125 ـ 13/4 ـ 48 ـ 89 ـ 101 ـ 148 ـ 149 ـ 183 ـ 3/6 ـ 70 ـ 8 ـ 152 ـ 154 ـ 94/7 ـ 128/8 ـ 147][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 56/1 ـ 681 ـ 1268/3 ـ 1269 ـ 1270 ـ 1784/4 ـ 1785 ـ 1870 ـ 1998 ـ 2120 ـ 2144 ـ 2286][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 625/5][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 191/10 ـ 639/11 ـ 44/22 ـ 66 ـ 328/32 ـ 362 ـ 232/34 ـ 210/39 ـ 411][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 59/5][جامع البيان / دار هجر للطباعة والنشر / ط 1 / 1422 هـ ـ 400/11 ـ 566 ـ 589 ـ 592 ـ 639][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 32/4 ـ 234/15][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 223/4 ـ 113/11 ـ 427/14][السنة لابن أبي عاصم / المكتب الإسلامي / ط 1 / 1400 هـ ـ 600/2][مسند سعد بن أبي وقاص / دار البشائر الإسلامية / بيروت / ط 1 / 1407 هـ ـ ص 139][المحلى بالآثار / دار الفكر ـ 157/12][سيرة ابن هشام / مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / ط 2 / 1375 هـ ـ 523/2][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 630/3][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 158/7 ـ 40/18 ـ 113/20 ـ 41 ـ 54][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 208/5 ـ 292/7 ـ 350][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 168/5][السنة لابن أبي عاصم / المكتب الإسلامي / ط 1 / 1400 هـ ـ 177/1][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 256/5][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 371/10][المراسيل / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1408 هـ ـ ص 346][فتح الباري لابن حجر / دار المعرفة / 1379 هـ ـ 111/8]

سرية دومة الجندل

و بعد نكول الإمبراطورية الرومانية عن حماية أراضيها المتاخمة لجزيرة العرب ، أصبحت الأراضي التابعة لها هنالك في منتهى الضعف و الهشاشة العسكرية ، ما حدا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى استثمار ذلك الظرف من أجل نشر الإسلام في باقي ربوع المعمورة ، فأرسل سريةً نحوَ دُومَةِ الجندل ، و لم يتوجه إليها بنفسه ، فسمع بذلك أُكَيْدِرُ مَلِكُ دُومة الجندل ، فجاء إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقال : (إنه بلغني أن خيلا قد خرجت ، و إني أخاف على أهلي و مالي ، فاكتب لي كتابا ، أن لا تعترضوا لشيء هو لي ، فإني مُقِرٌّ بالذي علي) . فكتب لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله و سَلَّمَ كتابا ، و صالحه على دفع الجزية ، ثم إن أُكيدر أخرج قَبَاءَ دِيباج منسوج بالذهب ، مما كان يكسوهم كسرى ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم و يتعجبون منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (أتعجبون من هذا ؟ فوالذي نفسُ مُحَّمد بيده ، لَمِنْدِيلُ سعدِ بن معاذ في الجنة أحسنُ من هذا) . فقال أُكيدر : (إني أهديت هذا لك فاقبله مني) . فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (ارجع بِقَبائِك ، فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حُرِمَه في الآخرة) . فلما رجع أُكيدر إلى منزله شَقَّ عليه أن تُرَدَّ عليه هديته ، فجاء إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله و سَلَّمَ فقال : (إنا أهلُ بيت يشق علينا أن ترد هديتنا ، فاقبله مني) . فقبله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و أعطاه عليا ، و قال له : (شَقِّقْهُ خُمُرا بين الفواطم) . و هن : فاطمة بنت النبيّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و فاطمة بنت أسد أمُّ عليّ ، و فاطمة بنت حمزة عليهم السلام .[173]

[173] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1644/3 ـ 1645 ـ 1917/4][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 199/8][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 145/21][معجم الصحابة لابن قانع / مكتبة الغرباء الأثرية / المدينة المنورة / ط 1 / 1418 هـ ـ 351/2][جزء فيه أحاديث من مسموعات أبي ذر الهروي / دار الكتب العلمية / بيروت / ط 1 / 1423 هـ ـ ص 47][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 198/9][الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء / أضواء السلف / ط 1 / 1428 هـ ـ 442/5]

حجة الوداع العام العاشر سنة 632 م

و بعد أن أمضى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في المدينة عشرَ سنين ، من الجهاد و الدعوة إلى الإسلام ، في مختلف أرجاء الجزيرة العربية ، و أخذ الإسلام على إِثْرِها في الانتشار ، و دخل الناس في دين الله أفواجا ، جاءت الإشارة من الله تعالى إلى نبيه الكريم ، بالاستعداد للالتحاق بالرفيق الأعلى ، و لما كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قد شُغِلَ طيلة تلك السنين عن الحج ، قرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يختم جهاده قبل الرحيل ، بآخر حجة تكون على مَسْمَعٍ و مَرْأًى من جميع المسلمين في جزيرة العرب ، و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قد حج قبل الهجرة حجتين ، فأعلن النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للناس عزمه على الحج ، و أُذِّنَ في الناس ، أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حاج ، فَقَدِمَ المدينةَ بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و يعمل مثل عمله ، فلم يبق أحد يقدر أن يأتي راكبا ، أو راجلا إلا قدم .

فانطلق النبي صلى الله عليه و آله و سلم من المدينة في الخامس و العشرين من شهر ذي القعدة ، الموافق للواحد و العشرين من شهر فيفري ، بعد ما تَرَجَّلَ ، و ادَّهَن و لَبِس إزاره و رِداءه هو و أصحابه ، فلم يَنْهَ عن شيء مِنَ الأَرْدِيَة و الأُزُرِ تُلْبَس إلا الْمُزَعْفَرَة ، و التي تُبْقِي أثر الزعفران على الجلد ، و كان معهم النساء و الولدان ، حتى إذا أتَوا ذا الْحُلَيْفَةِ ، ولدت أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ زوجةُ أبي بكر : محمدَ بنَ أبي بكر ، فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تسأله كيف تصنع ، فأمرها النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالاغتسال ، و الاستثفارِ بثوب ، و الإحرامِ ، ثم الإهلالِ بالحج ، و أن تصنع ما يصنع الناس ، إلا الطواف بالبيت .

فاغتسل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، ثم صلى في المسجد عند الشجرة : الظهرَ و هو صامت ، ثم ركب ناقته القَصْواء ، فلما انبعثت به ، جعل يسبح و يحمد الله و يهلل ، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، إذا بين يديه

مَدُّ البصر ، من راكب و ماش ، و عن يمينه مثل ذلك ، و عن يساره مثل ذلك ، و من خلفه مثل ذلك ، فأحرم بالحج مفرَدا ، و لبّى به كذلك ، و قال : (اللهم هذه حجة ، لا رياء فيها و لا سُمْعة) . ثم أخذ يلبي بقوله : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد ، و النعمة ، لك و الملك ، لا شريك لك) . و ساق الهدي ستا و ستين أو أربعا و ستين ، و ساق الموسرون معهم هديهم ، و كان أحد الحجاج قد أحضر معه هديًا من الإبل ليذبحه لله في الحج ، فتحرج من ركوبها ، و اكتفى بالسير على قدميه ، فرآه النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقال : (اركبها) . فقال : (إنها بدنة) ! فقال : (اركبها) . قال : (إنها بدنة) ! فقال : (اركبها ويلك ، اركبها بالمعروف حتى تجد ظهرًا) .

و لزم رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تلبيته ، و أقبل الناس مُهِلِّين مع رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، يصرُخون بالحج صُراخا ، و يقولون : (لبيك اللهم لبيك بالحج) .

و قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مكة لأربع مَضَيْنَ مِن ذي الحجة ، الموافق لأول مارس ، فصلى الصبح بالبطحاء ، ثم اغتسل ، و دخل مكة من كُدَاء عند ارتفاع الضحى ، من الثنية العليا التي بالبطحاء ، فأتى باب المسجد فأناخ راحلته ، ثم توضأ ، و دخل المسجد ، فبدأ بالْحَجَرِ الأسود فاستلمه ، و فاضت عيناه بالبكاء ، ثم مشى على يمينه ، فرمل ثلاثةَ أطواف مِنَ الْحَجَرِ إلى الْحَجَر ، و مشى أربعا على هِينَتِه ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ : {وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} . و رفع صوته يُسْمِعُ الناس ، فجعلَ المقامَ بينه و بين البيت ، فصلى ركعتين ، قرأ في الركعة الأولى سورة الفاتحة و سورة الكافرون ، و في الركعة الثانية الفاتحة و الإخلاص ، فلما فرغ ، أتى البيت ، فاستلم الحجر ، ثم ذهب إلى زمزم ، فشرب منها ، و صب على رأسه ، ثم رجع فاستلم الركن ، ثم خرج من باب الصفا ، فلما دنا من الصفا ، قرأ : {إِنَّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} . ثم قال : (أبدأُ بما بدأ الله به) . فبدأ بالصفا ، فرقي عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ،

فوحد الله و كبره و حمده ، و قال : (لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له ، له الملك ، و له الحمد ، يحيي و يميت ، و هو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له ، أنجز وعده ، و نصر عبده ، و هزم الأحزاب وحده) . ثم دعا بما قُدِّرَ له ، فعل مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل ماشيا إلى المروة ، حتى إذا انْصَبَّتْ قدماه في بطن الوادي سعى ، حتى إذا صعدت قدماه ، مشى حتى أتى المروة ، فصعد عليها ، حتى رأى البيت ، فقال عليها كما قال على الصفا ، و فعل هذا حتى فرغ من الطواف ، فلما كان آخرُ طوافه على المروة قال : (يا أيها الناس ، إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، لم أَسُقِ الهدي ، و لجعلتها عمرة ، و لكني سُقْتَ الهديَ ، و لا ينبغي لسائق الهدي أن يُحِلَّ حتى يبلغ الهدي محله ، فمن كان منكم ليس معه هدي ، فَلْيَحِلَّ ، و لْيَجْعَلْها عمرة ، فكبُرَ ذلك على الناس ، و ضاقت به صدورهم ، و فَشَتْ في ذلك القالة ، و كان العرب قبل الإسلام يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فقام خطيبا فقال : (بلغني أن أقواما يقولون كذا و كذا ، و الله لأنا أبر و أتقى لله منهم) . فقام سُرَاقة بن مالك فقال : (يا رسول الله ، عَلِّمْنا تعليم قوم ، كأنما ولدوا اليوم ، عُمْرَتُنا هذه لعامنا هذا خاصة ، أم للأبد) ؟ فقال رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لا ، بل للأبد) . ثم شبك صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أصابعه واحدة في الأخرى ، و قال : (دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة ، دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة) .

ثم نزل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأعلى مكة عند الْحَجُون ، و هو مُهِلٌّ بالحج ، و لم يَقْرَبِ الكعبة بعد طوافه بها حتى رجع من عرفة ، و حل الناس كلهم ، إلا النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و من كان معه هدي ، و ليس مع أحد منهم هدي ، غيرَ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و أبي بكر و عمر و طلحة و ذوي اليسارة .

و قدم علي من اليمن بِبُدْنِ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فوجد فاطمة مِمَّنْ حَلَّ ، و لبست ثيابا صبيغا ، و اكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : (إن أبي أمرني بهذا) . فذهب إلى رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مستفتيا فيما ذكَرَتْ عنه فاطمة ، فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (صدقَتْ ، صدقَتْ ، أنا أمرتها) . ثم قال له : (و أنت يا علي ، ماذا قلت حين فرضت الحج) ؟ فقال : (قلت : اللهم إني أَهِل بما أهل به رسولك) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (فإن معي الهدي ، فلا تُحِل ، و أَهْدِ و امكثْ حراما كما أنت) . و كان عدد الهدي الذي قدم به علي من اليمن ، و الذي أتى به رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مائةَ بدنة .

و لما كان يومُ التروية ثامنَ ذي الْحِجَّة ، الموافقَ للخامس من شهر مارس ، أمر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ المتمتعين أن يحرموا إذا أرادوا أن يتوجهوا إلى منى ، و دخل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على عائشة ، فوجدها تبكي ، فقال : (ما شأنك) ؟ قالت : (شأني أني قد حِضْتُ ، و لم أَهْلِل إلا بعمرة ، و قد حل الناس و لم أحلل ، و لم أطف بالبيت ، و لا بين الصفا و المروة ، فَمُنِعْتُ العمرة ، و الناس يذهبون إلى الحج الآن ، لوددت و الله أني لم أحج العام) . فقال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لا يَضِيرُك ، إنما أنت امرأة من بنات آدم ، كتب الله عليك ما كتب عليهن ، فاغتسلي ، و انقُضي رأسك ، و امتشطي ، و أَهِلِّي بالحج ، و دعي العمرة ، و اصْنَعِي ما يصنعُ الحاجُّ ، غير أنْ لا تطُوفي بالبَيتِ و لا تُصَلِّي ، حتى تطهري و تغتسلي ، فعسى الله أن يرزقَكِيها) . فوقَفَتِ المواقفَ كلها ، إلا الطواف بالبيت .

و ركب النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فصلى بمنى الظهر و العصر و المغرب و العشاء و الفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمسُ ، و أمر بِقُبَّة من شعر تُضْرَبُ له بِنَمِرَةَ ، فسار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و لا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية

، فأجاز رسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضُرِبَتْ له بِنَمِرَةَ فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس ، أمر بالقصواء فَرُحِلَتْ له ، فركب حتى أتى بطن الوادي ، فخطب الناس و قال : (إن دماءكم و أموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدَمَيَّ موضوع ، و دماءُ الجاهلية موضوعة ، و إن أول دم أضعه دماؤنا ، دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، كان مسترضَعا في بني سعد ، فقتلته هذيل ، ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه ، و لا يجني والد على ولده ، و لا ولد على والده ، لا يؤخذ الرجل بجناية أبيه ، و لا جناية أخيه ، ألا و إن كل ربا في الجاهلية موضوع ، لكم رءوس أموالكم ، لا تظلِمون و لا تُظلَمون ، و أول ربا أضع : ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، ألا و استوصوا بالنساء خيرا ، فإنما هن عَوانٍ عندكم ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، و استحللتم فروجهن بكلمة الله ، إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة ، ألا إن لكم على نسائكم حقا ، و لنسائكم عليكم حقا ، فأما حقكم على نسائكم : فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُم أحدا تكرهونه ، و لا يأذنَّ في بيوتكم لمن تَكرهون ، فإن فعلن ذلك ، فاهجروهن في المضاجع ، و اضربوهن ضربا غير مُبَرِّح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، و لهن عليكم : رِزْقُهن ، و كِسْوتهن بالمعروف ، و أن تحسنوا إليهن في كسوتهن و طعامهن ، ألا و إن الشيطان قد أَيِس مِنْ أن يُعْبَدَ في بلادكم هذه أبدا ، و لكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم ، فسيرضى به في التحريش بينهم ، و قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتابَ الله ، و أنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون) ؟ قالوا : (نشهد أنك قد بلغت و أديت و نصحت) . فقال بإِصْبَعِهِ السبابةِ يرفعها إلى السماء و يَنْكُتها إلى الناس : (اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد) .

و في هذا اليوم العظيم من أيام الحج الأكبر ، يومَ الجمعة تاسعَ ذي الحجة أنزل الله تعالى قوله : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الاسْلَامَ دِينًا} .

ثم أذَّنَ بلال و أقام ، فصلى الظهر ، ثم أقام ، فصلى العصر ، و لم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواءِ إلى الصَخَرات ، و جعل طريق المشاة بين يديه ، و استقبل القبلة فقال : (هذه عرفة ، و هو الموقف ، و عرفة كلها موقف ، و ارتفعوا عن بطن عُرَنَةَ) . فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، و ذهبت الصفرة قليلا بعد أن غاب القرص ، فأردف أسامة بن زيد خلفه ، و دفع رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و قد شَنَقَ للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِهِ ، و كان يسير العَنَقَ ، فإذا وجد فَجْوَةً أسرع ، و جعل الناس يضربون يمينا و شمالا ، فسمع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وراءه زجرا شديدا ، و ضربا ، و صوتا للإبل ، فأشار بسوطه إليهم و قال : (السكينةَ أيها الناس ، السكينةَ أيها الناس ، عليكم بالسكينة و الوقار ، فإن البر ليس في إيضاع الخيل و الإبل) . فلما بلغ رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الشِّعْبَ الأيسرَ الذي دون المزدلفة ، أناخ راحلته ثم ذهب إلى الغائط ، فصب أسامةُ عليه الوضوء ، فتوضأ وضوءا خفيفا ، و لم يسبغه ، فقال له أسامة : (يا رسول الله ، أتصلي) ؟ فقال : (المصلَّى أمامك) . فركب ، فلما جاء المزدلفة نزل ، فتوضأ فأسبغ الوضوء ، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله ، فصلى بها المغرب و العشاء بأذان واحد و إقامتين ، و لم يصل بينهما شيئا ، ثم اضطجع ، حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح ، بأذان و إقامة ، ثم ركب القصواء ، حتى أتى الْمَشْعَرَ الحرام ، فوقف على قُزَح ، و هو جبل بالمزدلفة ، فاستقبل القبلة ، فحمد الله ، و كبره ، و هلله ، و وحده ، و دعاه ، و قال : (قد وقفت هاهنا ، و مزدلفة كلها موقف ، و ارتفِعُوا عن بطن مُحَسِّر) . فلم يزل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ واقفا حتى أسفر جدا ، ثم أردف الفَضْل بن

عباس ، و انطلق قبل أن تطلع الشمس ، و عليه السكينة ، و أمرهم بالسكينة ، و مرَّت به ظُعُنٌ يَجْرِين ، فَطَفِق الفَضْل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يده على وجه الفضل ، فحول الفضلُ وجهه إلى الشِّق الآخَر ينظر ، فحول رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يده من الشِّق الآخر على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشِّق الآخر ، و جاءته امرأة شابة من خَثْعَم فقالت : (إن أبي شيخ كبير ، و قد أفند ، و أدركته فريضة الله في الحج ، و لا يستطيع أداءها ، أفيجزئ عنه أن أؤديها عنه) ؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم : (نعم) . و جعل يَصْرِف وجه الفضلِ بنِ العباس عنها ، فقال العباس : (يا رسول الله ، إني رأيتك تَصْرِفُ وجهَ ابنِ أخيك) ؟ فقال : (إني رأيت غلاما شابا ، و جارية شابة ، فخشيت عليهما الشيطان) .

ثم أتى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بطن مُحَسِّر ، و هو موضع بروك الفيل ، فحرك ناقته قليلا ، فأسرعت حتى جاوز الوادي ، ثم عاد لسيره الأول ، ثم سلك الطريق الوسطى التي تَخْرُج على الجمرة الكبرى ، و هي جمرة العقبة ، و قبل أن يصل إليها ، قال لابن عباس و هو واقف على راحلته : (هاتِ الْقَطْ لي) . فلقط له حَصَيَات ، و هي حصا الْخَذْف ، فلما وضعهن في يده قال : (نعم ، بأمثال هؤلاء فارموا ، بأمثال هؤلاء فارموا ، بأمثال هؤلاء فارموا ، و إياكم و الغلوَّ في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين) . حتى إذا أتى الجمرة التي عند الشجرة ، جعل البيت عن يساره ، و منى عن يمينه ، ثم رماها من بطن الوادي ، بسبع حَصَيَات مثل حصى الْخَذْف ، يرمي على راحلته ، و يكبر مع كل حَصَاة منها ، و كان يقول صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لِتَأْخذوا مناسككم ، فإني لا أدري ، لعلي لا أحج بعد حجتي هذه ،، لعلي لا أراكم بعد عامي هذا) . و رمى رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الجمرة يوم النحر ضحى ، و قعد على بعيره بين الجمرات ، و أمسك إنسان بِخِطَامه ، فحمد الله و أثنى عليه ، و قال : (إن الزمان قد استدار ، كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض ، السنةُ اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثٌ

متواليات : ذو القعدة ، و ذو الحجة ، و المحرم ، و رجبُ مُضَرَ الذي بين جمادى و شعبان ،، أتدرون أي يوم هذا) ؟ فقالوا : (الله و رسوله أعلم) . فسكت حتى ظنُّوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : (أليس يومَ النحر) ؟ فقالوا : (بلى) . قال : (فإن هذا يومٌ حرام) . ثم قال : (أفتدرون أيُّ شهر هذا) ؟ فقالوا : (الله و رسوله أعلم) . فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : (أليس ذو الحجة) ؟ فقالوا : (بلى) . ثم قال : (أفتدرون أيُّ بلد هذا) ؟ فقالوا : (الله و رسوله أعلم) . فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : (أليست بالبلدة الحرام) ؟ فقالوا : (بلى) . قال : (فإن الله حرم عليكم دماءكم ، و أموالكم ، و أعراضكم إلا بحقها ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا إن المسلم أخو المسلم ، فليس يحل لمسلم من أخيه شيء ، إلا ما أحل من نفسه ، و ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالا كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض ،، ألا هل بلغت) ؟ فقالوا : (نعم) . فقال : (اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ألا لِيُبَلِّغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع) . ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثا و ستين بدنة بيده ، و أعطى عليا فنحر ما غبر ، و كان قد أشركه في هديه ، و قال : (كل فجاج مكة طريق و منحر) . ثم أمر مِنْ كُلِّ بَدَنَة بِبَضْعَةٍ ، فجعلت في قِدْر فطُبِخَتْ ، فأكلا من لحمها ، و شربا من مَرَقِها ، و كان الهدي يومئذ على مَنْ وَجَد ، و الصيام على من لم يجد ، ثم ناول الحالق شِقَّه الأيمن فحلقه ، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري ، فأعطاه إياه ، ثم ناوله الشِّقَ الأيسر فقال : (احلق) . فحلقه ، فأعطاه أبا طلحة و قال : (اقسمه بين الناس) . ثم جلس للناس ، فما سئل عن شيء إلا قال : (لا حرج ، لا حرج) . فَمِنْ قائلٍ يقول : (سعيت قبل أن أطوف) ؟ و من قائل يقول : (ذبحت قبل أن أرمي) ؟ و مِنْ آخَرَ يقول : (حلقت قبل أن أذبح) ؟ و آخر يقول : (رميت بعد ما أمسيت) ؟ و آخر يقول : (أفضت إلى البيت قبل أن أرمي) ؟ و آخر يقول : (حلقت قبل أن أرمي) ؟ و أتاه رجل فقال : (إني رميت الجمرة ، و أفضت و لبست و لم أحلق) ؟ فقال : (فلا

حرج ، فاحلق) . ثم أتاه رجل آخر فقال : (إني رميت ، و حلقت ، و لبست و لم أنحر) ؟ فقال : (لا حرج فانحر) . فما سئل رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يومئذ عن أمر مما يَنسى المرء و يجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض و أشباهها إلا أومأ بيده ، و قال : (لا حرج ، لا حرج) . ثم قال رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (عباد الله ، وضع الله الحرج ، إلا من اقترض من عِرض رجل مسلم و هو ظالم ، فذاك الذي حرِج و هلك) .

و في هذا اليوم يوم النحر طهُرت عائشة ، فأمرها رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فأفاضت ، و طافت بالكعبة ، و سعت بين الصفا و المروة ، و أفاض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى البيت ، فطاف حول الكعبة على بعيره ؛ ليراه الناس فيسألوه ؛ و كراهية أن يُضْرَب عنه الناس ؛ فإن الناس غَشُوه من كل جهة ، و كان صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يستلم الْحَجَر بِمِحْجَنِه و يُقَبِّلُ الْمِحْجَن ، و لم يَطف صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و لا غيرُ المتمتعين بالبيت ، و لا بين الصفا و المروة ، و طاف المتمتعون ، ثم صلى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بمكة الظهر ، و أتى السِّقاية و كانت لبني عبد المطلب ، و كانوا حينئذ يسقون على زمزم ، فقال لهم صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اسقوني) . فقال العباس : (إن هذا يخوضه الناس ، و لكنا نأتيك به من البيت) . ثم نادى : (يا فضل ، اذهب إلى أمك فأت رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بشراب من عندها) . فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (لا حاجة لي فيه ، اسقوني مما يشرب منه الناس) . فقال العباس : (إنهم يجعلون أيديهم فيه) . فقال صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (اسقني) . فناولوه دلوا ، فشرب منه ، ثم مج فيها ، و توضأ ، ثم قال : (انزِعُوا بني عبد المطلب ، فإنكم على عمل صالح ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم ، لنزعت معكم ، حتى أضع الحبل على هذه) . و أشار إلى عاتقه .

ثم رجع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى منى ، فمكث بها أيام التشريق الثلاثة ، و هي : اليوم الحادي عشر ، و الثاني عشر ، و الثالث عشر من ذي

الحجة ، و كان خلالها يرمي الجمرة إذا زالت الشمس ، كل جمرة بسبع حَصَيَات ، يكبر مع كل حصاة ، و يقف عند الأولى و الثانية ، فيطيل القيام و يتضرع ، و يرمي الثالثة و لا يقف عندها .

و لما كانت ليلة الْحَصْبَةِ ، عند النزول بالْمُحَصَّب ، و هي ليلة النَّفْر ، بعد غروب شمس آخر يوم من أيام التشريق ، ثالثَ عَشْرِ ذي الحجة ، الموافق للعاشر من شهر مارس ، توجه النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى مكة ؛ ليطوف بالكعبة طواف الوداع ، و قال للناس : (لا يَنْفِرَنَّ أحد حتى يكونَ آخرُ عهده بالبيت) .

و في تلك الأثناء حاضت صَفِيةُ بنت حيي ، فقال لها النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (كنتِ طفتِ يوم النحر) ؟ فقالت : (نعم) . فقال لها : (فانفري) . و قالت له عائشة : (إني لم أكن حللت) ؟ فقال لها صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (قد حللتِ من حجك و عمرتك جميعا) . فقالت : (يا رسول الله ، إني أجد في نفسي ، أني لم أطف بالبيت حتى حججت) ؟ فقال : (طوافك بالبيت و بين الصفا و المروة يكفيك لحجك و عمرتك) . فقالت : (أيرجع الناس بأجرين ، و أرجع بأجر) ؟ فقال لها صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إن لك من الأجر على قدر نَصَبِك و نفقتك) . فأبتْ ، و كان رسول الله صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رجلا سهلا ، إذا هَوَت الشيء تابعها عليه ، فوقف بأعلى وادي مكة ، و أمر أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر أن ينطلق معها إلى التنعيم ، و قال له : (اخرج بأختك من الحرم ، فأَعْمِرْها من التنعيم ، فإذا هبطْتَ بها من الأكمة ، فمرها فلتحرم ، ثم لِتَطُفْ بالبيت ، فإنها عمرة متقبلة ، ثم ائتيا هاهنا ، فإني أَنْظُرُكما حتى تأتياني) . فأردفها عبد الرحمن خلفه على جمل له ، و انطلق بها ، حتى إذا فرغت من عمرتها ، رجعا إلى رسول الله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في جوف الليل ، فقال : (هل فرغتم) ؟ فقالت : (نعم) . فآذن بالرحيل في أصحابه ، فارتحل الناس ، فمر النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ

بالبيت ، فطاف به قبل صلاة الصبح ، ثم انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ متوجها إلى المدينة من الثَّنِيَّةِ السفلى .[174]

خطبة غَدِير خُمٍّ

و لما بلَغ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في طريقه إلى المدينةِ الْجُحْفَةَ ، عند مكان يسمى غَدِير خُمّ ، يوم الأحد الثامنَ عَشَرَ من شهر ذي الحجة ، خامسَ عشرَ شهر مارس ، نزل النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و أمر الناس بالنزول بعد أن زالت الشمس ظُهْرا ، و أمر بَدَوْحَاتٍ تحت سَمُرَاتٍ ، فَقُمِمْنَ و كُنِسْنَ ، ثم صلى الظهر ، و نودي أن الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الحجاج القافلون من مكة على النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، قام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تحت شجرة خطيبا ، فحمد الله و أثنى عليه ، و ذكَّر و وعظ ، و قال ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : (يا أيها الناس ، إنما أنا بشر ، يوشك أن يأتيَني رسول ربي فأجيبَه ، و إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتابُ الله عز و جل ، و عترتي أهلُ بيتي ، و إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما) . ثم أخذ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بيد علي فقال : (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ؟ فقالوا : (بلى) . فقال : (إن الله مولاي ، و

[174] [البقرة : 125 ـ 158][المائدة : 3][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 18/1 ـ 24 ـ 28 ـ 33 ـ 40 ـ 47 ـ 68 ـ 70 ـ 135/2 ـ 137 ـ 139 ـ 140 ـ 141 ـ 142 ـ 143 ـ 144 ـ 145 ـ 156 ـ 158 ـ 159 ـ 163 ـ 164 ـ 167 ـ 171 ـ 175 ـ 176 ـ 177 ـ 180 ـ 182 ـ 4/3 ـ 141 ـ 58/4 ـ 176/5 ـ 100/7 ـ 159/8 ـ 83/9 ـ 112][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 870/2 ـ 873 ـ 875 ـ 876 ـ 880 ـ 881 ـ 882 ـ 883 ـ 884 ـ 886 ـ 893 ـ 910 ـ 911 ـ 912 ـ 914 ـ 927 ـ 926 ـ 931 ـ 936 ـ 943 ـ 947 ـ 948 ـ 949 ـ 961 ـ 963 ـ 2166/4][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 143/5 ـ 162 ـ 164 ـ 176 ـ 178 ـ 201 ـ 228 ـ 235 ـ 236 ـ 257 ـ 268 ـ 270 ـ 126/7][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 196/3 ـ 285 ـ 286 ـ 287 ـ 292 ـ 309 ـ 310 ـ 333 ـ 358][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 57/3 ـ 138/4 ـ 154 ـ 216 ـ 243 ـ 259 ـ 261 ـ 264 ـ 497][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 544/1 ـ 9/2 ـ 235/3 ـ 341 ـ 477 ـ 395/4 ـ 467/5 ـ 474/10 ـ 331/21 ـ 326/22 ـ 327 ـ 202/23 ـ 203 ـ 285 ـ 381 ـ 399 ـ 429 ـ 61/24 ـ 263/42 ـ 243/43][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 223/3 ـ 225 ـ 459 ـ 461/4 ـ 273/5][سنن الدارمي / دار المغني للنشر والتوزيع / ط 1 / 1412 هـ ـ 1167/2][علل الشرائع / منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها / 1385 هـ ـ ص 103][تهذيب الأحكام / دار الكتب الإسلامية / ط 3 / 1364 هـ ـ 454/5 ـ 455][المحاسن / دار الكتب الإسلامية / ط 1 / 1327 هـ ـ 88/1][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 625/1 ـ 644][المعجم الصغير / الروض الداني / المكتب الإسلامي / دار عمار / ط 1 / 1405 هـ ـ 126/1][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 141/4][معرفة السنن والآثار / جامعة الدراسات الإسلامية / دار قتيبة / دار الوعي / دار الوفاء / ط 1 / 1412 هـ ـ 306/13][صحيح ابن خزيمة / المكتب الإسلامي / ط 3 / 1424 هـ ـ 1311/2][شرح مشكل الآثار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1415 هـ ـ 503/14][مسند الشافعي / ترتيب سنجر / شركة غراس / ط 1 / 1425 هـ ـ 262/2][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 84/1][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 235/2]

أنا ولي كل مؤمن ، و من كنت وليه ، فهذا علي وليُّ كلِّ مؤمن بعدي ، اللهم وال من والاه ، و عاد من عاداه) . فلما قضى النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خطبته ، قالَ عمرُ بنُ الخطابِ لعلي : (بخٍ بخٍ يا ابنَ أَبِي طالبٍ ، أصبحتَ مَولايَ و مَولى كلِّ مسلمٍ) . [175]

تجهيز جيش أسامة بن زيد لغزو الشام

و بعد أن رجع النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة ، و قد بلَّغ الرسالة ، و بيَّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم ، جاءته الإشارة من الله تعالى بِدُنُوِّ أجله ، فقرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يضع لأمته اللَّبِنَاتِ الأولى لما بعد رحيله ، و أن يضعهم على جادَّةِ الطريق ، ليواصلوا مسيرته على نهجه ، بعد أن صارت طريقه بِبَيَانِه واضحةً جليةً ، ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، و كان على رأس سُلَّمِ أولويات النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : مواصلةُ الفتوحات الإسلامية ، و لا سيما فتح بيت المقدس ، فقرر النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يبعث بَعْثًا إلى الشام ، فعَيَّنَ أسامة بنَ زيد أميرا عليه ، و كان في البعث أبو بكر و عمر ، فبلَغ النبيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن بعض الناس عابوا أسامة ، و طعنوا في إمارته ، فقام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في الناس خطيبا فقال : (قد بلغني أنكم قد طعنتم في إمارة أسامة ، لئن طعنتم في إمارته ، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله ، و ايْمُ اللهِ ، إن كان لخليقا للإمارة ، و إن كان لمن أحب الناس إلي ، و إن

---

[175] [المائدة: 67][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1873/4][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 663/5][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 211/17][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 309/6 ـ 372][السنن الكبرى للنسائي / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1421 هـ ـ 310/7][فوائد ابن أخي ميمي الدقاق / دار أضواء السلف / الرياض / ط 1 / 1426 هـ ـ ص 217][تاريخ بغداد / دار الغرب الإسلامي / ط 1 / 1422 هـ ـ 221/9] [الكنى والأسماء / دار ابن حزم / ط 1 / 1421 هـ ـ 836/2][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 357/2][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 19/41 ـ 216/42 ـ 218 ـ 219 ـ 225 ـ 237][المعرفة والتاريخ / مؤسسة الرسالة / ط 3/ 1401 هـ ـ 536/1][شرح مشكل الآثار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1415 هـ ـ 13/5][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 67/3 ـ 166/5][حلية الأولياء / دار السعادة / 1394 هـ ـ 355/1][كشف الأستار عن زوائد البزار / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1399 هـ ـ 223/3][المؤتَلِف والمختَلِف / دار الغرب الإسلامي / ط 1 / 1406 هـ ـ 1046/2][المعرفة والتاريخ / مؤسسة الرسالة / ط 3/ 1401 هـ ـ 536/1][الإصابة في تمييز الصحابة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1415 هـ ـ 275/7][أسد الغابة في معرفة الصحابة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1415 هـ ـ 246/6][استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف / دار البشائر الإسلامية ـ 348][نسخة نبيط بن شريط / دار الكتب العلمية / ط 1 / 2002 مـ ـ ص 120][الشريعة / دار الوطن / ط 2 / 1420 هـ ـ 2049/4][الأحكام في الحلال والحرام / بدون ناشر / ط 1 / 1410 هـ ـ 37/1][تفسير ابن أبي حاتم / مكتبة نزار مصطفى الباز / ط 3 / 1419 هـ ـ 1172/4][شواهد التنزيل لقواعد التفضيل / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت / ط 2 / 1431 هـ ـ 192/1]

ابنه هذا لمن أحب الناس إلي بعده ، و إنه لخليق للإِمْـرَة ، فأوصيكم بـه ، فإنـه مـن صالحيكم) . [176]

إلى الرفيق الأعلى

و كان النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كلما دنا أجله ، كلما ازداد شـوقا إلى لقـاء الحبيـب الأعـلى ، و الأحبـة في الله تعـالى ، الذيـن فـارقوه في ميـدان الجهـاد و الدعوة إلى الله ، فقد صلى النبي صـلى الله عليـه و آله و سـلم عنـد دنـو أجله عـلى قتلى أحد ، كالمودع للأحياء و الأموات .

و في ليلة من ليالي المدينة الهادئة ، أيقظ النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ مولاه أبا مُوَيْهِبَة ، و قال له : (يا أبا مُوَيْهِبَة ، إني قد أُمِـرْتُ أن أسـتغفر لأهـل هـذا البقيع) . فخرج معه ، حتى أتيا البقيع ، فرفع النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْـهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ يديه ، فاستغفر لهم طويلا ثم قـال : (لِيَهْنِ لـكم مـا أصبحتم فيـه ممـا أصبـح النـاس فيـه ، أَقْبَلَتِ الفتن كقطع الليل المظلم ، يَتْبَعُ آخرُها أولها ، الآخـرة شر مـن الأولى ،، يا أبا مُوَيْهِبَة ، إني قد أُعْطِيتُ مفاتيحَ خـزائنِ الدنيـا و الخلدَ فيهـا ثم الجنـة ، فَخُيِّـرْت بـين ذلك و بين لقاء ربي و الجنة) . فقال أبو مُوَيْهِبَة : (يا رسـول الله بـأبي أنـت و أمي ، فَخُذْ مفاتيح خزائن الدنيا و الخلدَ فيها ثم الجنة) . فقال صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ : (و الله يا أبا مُوَيْهِبَة ، لقدِ اخترتُ لقاء ربي و الجنة) . ثم انصرف رسـول الله صـلى الله عليه و آله و سلم ، فلما أصبح ابتُدِئَ بوَجَعِه الذي قبضه الله فيـه ، و كان ذلك في بيت ميمونة .

و خرج النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَـلَّمَ عـلى النـاس مُتَعَطِّفًا مِلْحَفَـةً عـلى مَنْكِبَيْهِ ، قد عَصَبَ رأسه بِعِصَابَةٍ دَسِمَةً ، فقعد على المنبر ، فقال : (أيها الناس إليّ)

[176] [صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 69/4 ـ 23/5 ـ 141][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1257/3 ـ 1796/4 1884][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 60/8][الطبقات الكبرى / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1410 هـ ـ 192/2 ـ 249][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 155/12][الطبقات الكبرى / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1410 هـ ـ 50/4][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 392/6][أحاديث منتخبة من مغازي موسى بن عقبة / ط 1 / 1991 م ـ ص 82][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 130/3][تهذيب الآثار / الجزء المفقود / دار المأمون للتراث / دمشق / ط 1 / 1416 هـ ـ ص 75][فضائل الصحابة للإمام أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1 / 1403 هـ ـ 834/2][التدوين في أخبار قزوين / دار الكتب العلمية / 1408 هـ ـ 291/2]

. فثابوا إليه ، فحمد الله ، و أثنى عليه ، ثم قال : (إن الله خيَّر عبدا بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء ، و بين ما عنده ، فاختار ما عند الله ، ألا إني بين أيديكم فَرَطٌ ، و أنا عليكم شهيد ، و إن موعدكم الحوضُ ، و إني لأنظر إليه مِنْ مقامي هذا ، و إني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، و لكني أُرِيتُ أَنِّي أُعْطِيتَ مفاتيح خزائن الأرض ، فأخاف عليكم أن تنافسوا فيها ، و تقتتلوا ، فتهلكوا ، كما هلك من كان قبلكم) . ثم نزل النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فكانت هذه الكلماتُ مِنْ آخر ما قاله النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على منبره ، ليشتد بعدها مرض النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، حتى كان يعتمد في قيامه و استناده على علي بن أبي طالب و العباس ، و كان عليٌّ لا يكاد يفارقه ، و لم تكن زوجاته عنده تفارقن بعضهن بعضا ، في حين كان يأمر الناسَ أن يؤمَّهُم أحدُهم ، و يصلوا إذا أَذَّنَ المؤذن ، بعد أن عجز عن الصلاة بالناس .

و لما بلغ جيشَ أسامةَ اشتدادُ المرض بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم ، رجعوا إلى المدينة ، فكان أبو بكر يصلي بالناس حينئذ .

و أقبل الناس يعودونه أفواجا ، و كان من بينهم : أم مُبَشِّرٍ بنتِ البراء بن معرور التي قالت له : (ما تَتَّهِمُ بكَ يا رسولَ الله ؟ فإني لا أَتَّهِمُ بابني شيئاً إلا الشاة المسمومةَ التي أكلَ معكَ بخيبَر) . فقال لها النبيُّ صلَّى الله عليه و آله و سلم : (و أنا لا أَتَّهِمُ بنفسي إلا ذلك ، فهذا أوانُ قَطْعِ أَبْهَرِي) .

و قالت له زوجته صفية : (يا رسول الله ، لكل امرأة من نسائك أهلٌ يُلْجَأ إليهم ، و إنك أجليت أهلي ، فإن حدث حدث فإلى من) ؟ فقال لها صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (إلى علي بن أبي طالب) .

و لما كان يومُ الخميس الذي سبق رحيلَ النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأربعة أيام ، و إثرَ اشتداد وجعه صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، قال صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لمن حوله ، و كان فيهم مجموعة من الرجال و النساء : (ائتوني باللوح و الدواة ، أكتبْ لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا) . فقال عمر عند ذاك : (إن النبي صلى

الله عليه و سلم قد غلبه الوجع ، و عندنا كتاب الله ، حَسْبُنا كتابُ الله) . فاختلف أهل البيت و اختصموا ، فكان بعضهم يقول : (قرِّبوا يكتبْ لكم رسول الله صلى الله عليه و سلم كتابا لن تضلوا بعده) . و منهم من كان يقول ما قال عمر ، حتى قال بعضهم : (ما له أَهَجَرَ ؟ استفهموه) . فلما أكثروا اللغو و الاختلاف عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : (قوموا عني) . و أوصاهم صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من غير كتاب بإنفاذ جيش أسامة ، و إخراج المشركين من جزيرة العرب ، و إجازة الوفود القادمة عليهم بمثل ما كان يجيزهم النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و يكرمهم به إذا قدموا عليه .

و لم يخرج النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى الناس ثلاثةَ أيام بعد يوم الخميس ، حتى إذا كان صبحَ يوم الاثنين في الحجرة الْمُخَصَّصَةِ لعائشة ، كشف سِتْرَ حُجْرَته ، فنظر إليهم ، و هم صفوف خلف أبي بكر ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، و ظن أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خارج للصلاة ، فأشار إليهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم أرخى الستر ، لتكون تلك الإطلالةُ آخِرَ شيء يبدو من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لكثير من الصحابة .

حتى إذا نزلت به سكرات الموت جعلت السيدة فاطمة عليها السلام تقول : (واكرب أباه) . فقال لها صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : (ليس على أبيك كرب بعد اليوم) . و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يقول في تلك الأثناء : (اللهم الرفيق الأعلى مع جبريل ، و ميكائيل ، و إسرافيل) . ثم أخذ في قراءة قوله تعالى : {مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيئِينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} . ففاضت روحه الطاهرة الشريفة صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، و هو يقرأها ، و كان ذلك يومَ الاثنين ، ثانيَ عشر شهرِ ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة النبوية ، الموافق للسادس من شهر جوان سنة 632 للميلاد ، و كان له من

العمر بالسنة الهجرية : ثلاثٌ و ستون سنة ، و بالتاريخ الميلادي : اثنان و ستون سنة .

و تولى غسلَ رسولِ الله صلى الله عليه و آله و سلم : عليٌّ بن أبي طالب ، و الفضلُ بن العباس ، و أسامة بن زيد ، و كان علي يغسله ، و يقول : (بأبي أنت و أمي ، طِبْتَ ميتا و حيا) . و غسَّلوه في قميصه صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، ثم كفنوه في ثلاثة أثواب ، و طيبوه بمسك الكافور .

و في تلك الأثناء ، و بينما كان القوم مشغولون بتجهيز النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للصلاة عليه ، و في البيت أبو بكر و عمر ، إذا برجل ينادي من وراء الجدار : (اخرج إلي يا ابن الخطاب) . فقال له : (إليك عني ، فإنا مشاغيل عنك) . فقال : (إنه قد حدث أمر لا بد منك فيه ، إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، فأدركوهم قبل أن يُحْدِثُوا أمرا ، فيكون بينكم و بينهم فيه حرب) . فقال عمر لأبي بكر : (انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار) . فقال أبو بكر لعلي و من كان معه : (دونكم صاحبَكم ، لبني عم رسول الله صلى الله عليه و سلم في غسله يكون أمره) .

ثم انطلق أبو بكر و عمر إلى سقيفة بني ساعدة ، لتتمخض عن ذلك الاجتماع بيعة أبي بكر ، قبل أن يتم دفن النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .

و لما تم تجهيز النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للصلاة ، دخل الناس عليه أرسالا أرسالا للصلاة عليه ، فكانوا يدخلون من باب فيصلون عليه ، ثم يخرجون من باب آخر ، حتى لا يقع التدافع بين الناس .

و بعد أن صلى الناس عليه ، أخذ أبو طلحة في حفر القبر ليلةَ الأربعاء ، و ألحده ، ثم تولى دَفْنَ النبي صلى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و إدخاله إلى قبره الشريف :

علي بن أبي طالب ، و الفضل بن العباس ، و أسامة بن زيد ، ثم نُصِبَ على قبره اللَّبِنُ نصبا ، و رُفِعَ قبرُه من الأرض شبرا . [177]

[177] [النساء: 69][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 34/1 ـ 50 ـ 100 ـ 138 ـ 151 ـ 11/2 ـ 69/4 ـ 99 ـ 186 ـ 45/5 ـ 57 ـ 94 ـ 13/6 ـ 15 ـ 46 ـ 120/7 ـ 64/8][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 315/1 ـ 1259/3 ـ 1801/4 ـ 1893][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 115/1 ـ 57/3][المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 83/2][الكنى والأسماء / دار ابن حزم / ط 1 / 1421 هـ ـ 171/1][تاريخ جرجان / عالم الكتب / بيروت / ط 4 / 1407 هـ ـ ص 363][دلائل النبوة للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 227/7 ـ 162][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 357/5 ـ 358 ـ 278/20 ـ 365/34 ـ 86/36 ـ 67/40 ـ 68 ـ 391 ـ 300/41 ـ 190/44 ـ 460/45][المسند للشاشي / مكتبة العلوم والحكم / ط 1 / 1410 هـ ـ 145/1][مصنف ابن أبي شيبة / مكتبة الرشد / ط 1 / 1409 هـ ـ 365/6][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 152/2 ـ 417/5 ـ 18/8 ـ 555/14 ـ 602][أحاديث منتخبة من مغازي موسى بن عقبة / ط 1 / 1991 م ـ ص 82][تهذيب الآثار / الجزء المفقود / دار المأمون للتراث / دمشق / ط 1 / 1416 هـ ـ ص 75][مسند أبي يعلى / دار المأمون للتراث / ط 1 / 1404 هـ ـ 279/8][مسند البزار / مكتبة العلوم والحكم / ط 1/ 1988 م ـ 2009 م ـ 329/9][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 230/4 ـ 113/12 ـ 141][تاريخ دمشق / دار الفكر / 1415 هـ ـ 18/8 ـ 393/42 ـ 394][المجروحين لابن حبان / دار الوعي / ط 1 / 1396 هـ ـ 14/2][الخصال / منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة / 1403 هـ ـ 157/2 ـ 158 ـ 161 ـ 162 ـ 163 ـ 166][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - مُحَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 117/5 ـ 568/6][الطبقات الكبرى / دار صادر / ط 1 / 1968 م ـ 231/2 ـ 258 ـ 275 ـ 280 ـ 284 ـ 288][الشريعة / دار الوطن / ط 2 / 1420 هـ ـ 1624/4][تاريخ جرجان / عالم الكتب / بيروت / ط 4 / 1407 هـ ـ ص 363 ـ 364][الفصول المختارة / دار المفيد / ط 2 / 1414 هـ ـ 124/1][الموطأ / مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان / ط 1 / 1425 هـ ـ 311/2][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 356/3][السنن الكبرى للبيهقي / دار الكتب العلمية / ط 3 / 1424 هـ ـ 249/8]

ملحق السيرة

صفاته الخَلْقِيَّة

كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَسْمَرَ إِلَى الْبَيَاضِ ، تَعْلُوهُ حُمْرَةٌ ، كثيرَ و طويلَ أَشْفَارِ الْعَيْنَيْنِ ، طويلَ الحاجِبَيْنِ و دَقِيقَهُمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَقِيَ طَرَفَاهُمَا في مُنْتَهَى أعلى الأنف ، أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ ، مُشْرَبَ الْعَيْنِ بِحُمْرَةٍ ، بين حاجِبَيْهِ على جبينه عِرْقٌ يمتلئ دمًا إذا غَضِبَ ، دَقِيقَ الْأَنفِ مع حَدَبٍ في وَسَطِه ، مُسْتَدِيرَ الوجهِ ، غَيْرَ مُرْتِفِعِ الْخَدَّيْن لقلة لحمهما ، وَاسِعَ الْجَبِينِ أو مُسْتَوِيهِ ، واسِعَ الْفَمِ ، أبيض الأسنان ، مُفَلَّجَها ، ضَخْمَ الرَّأْسِ ، شَدِيدَ سَوَادِ الشَّعْرِ ، شَعْرُهُ مُنْبَسِطٌ مُسْتَرْسِل ، و كَانَ شعرُه إلى شَحْمَة أذنه ، و ربما بلغ ما بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَ عَاتِقِهِ ، و ربما بلغ مَنْكِبَيْهِ ، و كان كَثّ اللِّحْيَةِ ، مَلأَتْ لِحْيَتُهُ نَحْرَهُ ، و كان أَسْوَدَ شَعْرِ اللِّحْيَةِ ، طَوِيلَ الشعرِ المستدِقِّ الذي يأخذ من الصدر إلى السُّرَّة ، متوسّطَ القامة بين الطول و القِصَر ، وَ هُوَ إِلَى الطُّوَلِ أَقْرَبُ ، ليس بجسيم و لا نحيف ، سَوَاءٌ الْبَطْنُ وَ الصَّدْرُ ، عَرِيضَ الصَّدْرِ ، كثيرَ شعر الذِّرَاعَيْنِ وَ الْمَنْكِبَيْنِ وَ أَعَالِي الصَّدْرِ ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ ، عريض الذِّرَاعَيْنِ ، ضَخْمَ الكَفَّيْنِ ، و كانتا ممتلئتين لحمًا ، ضَخْمَ القَدَمَيْنِ ، و كانتا ممتلئتين لحمًا ، مستويَ باطنِ القدمين ، و كان إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ ، كَأَنَّهُ يَتَوَكَّأُ ، و هو الميل يمينا و شمالا ، يَمْشِي مَشْياً يُعْرَفُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَاجِزٍ وَ لاَ كَسْلاَنَ ، خَافِضَ الطَّرْفِ ، نَظَرُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .[178]

[178] [صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1818/4 ـ 1820 ـ 1823][الشمائل المحمدية / المكتبة التجارية / ط 1 / 1413 هـ ـ ص 34 ـ 40][دلائل النبوة / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1405 هـ ـ 213/1 ـ 216][الطبقات الكبرى / دار صادر / ط 1 / 1968 م ـ 422/1 ـ 426][مشيخة ابن شاذان الصغرى / مكتبة الغرباء الأثرية / المدينة المنورة / ط 1 / 1419 هـ ـ [ص 45 ـ 46 ـ 47 ـ 48][عيون أخبار الرضا / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / مطابع مؤسسة الأعلمي / 1404 هـ ـ [ص 282 ـ 283 ـ 284 ـ 285]

صفاته الخُلُقِيَّة

كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كثير الصمت قليل الكلام ، دائِمَ الذِّكْرِ و الاعْتِبَار ، مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ ، لَا يجلس وَ لَا يقوم إِلَّا على ذكر .

لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ فِي غير ذات الله ، قد بذل وقتَ نفسه في قضاء حوائج الناس ، و إغاثةِ ملهوفهم ، و إعانة محتاجهم .

لَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَ مَا كَانَ لَهَا ، و لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَ لَا يَنْتَصِرُ لَهَا ، فَإِذَا تُعُوطِيَ الْحَقُّ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ ، وَ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ ، وَ إِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَ أَشَاحَ ، وَ إِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ ، و كان دَائِمَ الْبِشْرِ ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّم .

و كان إذا صافحه أحد لم ينزع يده من يده حتى يكونَ من صافحه هو الذي ينزع يده ، وَ كان يُعْطِي كلَّ جليس من جُلَسَائِهِ نَصِيبه من الاهتمام ، حَتَّى يَحْسِبُ جَلِيسُهُ أَنْ لا أَحَدَ أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، وَ إذا تكلم أحدٌ أمامه لا يصرف وجهه عنه ، و لا يَقْطَعْ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُوزَه ، و كان يصبر مع من جالسه أو قام معه ، فلا ينصرف عنه حتى يكون من جالسه أو قام معه هو الذي ينصرف عنه ، و كان يستعين بيديه في الكلام ، و إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا ، وَ إذا تكلم لم يَتَكَلَّمْ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ ، و لم يكن يَغْفُلُ في حديثه مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا ، وَ مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ ، لَيْسَ بِقَاسٍ وَ لَا صَخَّابٍ ، وَ لَا فَحَّاشٍ وَ لَا عَيَّابٍ ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يُشْتَهَى ، وَ لَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ ، و كان لا يكاد يواجه أحدا في وجهه بشيء يكرهه ، وَ كان يَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ ، وَ يَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ ، وَ يُحَسِّنُ الْحَسَنَ وَ يُقَوِّيهِ ، وَ يُقَبِّحُ الْقَبِيحَ وَ يُوهِنُهُ ، و كان يسلم على الصبيان ، و يمسح رؤوسهم ، و يمشي مع جميع طبقات الناس : الغني و الفقير ، و العزيز و الحقير ، و كان يذكر الله على كل أحيانه .

و كان صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قليل الأكل كثير الصيام ، إذا تغدَّى لم يتعشَّ ، و إذا تعشَّى لم يتغدَّ ، يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ وَ إِنْ دَقَّتْ ، و لَا يَذِمُّ مِنْهَا شَيْئًا ، و

إذا أكل الطعام أكل مما يليه ، و لم يكن يأكل متكئا ، و إذا انتهى من الأكل لَعِقَ أصابعه .

و كان يجلس على الأرض ، و يأكل على الأرض ، و إذا جلس تربع أوِ احْتَبَى بيديه أو جلس القُرْفُصَاءَ ، و كان يحلب الشاة ، و يخيط ثوبه ، و إِذَا مَشَى لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَ إِذَا الْتَفَتَ ، الْتَفَتَ جَمِيعًا ، و كان كثير التَّطَيُّبِ ، حتى كان يُعْرَف بريح الطيب إذا أقبل ، أو سلك طريقا .[179]

[179] [المجتبى من السنن / مكتب المطبوعات الإسلامية / ط 2 / 1406 هـ ـ 108/3][المستدرك على الصحيحين / دار الكتب العلمية / ط 1 / 1411 هـ ـ 417/3][صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان / مؤسسة الرسالة / ط 2 / 1414 هـ ـ 205/2 ـ 347/14][سنن أبي داود / تحقيق شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 496/5 ـ 592 ـ 253/6][سنن الترمذي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط 2 / 1395 هـ ـ 600/5 ـ 601][الشمائل المحمدية / المكتبة التجارية / ط 1 / 1413 هـ ـ ص 116][مسند أحمد / مؤسسة الرسالة / ط 1/ 1421 هـ ـ 366/19 ـ 405/34][صحيح البخاري / دار طوق النجاة / ط 1/ 1422 هـ ـ 129/1 ـ 190/4][صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي ـ 1607/3][المعجم الكبير / مكتبة ابن تيمية / ط 2 ـ 67/12][صحيح الأدب المفرد / دار الصديق / ط 4 / 1418 هـ ـ ص 459][أخلاق النبي لأبي الشيخ الأصبهاني / دار المسلم / ط 1 / 1998 مـ ـ 201/3][حلية الأولياء / دار السعادة / 1394 هـ ـ 323/3][سنن ابن ماجة / تحقيق شعيب الأرنؤوط / دار الرسالة العالمية / ط 1 / 1430 هـ ـ 664/4][الطبقات الكبرى / دار صادر / ط 1 / 1968 م ـ 398/1 ـ 399 ـ 422 ـ 426][مشيخة ابن شاذان الصغرى / مكتبة الغرباء الأثرية / المدينة المنورة / ط 1 / 1419 هـ ـ [ص 45 ـ 46 ـ 47 ـ 48][عيون أخبار الرضا / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / مطابع مؤسسة الأعلمي / 1404 هـ ـ [ص 282 ـ 283 ـ 284 ـ 285][الكامل في ضعفاء الرجال / الكتب العلمية / ط 1 / 1418 هـ ـ 97/6]

نُبْذَة مختصرة من السيرة النبوية

بَشَّرَ الأنبياءُ و الرسلُ بولادة النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبل ولادته ، فكان أهل الكتاب ينتظرون خروجه في القرن الذي ولد فيه ، و في المكان الذي بعث منه .

و هكذا وُلِد النَّبِيُّ محمدُ بْنُ عبدِ اللهِ بْنِ عبدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هاشمِ بْنِ عبد مَنَافٍ صلى الله عليه و آله و سلم في يوم الاثنين ، الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، الموافق للخامس من شهر ماي ، عام الفيل ، سنة 570 م .

و كان أبوه قد تُوُفِيَ قبل ولادتِهِ عندما كانت أُمُّهُ حُبْلَى به .

و في صِغَرِهِ أرضعته حليمةُ السَّعْدِيَّةُ و ثُوَيْبَةُ .

و لما كان في السادسة من عمره ، تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ ، فعاش يتيمَ الأبوين .

و بعد وفاةِ أُمِّهِ ، ربَّاه جَدُّه عبدُ الْمُطَّلِبِ بُرْهَةً مِنْ صِغَرِهِ ، و كان يَرْعَى الغنمَ آنَذَاك .

ثم كان بعد وفاة جده في رِعاية عَمِّهِ أبي طالبٍ ، و كان يُمَارِسُ التِّجَارَةَ معه ، ثم واصل هذه المهنةَ الأخيرةَ بعد وفاة عمه .

و تزوج النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خديجةَ قبل الْبِعْثَةِ ، و كانت معه المثال الأسمى للزوجةِ الصالحة .

و ما إن بَلَغَ النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أربعين سنةً قمريةً حتى جاءه الوحي في يوم الاثنين ، الرابع و العشرين من رمضان ، و هو في غار حِرَاءَ سنة 609 م من الميلاد .

و مكث رسول الله صلى الله عليه و آله بمكة بعد ما جاءه الوحي عن الله تبارك و تعالى ثلاثَ سنين يدعو إلى الله سرا مختفيا خائفا مِنْ إظهارِ دعوته .

ثم أعلن النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الدعوة إلى الله لعشيرته الأقربين ، ثم أعلنها لجميع الناس .

و بعد أن أعلن النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دعوته ، و أظهر حُجَّتَهُ ، اعترف فُصَحَاءُ العرب و شعراؤُهم بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن ، و أنه صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ليس بكاهن و لا ساحر ، و لا مجنون و لا شاعر .

و حينما عجزت قريش عن مواجهة الحجة بالحجة ، و البرهان بالبرهان ، لجأت إلى أسلوب الإغراء ، فأغروه ، فلم يستطيعوا صَدَّه عن دعوته ، فلجأوا إلى التهديد و التخويف ، ثم إلى العنف و التعذيب و استعمال القوة .

و لما اشتد البلاء بالمسلمين ، أشار النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ على المضطهدين بالهجرة إلى الحبشة حيث يستطيعون ممارسة عباداتهم بكل حرية ، فهاجر إلى الحبشة مجموعة من الصحابة ، سنة 614 م .

و كان النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يختار المناسبات و المواسم و الأماكن التي كانت القبائل تجتمع بها ، فيدعوهم إلى الإسلام ، و يَعْرِض دعوته عليهم ، من أجل نصرته و حماية دعوته .

و قد أثمرت لقاءاتُ النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ببعض قبائل الأوس و الخزرج استجابةً واسعةً من بعض شبابهم الذين ساهموا في نشر الإسلام بالمدينة ، حيث صارت المدينة شيئا فشيئا قبلةَ المهاجرين الجديدة .

و لما باءَتْ جميعُ محاولاتِ قُريش بالفَشَلِ في استرجاع المسلمين من الحبشة ، و رأت إقبال الناس على الإسلام ، عزمت قريش على قتل رسول الله صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فأجمع بنو عبد المطلب على حمايته ، إلى أن توفي عمه أبو طالب الذي كان يدافع عنه ، و بعده بأشهر توفيت زوجته خديجة ، فاضطَرَّ النبيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى الهجرة نحو المدينة خِفْيَةً بعد أن كَلَّفَتْ قُرَيْشٌ مِنْ كُلِّ قبيلة فتًى شابًا جلْدًا ، يَعْمِدون إليه ، فيضربونه ضَرْبَةَ رَجُلٍ واحدٍ فيقتلونه .

و كانت هجرة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع أبي بكر إلى المدينة في السنة العاشرة بعد البعثة المحمدية ، سنة 622 م ، و قد مكث في مكة يدعو إلى الله ثلاثة عشر سنة .

و وصل النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى قُباء ليلا ، يومَ الاثنين التاسعَ من شهر ربيع الأول ، و لبث فيها أربع عشرة ليلة ، بنى في أثناءها النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أول مسجد أُسِّسَ على التقوى .

ثم انتقل النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى المدينة عند القايلة ، فارْتَجَّتِ المدينة فرَحًا و سرورا بقدوم النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ .

و لما أصبح النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالمدينة ، كان أولُ ما بدأ به ، هو بناء المسجد .

و كانت من أولى أولوياته : توحيدُ الصَّفِّ ، و التأليفُ بين القلوب ، و المؤاخاةُ بين المهاجرين و الأنصار ، و تقويةُ روابط الإيمان بين جميع المسلمين .

و لم يَزَلِ الإسلامُ منذ ذلك الحين يقْوَى ، و يزداد قوةً ، حتى أَذِنَ اللّهُ تعالى لنبيه بالقتال ، إِثْرَ تَهْدِيدِ قريشٍ الْمُسْتَمِرِّ للمسلمين ، و محاولتِها إثارةَ الفِتَنِ في المدينة المنورة ، فبدأتِ الغزوات و السرايا تضايق قوافل قريش ، حتى كانت غزوة بدر التي قلبت موازين القوى لصالح المسلمين على المشركين .

و أَخَذَتْ أُسُسُ نظام الدولة الإسلامية المحمدية في المدينة تستكمل هياكلها على جميع الأصعدة : الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية .

و كان صِرَاعُ النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مع المشركين الذين حول المدينة سِجَالٌ ، ينال منهم ، و ينالون منه ، إلى أن صالَحَ النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قريشا على هُدْنَةٍ .

غير أن قريشا نقضت بُنُودَ الهُدْنَةِ ، و غَدَرَتْ بحلفاء النبي صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ، فكان هذا الغدر هو السبب المباشر لفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، يومَ الثالثِ عشر من شهر رمضان الموافق لسنة 630 م .

و في العام العاشر بعد الهجرة ، سنة 632 م ، حج النبيُّ صلى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَجَّةَ الوداع التي أوصى على إِثْرِهَا وَصِيَّتَهُ الأخيرةَ قبل وفاته .

و كانت وفاة النبي صلى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في السنة الحادية عشر للهجرة ، الثانيَ عشر من شهر ربيع الأول الموافق للسادس من شهر جوان سنة 632 م ، بعد حجة الوداع بثلاثة أشهر تقريبا ، و كان له من العمر 63 سنةً هجرية ، و 62 سنةً ميلادية .

قلت في وصف الحقيقة المحمدية

في قصيدة من بحر الرمل

صَـــلِّ يَا رَبِّي وَ سَلِّــــمْ عَــــلَى　　أَسْـــعَدِ الْخَلْـــقِ إِمَــــامِ الْـــوَرَى
أَوَّلِ الْأَرْوَاحِ فَيْــــــضًا وَ مَــــــنْ　　فِي الْكَمَــــــالَاتِ أَتَى الآخِـــــرَا
رُوحِ أَرْوَاحِ الْوُجُــــــــــودِ الَّذِي　　قَـــدْ بَـــدَا فِي النُّـــونِ دُونَ امْـــتِرَا
ظَـــــاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ بَـــــدَا　　بَاطِنًـــا فِي سِرِّ مَــــنْ قَـــدْ دَرَى
أَكْـــمَلِ الْخَلْـــقِ صِــفَاتٍ فَمَـــا　　مِثْـــلُ طَـــهَ فِي الْـــوَرَى بَـــشَرَا
صـــاحِبِ الْمِعْـــرَاجِ مِفْتَاحُـــهُ　　مَـــنْ إلى الأَقْـــصَى مَـــشَى وَ سَرَى
هُـــوَ نُـــورٌ قَـــدْ أَزَاحَ الظُّلَـــمْ　　عِلْـــمُ خَلْـــقِ اللهِ مِنْـــهُ جَـــرَى
لَـــوْلَا طَـــهَ مَـــا بَـــدَا مِـــنْ عَـــدَمْ　　كَائِـــــنٌ أَوْ ذَا الْوُجُــــودَ يَـــرَى
لَـــوْلَا طَـــهَ مَـــا ارْتَقَـــتْ مِـــنْ قِـــيَمْ　　وَ لَمَـــا الـــسَّالِكُ عَزْمًـــا فَـــرَى
بِـــهِ قَـــدْ دَاوَى إِلَهُ الْـــوَرَى　　كُلَّ قَلْـــبٍ عَـــنْ يَقِـــينٍ عَـــرَى

قلت في صفات المصطفى

مُحَمَّـــــدٌ إِمَـــــامُ كُلِّ عَابِـــــدِ ... صَــلَاتُهُ بِاللَّيْـــلِ خَـــيْرُ شَـــاهِدِ
وَ هْـــوَ إِمَـــامُ الْعَـــارِفِينَ بِالْعَـــلِيّْ ... وَ خُلُـــقُ الْقُـــرْآنِ فِيـــهِ يَـــنْجَلِي
دَلَّ بِفِعْـــــلِهِ وَ قَــــوْلِهِ عَــــلَى ... ذِي الْعِــزِّ وَ الْجَــلَالِ جَــلَّ وَ عَــلَا
صَـــلَّى عَلَيْـــهِ رَبُّنَـــا وَ سَـــلَّمَا ... وَ آلِهِ الْأَطْهَـــارِ أَنْجُـــمِ الـــسَّمَا
وَ فِي التَّوَاضُـــعِ ارْتَقَـــى إِلَى الذُّرَا ... قَـالَ : (اطْلُبُـونِي فِي جُمُـوعِ الْفُقَـرَا)
و هْـو الَّذِي فِي التَّقْـوَى حَـازَ الْمُنْتَهَـى ... خَــشْيَتُهُ قَــدْ أَبْهَــرَتْ أُولِي النُّهَــى
وَ كَانَ زَاهِــدًا فِي عِيــشَةِ الْفَنَــا ... يَــرُدُّ مَــا يَــصُدُّ عَــنْ دَارِ الهَنَـا
صَـــلَّى عَلَيْـــهِ رَبُّنَـــا وَ سَـــلَّمَا ... وَ آلِهِ الْأَطْهَـــارِ أَنْجُـــمِ الـــسَّمَا
و هْــو الذي بالعَفْــوِ وَ الْحِـلْمِ اشْـتَهَرْ ... عَفَــا عَــنِ الْأَعْــدَاءِ حِينَمَــا انْتَـصَرْ
وَ هْــوَ الْأَمِــينُ شَــهِدَتْ لَهُ العِــدَى ... بِــذَا فَقَــالُوا : (جَـا الْأَمِــينُ) إِذْ بَـدَا
وَ شَـهِدُوا بِـصِدْقِهِ مِــنْ قَبْـلِ مَـا ... بِالْبَيِّنَـــــاتِ جَــــاءَهُمْ مُعَلِّمَــــا
صَـــلَّى عَلَيْـــهِ رَبُّنَـــا وَ سَـــلَّمَا ... وَ آلِهِ الْأَطْهَـــارِ أَنْجُـــمِ الـــسَّمَا
حَيَـــاؤهُ يَربُـــو حَيَـــا الْعَـــذْرَاءِ ... فِي خِـــدرِها مِـــنْ شِـــدَّةِ الْحَيَـــاءِ
و الرِّفْـــقُ دَأْبُـــهُ لَدَى الْمُعَـــاشَرَهْ ... يُعْطِـي اهْتِمَامًـا بَالِغًـا مَـنْ حـضرَهْ
وَ هْــوَ الــرَّحِيمُ بِالْجَمَــادِ وَ الْبَـشَرْ ... وَ كُلِّ حَيِّ كَالنَّبَـــاتِ وَ الـــشَّجَرْ
صَـــلَّى عَلَيْـــهِ رَبُّنَـــا وَ سَـــلَّمَا ... وَ آلِهِ الْأَطْهَـــارِ أَنْجُـــمِ الـــسَّمَا
وَ بِالــشَّجَاعَةِ امْتَطَــى أَرْضَ الْــوَغَى ... وَ هْــوَ الَّذِي فِي الْبَـأْسِ طُـرًّا يُبْتَغَـى

وَ جُـــودُهُ بِـــهِ طَبِيعَـــةٌ بَـــدَا　　فَــلَا يَقُــولُ : (لَا) لِمَــنْ مَــدَّ يَــدَا
وَ لَا يُوَاجِــهُ الْمُــسِيءَ الْمُعْتَــدِي　　بِمَــا يَــسُوءُهُ عَــسَاهُ يَهْتَــدِي
صَـــلَّى عَلَيْــهِ رَبُّنَـــا وَ سَـــلَّمَا　　وَ آلِهِ الْأَطْهَـــارِ أَنْجُـــمِ الـــسَّمَا
وَ كَانَ سَـــهْلًا يُـــؤْثِرُ التَّيْـــسِيرَ إِنْ　　لَـــمْ يَـــكُ فِيـــهِ إِثْمٌ اَوْ ضُرٌّ زُكِـــنْ
وَ لَا يُحَـــابِي فِي الْحُـــدُودِ أَحَـــدَا　　غَـــضَبُهُ لِلْحَـــقِّ حَيْثُمَـــا بَـــدَا
وَ هْــوَ الْوَقُــورُ وَ الْمُهَــابُ دُونَ مَــا　　تَعَــاظُمٍ بَــلْ بِالْعَظِــيمْ قَــدْ سَمَــا
صَـــلَّى عَلَيْــهِ رَبُّنَـــا وَ سَـــلَّمَا　　وَ آلِهِ الْأَطْهَـــارِ أَنْجُـــمِ الـــسَّمَا

انتهيت بحمد الله و توفيقه و عونه
من كتابي الأنوار المنيرة يوم الأربعاء
الحادي عشر من شهر شوال سنة 1441 للهجرة
الموافق للثالث من شهر جوان
سنة 2020 من الميلاد

الفِهْرِس